

أدب الدنيا والدين

لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

روجت على مخطوطة رقم ٧٧٨ أدب تيمور
المحفظة بدار الكتب المصرية.

دار الكتب العامة
بمصر - بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص ب: ٩٤٢٤ / ١١ تلکس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
رحمه الله تعالى:

الحمد لله ذي الطول والآلاء، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء،
على آله وأصحابه الأتقياء.

أما بعد : فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه، وعظم خطره بكثرة منافعه، وبحسب
منافعه تجب العناية به، وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته.

وأعظم الأمور خطراً وقدرأً، وأعمها نفعاً ورِفقاً^(١)، ما استقام به الدين والدنيا،
وانتظم به صلاح الآخرة والأولى، لأنَّ باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا
نتم السعادة.

وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابها، وتفصيل ما أجمل من أحوالها، على
أعدل الأمرين : من إيجاز وبسط، أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء، وترقيق الأدباء، فلا
ينبو عن فهم، ولا يدق في وهم، مستشهداً من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه، ومن
سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ثم مُتبعاً ذلك بأمثال الحكماء، وآداب
البلغاء، وأقوال الشعراء، لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وتسأم من الفن
الواحد، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان،

(١) الرد : العطاء .

فأهدوا إليها طرائف الحكمة، فكأن هذا الأسلوب، يحبُّ التنقُّلَ في المطلوب، من مكان إلى مكان، وكان المأمونُ رَحِمَهُ اللهُ تعالى، يتنقل كثيراً في داره، من مكان إلى مكان، وينشد قول أبي العتاهية رَحِمَهُ اللهُ :

لا يُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَبَّرَةً إلا التنقُّلُ من حالٍ إلى حالٍ
وجعلتُ ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب :

الباب الأول : في فضل العقل، وذم الهوى .

الباب الثاني : في أدب العلم .

الباب الثالث : في أدب الدين .

الباب الرابع : في أدب الدنيا .

الباب الخامس : في أدب النفس .

وإنما أستمَدَّ من الله تعالى حسنَ معُونته ، وأستودعه حفاظَ موهبته ، بحوله ومشِيئته
وهو حسي من معين وحفيظ .

الباب الأول

في فضل العقل ، وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أمثلاً ، ولكل أدب ينبوعاً . وأس الفضائل ، وينبوع الآداب ، هو عقل ، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، فأوجب التكليف بكماله ، جعل الدنيا مُدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف هِمَمهم ومآربهم ، تباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدّهم به قسمين : قسماً وجب بالعقل ، وكذّده الشرع ، وقسماً جاز في العقل ، فأوجبه الشرع ؛ فكان العقل لها عماداً ورؤي عن نبي ﷺ أنه قال : ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ، أو يرذّده عن دى . وروي عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لكل شيء عَمِل دِعامة ، ودعامة عمل المرء نقله » فبقدر عقله تكون عبادته لربه ، أما سمعتم قول الفُجّار : ﴿ لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك : ١٠] . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أصل الرجل عقله ، وحسبه دينه ، ومُروءته خُلُقُه . وقال الحسن البصري رحمه الله : لا استودع الله أحداً عقلاً ، إلا استنقذه به يوماً ما . وقال بعض الحكماء : العقل أفضل رجوّ ، والجهل أنكى عدوّ . وقال بعض الأدباء : صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء : خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . وقال بعض شعراء ، وهو إبراهيم بن حسان :

زَيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ	وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
شَيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ	وإن كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهُ
عَيْشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ	على العقل يجري علمه وتجاربه
أَفْضَلُ قَسَمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ	فليس من الأشياء شيء يقاربه
ذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ	فقد كملت أخلاقه ومآربه

وأعلم أن بالعقل تُعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات، وقد ينقسم قسمين: غريزي ومكتسب.

فالغريزي هو العقل الحقيقي، وله حدّ يتعلق به التكليف، لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً، وخرج به إلى حدّ الكمال، كما قال صالح بن عبد القدوس: إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه وروى الضحاك^(١) في قوله تعالى: ﴿لِينْذِرْ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] أي من كان عاقلاً.

واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم: هو جوهر لطيف، يفصل به بين حقائق المعلومات. ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله؛ فقالت طائفة منهم: محله الدماغ، لأن الدماغ محلّ الحس. وقالت طائفة أخرى منهم: محله القلب، لأن القلب معدن الحياة، ومادة الحواس. وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف، فاسد من وجهين: أحدهما: أن الجواهر متماثلة، فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها، ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله. والثاني: أن الجوهر يصح قيامه بذاته، فلو كان العقل جوهرًا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل، فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا. وقال آخرون: العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى. وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله، فبعيد من الصواب من وجه واحد، وهو أن الإدراك من صفات الحي، والعقل عَرَضٌ، يستحيل ذلك منه، كما يستحيل أن يكون متلذذاً أو آلياً أو مشتهياً. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية. وهذا الحد غير محصور، لما تضمنه من الإجمال، وتناوله من الاحتمال، والحدُّ إنما هو بيان المحدود، بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال. وقال آخرون، وهو القول

(١) هو الضحاك بن مزاحم الملهالي الخراساني من المحدثين. يروي عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر وأنس بن مالك. وعنه خلق، وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وضعفه شعبة بن الحجاج. توفي سنة مائة وخمس هجرية.

لصحيح: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية. وذلك نوعان: أحدهما: ما وقع عن ترك الحواس، والثاني ما كان مبتدأ في النفوس. فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس، فمثل المرئيات المدركة بالنظر، والأصوات المدركة بالسمع، والطعوم المدركة بالذوق، والروائح المدركة بالشم، والأجسام المدركة باللمس: فإذا كان لإنسان ممن لو أدرك بجواسه هذه الأشياء، لعلم، ثبت له هذا النوع من العلم، لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم، لا يخرج به. من أن يكون كامل لعقل، من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم.

وأما ما كان مبتدأ في النفوس، فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم، وأن لموجود لا يخلو من حدوث أو قدمه، وأن من المحال اجتماع الضدين، وأن الواحد أقل من الاثنين. وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل، مع سلامة حاله، وكهال عقله، فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل.

وسمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقول الناقة من الشرود إذا نفرت، ولذلك قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي، فأنت عاقل.

وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل، وهو ما روي عن النبي ﷺ، أنه قال: «العقل نور في القلب، يفرق بين الحق والباطل». وكل من نفى أن يكون العقل جوهرًا، أثبت محله في القلب، لأن القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيرا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ [الحج: ٤٦] فدلّت هذه الآية على أمرين: أحدهما: أن العقل علم، والثاني: أن محله القلب. وفي قوله تعالى: ﴿يعقلون بها﴾ تأويلان: أحدهما: يعلمون بها، والثاني: يعتبرون بها. فهذه جملة القول في العقل لغريزي.

وأما العقل المكتسب، فهو نتيجة العقل الغريزي، وهو نهاية المعرفة، وصحة لسياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حد، لأنه ينمو إن استعمل، وينقص إن أهمل، غناؤه يكون بأحد وجهين: إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى، ولا عاّد من شهوة، كالذي يحصل لذوي الأسنان من الخنكة، وصحة الرويّة، بكثرة

التجارب، وممارسة الأمور، ولذلك حَمِدَت العرب آراء الشيوخ، حتى قال بعضهم: المشايخ أشجار الوقار، ومنايع الأخبار، لا يطيش لهم سهم: ولا يسقط لهم وهم، إن رأوك في قبيح صدوك، وإن أبصروك على جيل أمدوك. وقيل: عليكم بآراء الشيوخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأساعهم آثار الغير. وقيل في منشور الحكم: من طال عمره، نقصت قوة بدنه، وزادت قوة عقله. وقيل فيه: لا تدع الأيام جاهلاً إلا أدبته. وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة. وقال بعض البلغاء: التجربة مرآة العقل، والغيرة ثمرة الجهل. وقال بعض الأدباء: كفى مخبراً عما بقي ما مضى، وكفى عبراً لأولى الألباب ما جربوا. وقال بعض الشعراء:

ألم تر أن العقل زين لأهلـه ولكن تمام العقل طول التجارب
وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الأيام في كبرها عقلاً
وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء، وحسن الفطنة، وذلك جودة الخدس، في زمان غير مُمهّل للخدس، فإذا امتزج بالعقل الغريزي، صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب، كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل، وجودة الرأي، حتى قال هرم ابن قُطبة^(١)، حين تنافر إليه عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة: ^(٢) عليكم بالحديث السن، الحديد الذهن. ولعل هرمأ أراد أن يدفعها عن نفسه، فاعتذر بما قال، لكن لم ينكرا قوله، إذعاناً للحق، فصارا إلى أبي جهل، لحدائثة سنه، وحدة ذهنه، فأبى أن يحكم بينهما، فرجعا إلى هرم، فحكم بينهما، وفيه قال لبيد:

يا هرم ابن الأكرمين منصباً إنك قد أوتيت حكماً معجباً

(١) هرم بن قُطبة بن سنان الفزاري: أحد حكام العرب بين السادات أدرك الإسلام وله صفة.

(٢) عامر بن الطفيل بن مالك بن الأحوص، وعلقمة بن علاثة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة، فهما من قبيلة واحدة، وكل منهما سيد من سادات قومه، فارس شاعر. والمنافرة: أن يجتمع رجلان عفتان في مجلس فبه أحد الرجال العقلاء ليقضي بينهما في أيهما أعز نفراً، وهي من نظام الجاهلية الذي أبطله الإسلام.

وقد قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب: فإنهم ينتجون رأياً لم ينله طول القدم، ولا استولت عليه رطوبة الهرم. وقد قال الشاعر:

رأيت العقل لم يكن انتهاباً ولم يُقسم على عدد السنين
ولو أن السنين تقاسمتُهُ حوى الآباء أنصبّة البنينا

وحكى الأصمعي^(١) رحمه الله قال: قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحدثني، فأمّنتني بفصاحة وملاحة: أيسرك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنت أحمق؟ قال: لا والله قال: فقلت: ولم؟ قال: أخافه أن يجني عليّ حقي جناية تذهب بمالي، ويبقى عليّ حقي. فانظر! إلى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه، واستنبط بجودة قريحته، ما لعله يدقّ على من هو أكبر منه سناً، وأكثر تجربة.

وأحسن من هذا الذكاء والفطنة، ما حكى ابن قتيبة: أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون، وفيهم عبدُ الله بن الزبير^(٢)، فهربوا منه إلا عبد الله، فقال له عمر رضي الله عنه: مالك؟ لِمَ لا تهرب مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين: لم أكن على ريبة فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك. فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة، وقوة المنة، وحسن البديهة، كيف نفى عنه اللوم، وأثبت له الحجة: فليس للذكاء غاية، ولا لجودة القريحة نهاية.

وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق^(٣) بضرب أعناق أسارى من الروم، فاستعفاه الفرزدق، فلم يفعل، وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً، فقال الفرزدق: بل أضربهم

(١) الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع، كان حافظاً للغة والأدب، عارفاً بتاريخ العرب. توفي بالبصرة سنة ١١٤هـ أو ١١٦هـ.

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام: أمه أسماء بنت أبي بكر. وهو أول مولود في المدينة للمهاجرين المسلمين ببيع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وبعض أهل الشام، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة، لما حاصر الحجاج مكة وضرب الكعبة بالمنجنيقات.

(٣) الفرزدق: اسمه همام بن غالب بن صعصعة التميمي، أحد ثلاثة الشعراء الكبار في عصر بني أمية، لقب الفرزدق لضخامة وجهه وغلظه، تشبيهاً له بقطع العجين الضخمة، وكان ينافس جريراً في الشعر، ولذلك تهاجيا زمناً طويلاً، وعرفت أهاجيهم بالنقائض. وماتا سنة عشر ومائة للهجرة.

بسيف أبي رغوان مجاشع، يعني سيف نفسه، فقام فضرب به عنق رومي منهم، فنبأ
السيف عنه، فضحك سليمان ومن حوله، فقال الفرزدق:

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيدهمُ خليفة الله يستسقى به المطرُ
لم ينبُ سيفي من رُعب ولا دهشٍ عن الأسير ولكن أخطر القدرُ
ولنْ يقدمَ نفساً قبل ميتتها جمعُ اليدين ولا الصمصامة الذكر^(١)

ثم أغمد سيفه وهو يقول:

ما إن يعابُ سيدٌ إذا صَبَا ولا يُعابُ صارمٌ إذا نبا
ولا يعابُ شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس وهو يقول: كأني بآبن المراغة^(٢) قد هجاني، فقال:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قام فانصرف، وحضر جرير، وخبر بالخبر، ولم ينشد له الشعر، فأنشأ يقول:
بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم^(٣)

ثم قال: يا أمير المؤمنين، كأني بآبن القين^(٤) وقد أجابني، فقال:

ولا نقتلُ الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير، ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر
بحدسه، فقال الفرزدق:

(١) الصمصامة: السيف الذي لا ينثني. والذكر: الحديد الصلب، وهو الفولاذ.

(٢) المراغة: الأتان التي لا تمنع الفحولة بل تطلبها. وآبن المراغة: كنية كني بها الفرزدق أو الأخطل جريراً، تحقيراً له، بتسمية أمه بالأتان.

(٣) أبو رغوان: كنية مجاشع جد الفرزدق: والمراد بسيف ابن ظالم: سيف المهلب بن أبي صفرة، وأبو صفرة: هو ظالم بن سراقبة بن كندي: وكان المهلب وبنوه من أكبر القواد في الدولة الأموية، مات سنة ثلاث ومئتين.

(٤) ابن القين: يريد به الفرزدق لأن بعض آبائه كانوا قيوناً: أي صاغة بالبصرة.

كذلك سيوف الهند تنبو ظبائها وتقطع أحياناً مناط التائم^(١)
ولن نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم أباً عن كليب أو أخاً مثل دارم^(٢)

فشاع حديث الفرزدق بهذا، حتى حكي أن المهديّ أتى بأسرى من الروم، فأمر بقتلهم، وكان عنده شبيب بن شيبّة، فقال له: اضرب عنق هذا العليّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد علمت ما ابتلي به الفرزدق، فعير به قومه إلى اليوم، فقال: إنما أردت تشريفك، وقد أعفيتك. وكان أبو الهول الشاعر حاضراً، فقال:

جزعت من الروميّ وهو مقيّد فكيف وكو لاقيه وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنجّ شيباً عن قراع كتيبة وأذن شيباً من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق إن صح، من جودة القريحتين، ولكن من اتفاق الخاطرين. ولمثل ذلك قالت الحكماء: آية العقل سرعة الفهم، وغايته إصابة الوهم.

وليس لمن منح جودة القريحة، وسرعة الخاطر، عجز عن جواب وإن أعضل، كما قيل لعلّي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم. وقيل لعبد الله بن عباس: أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد؟ فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان. وهذان الجوابان جوابا إسكات، تضمننا دليلاً إذعان، وحجتي قهر، ومن غير هذا الفن وإن كان مسكناً، ما حكي عن إبليس لعنه الله: أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام، قال: أأنت تقول إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك؟ قال: نعم. قال: فارم نفسك من ذروة هذا الجبل، فإنه إن يُقدر لك السلامة تسلّم؛ فقال له: يا ملعون، إن لله أن يختبر

(١) الغبة: حد السيف الذي يقطع به. والتائم: الخرزات تعلق على الصبي، لتقيه من العين. ومناطها موضع تعليقها في الرقبة.

(٢) كليب بن ربيعة: أخو مهلهل الشاعر، وخال امرئ القيس الشاعر، وكان أعز الناس في العرب ودارم: هو ابن مالك بن حنظلة التميمي، وهو أبو مجاشع، وبنيته من أكبر بيوت بني تميم، وفيه الشرف على دعوى الفرزدق.

عباده، وليس للعبد أن يختبر ربه. ومثل هذا الجواب لا يُستغرب من أنبياء الله تعالى، الذين أمدّهم بوحيه، وأيدّهم بنصره، وإِنَّمَا يُستغرب ممن يلجأ إلى خاطره، ويعول على بديهته. وروى قثم بن العباس رضي الله عنها، قال: قيل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كم بين السماء والأرض؟ قال: دعوة مستجابة. قيل فكم بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس. فكان هذا السؤال من سائله: إما اختباراً وإما استبصاراً، فصدر عنه من الجواب ما أسكت.

فأما إذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب، وهو ما ينميهِ فرط الذكاء، بجودة الحدس، وصحة القرينة بحسن البديهة، مع ما ينميهِ الاستعمال بطول التجارب، ومرور الزمان بكثرة الاختبار، فهو العقل الكامل على الإطلاق، في الرجل الفاضل بالاستحقاق. روى أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أثني على رجل عند رسول الله ﷺ بخير، فقال: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله: إن من عبادته.... إن من خلقه.... إن من فضله.... إن من أدبه.... فقال: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله: نثني عليه بالعبادة وأصناف الخير، وتسالنا عن عقله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الأحق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإِنَّمَا يَقْرُبُ النَّاسُ مِنْ رَبِّهِمْ بِالزُّلْفِ عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِمْ.

واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تنهى وزاد، هل يكون فضيلة أم لا؟ فقال قوم: لا يكون فضيلة، لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين، كما أن الخير متوسط بين رذيلتين، فما جاوز المتوسط خرج عن حد الفضيلة، وقد قالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك، عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإن الزيادة عيب، والنقصان عجز. هذا ما وردت به السنة عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «خير الأمور أوسطها». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور النمط الأوسط، إليه يرجع العالي، وبه يلحق التالي. وقال الشاعر:

لا تَذْهَبَنَّ فِي الْأُمُورِ فِطْرًا^(١) لا تسألن إن سألت شططا
وكن من الناس جميعاً وسطا

(١) الفط: بالتحريك: السابق المقدم. رجل فط، وقوم فط.

قالوا : لأن زيادة العقل تُقضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر ، وذلك مذموم ، وصاحبه ملوم ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري ^(١) أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، أعن مَوْجِدَةً أو خيانة ؟ فقال : لا عن واحدة منهما ، ولكن خفتُ أن أحل على الناس فضل عقلك .

ولأجل هذا المحكي عن عمر ، ما قيل قديماً : إفراط العقل مضر بالجسد . وقال بعض الحكماء : كفك من عقلك ما ذلك على سبيل رُشْدك . وقال بعض البلغاء : قليل يكفي خير من كثير يُطغي . وقال آخرون ، وهو أصح القولين : زيادة العقل فضيلة : لأن المكتسب غير محدود ؛ وإنما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصاً مذموماً ، لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة ، كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة ، نسب إلى التهور ؛ والسخي إذا زاد على حد السخاء ، نسب إلى التبذير ، وليس كذلك حال العقل المكتسب ، لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمر ، وحسن إصابة بالظنون ، ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون ، وذلك فضيلة لا نقص .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الناس أعقل الناس » . وروي عنه ﷺ أنه قال : « العقل حيث كان أنوف مألوف » : وقد قيل في تأويل قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ [الاسراء : ٨٤] أي بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد : كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، كان حُتفه في أغلب خصال الخير عليه و قيل في منشور الحكم : كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل : فإنه إذا كثر غلا : وقال بعض البلغاء : إن العاقل من عقله في إرشاد ، ومن رأيه في إمداد ، فقوله سديد ، وفعله حميد ، والجاهل من جهله في إغواء ، ومن هواه في إغراء ، فقوله سقيم ، وفعله ذميم ، وأنشدني ابن لنكك ^(٢) لأبيه :

من لم يكن أكثره عقله أهلكه أكثر ما فيه
فأما الدهاء والمكر فهو مذموم ، لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ، ولو

(١) هو عبدالله بن قيس ، صحابي جليل ، توفي سنة خمس وأربعين .

(٢) هو أبو الحسين إبراهيم بن لنكك البصري ، شاعر عباسي ، مقدم في الأشعار العربية والأدب .

صرفه إلى الخير لكان محموداً. وقد ذكر المغيرة بن شعبه^(١) عمر بن الخطاب، فقال: كان والله أفضل من أن يُخدع، وأعقل من أن يُخدع، وقال عمر: لست بالخب، ولا يخدعني الخب.

واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشر، كزياد وأشباهه من الدّهاة: هل يسمى الدّهية منهم عاقلاً أم لا؟ فقال بعضهم: أسميه عاقلاً، لوجود العقل فيه، وقال آخرون: لا أسميه عاقلاً، حتى يكون خيراً ديناً، لأن الخير والدين من موجبات العقل، فأما الشرير فلا أسميه عاقلاً، وإنما أسميه صاحب روية وفكر. وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه، حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه، فيمن أوصى بثلاث ماله لأعقل الناس: إنه يكون مصروفاً في الزّهاد، لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغتروا بالأمل، وروى لقمان بن عامر، عن أبي الدرداء^(٢): أن رسول الله ﷺ قال: «يا عويمر، ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً، قلت: بأبي أنت وأمي! ومن لي بالعقل؟ قال: اجتنب محارم الله، وأدّ فرائض الله تكن عاقلاً، ثم تنقل بصالحات الأعمال، تزدد في الدنيا عقلاً، وتزدد من ربك قرباً، وبه عزاء».

وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مَطْهَرَةٌ	فَالْعَقْلُ أُولَاهَا، وَالدِّينُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا، وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا	وَالْجُودُ خَامِسُهَا، وَالْعُرْفُ سَادِسُهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا، وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا	وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِيهَا
وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَصَدِّقُهَا	وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا
وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا	مَنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنِي مِنْكَ عَلَى	أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ تُبْدِيهَا

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي، لأنه نتيجة منه، وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب، فيكون صاحبه مسلوب الفضائل، موفور الرذائل،

(١) المغيرة بن شعبه: أبو عبدالله بن عامر الثقفي، أحد دهاة العرب. توفي سنة خمسين للهجرة.

(٢) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، صحابي جليل مات في دمشق سنة ٣٢ هـ.

كالأنوك^(١) الذي لا تجد له فضيلة، والأحق الذي قلما يخلو من رذيلة، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأحق كالفخار، لا يرقع ولا يُشعب»، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأحق أبغض خلق الله إليه، إذ حرمه أعز الأشياء عليه»، وقال بعض الحكماء: الحاجة إلى العقل، أقبح من الحاجة إلى المال، وقال بعض البلغاء: دولة الجاهل، عبرة العاقل.

وقال أنوشروان^(٢) لبزرجمهر: أي الأشياء خير للمرء؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن لم يكن؟ قال: فإخوان يسترون عيبه، قال: فإن لم يكن؟ قال: فمال يتجيب به إلى الناس، قال: فإن لم يكن؟ قال: فعي صامت، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت جارف.

وقال سابور^(٣) بن أردشير: العقل نوعان: أحدهما مطبوع، والآخر مسموع ولا يصلح واحد منها إلا بصاحبه، فأخذ ذلك بعض الشعراء، فقال:

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل، بما فيه من الفضائل، والأحق بما فيه من الرذائل، فقال: العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعد مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد، ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مسيء، سبب له أسباب العذر، أو منحه الصفح والعفو، والأحق ضالّ مضل، إن أونس تكبر، وإن أوحش تكدر، وإن استنطق تخلف، وإن ترك تكلف، مجالسته مهنة، ومعاتبته محنة، ومحاورته تُغر، وموالاته تُضر، ومقاربتة عمى، ومقارنته شقاء. وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل، والأحق يُسيء إلى غيره، ويظن أنه قد أحسن إليه فيطالبه بالشكر، ويحسن إليه فيظن

(١) الأنوك: الأحق.

(٢) أنوشروان بن قباد بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام، الملقب بالملك العادل، ملك سبأ وأربعين سنة، وبزرجهر كان وزيره، وهو من أكثر الفرس حكماً ومواعظ.

(٣) سابور: اسم ملك من ملوك النرس، وهو سابور بن أردشير بن بابك، من أولاد بهمن الأكبر.

أنه قد أساء إليه فيطالبه بالوتر، فمساوي الأحق لا تنقضي، وعيوبه لا تنتهي، ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لوحث ما وراءها، بما هو أدنى منها وأردى، وأمرٌ وأدهى، فلما أكثر العبر، لمن نظر، وأنفعها لمن اعتبر!

وقال الأحنف بن قيس^(١): من كل شيء يحفظ الأحق، إلا من نفسه، وقال بعض البلغاء: إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق، وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق، فإن أتت منها شُبهة مع جهل، أو فاتت منها بُغية مع عقل، فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل، والزهد في العقل، فدولة الجاهل من الممكنات، ودولة العاقل من الواجبات، وليس من أمكنه شيء من ذاته، كمن استوجهه بآلته وأدواته. وبعد، فدولة الجاهل كالغريب، الذي يجنّ إلى النقلة، ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن إلى الوصلة، فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل، أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل، فإن الجهل ينزله منها، ويزيله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته، بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه حاجياً، ووليه معادياً.

واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل، كذلك يظهر من رذائل الجاهل، حتى يصير مثلاً في الغابرين، وحديثاً في الآخرين، مع هتكه في عصره، وقبح ذكره في دهره، كالذي رواه عطاء عن جابر، قال: كان في بني إسرائيل رجل له حمار، فقال: يا رب، لو كان لك حمار لعلفته مع حماري! فهم به نهي من أنبياء الله، فأوحى الله إليه: إنما أثيب كل إنسان على قدر عقله.

واستعمل معاوية رجلاً من كلب^(٢)، فذكر المجوس يوماً عنده، فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أُمي. فبلغ ذلك معاوية، فقال: قبحه الله! أترونه لو زادوه فعل، وعزله وولّى الربيع العامري - وكان من النوكي - سائر اليامة، فأقاد كلباً بكلب، فقال فيه الشاعر:

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ لِقَاؤُهُ وَأَنَّ الرَّبِيعَ الْعَامِرِيَّ رَقِيعٌ
أَقَادَ لَنَا كَلْباً بِكَلْبٍ وَلَمْ يَدْعُ دِمَاءَ كِلَابِ الْمُسْلِمِينَ تَضْيِغُ

(١) اسمه الضحّاك أو صخر بن قيس بن معاوية، بن حصن السعدي سيد بني تميم وزعيمهم في الكوفة، أدرك النبي ولم يره، وكان معروفاً بالحلم وجودة الرأي. مات في الكوفة سنة سبع وستين.

(٢) قسلة كلب من عرب اليمن، كانت تسكن أرض السهابة بين الشام والعراق.

وليس لمعارَ الجهل غاية ، ولا لمضارَ الحمق نهاية ، قال الشاعر :

لكل داء دواءٌ يُستطَبُّ به إلا الحماقة أُميتْ من يُداوِيها

فصل : وأما الهوى فهو عن الخير صادة ، وللعقل مضاد ، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ، ومدخل الشر مسلوكةً .

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنها : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية : ٢٣] وقال عكرمة ^(١) في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنكُمْ فَتَنَتْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحديد : ١٤] يعني بالشهوات ، ﴿وَتَرَبَّصْتُكُمْ﴾ [الحديد : ١٤] يعني بالتوبة ، ﴿وَارْتَبْتُكُمْ﴾ [الحديد : ١٤] يعني في أمر الله ﴿وَعَرَّيْتُكُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ [الحديد : ١٤] يعني بالتسويق ، [حتى جاء أمرُ الله] ﴿[الحديد : ١٤] يعني الموت ، [وَعَرَّيْتُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ [الحديد : ١٤] يعني الشيطان .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « طاعة الشهوة داء ، وعصيانها دواء » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اقدعوا ^(٢) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلعةٌ ، تنزع إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مُرِّي ، وإن الباطل خفيف وبيّ ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً . وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق ، وطول الأمل ينسي الآخرة . وقال الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه . وقال أعرابي : الهوى هوان ، ولكن غُلِطَ باسمه ، فأخذه الشاعر ، وقال :

إن الهوان هو الهوى قَلِبَ اسْمُهُ فإذا هويتَ فقد لقيت هَوَانَا
وقيل في منشور الحكم : من أطاع هواه ، أعطى عدوه مُناه : وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع ، وقال بعض البلغاء : أفضل الناس من عصي

(١) عكرمة أبو عبدالله المدني البربري من أهل المغرب مولد ابن عباس ، كان من فقهاء المسلمين وعلمائهم ، أخذ عن مولاه وعن ابن عمر . وكان يرى رأي الخوارج ، مات بالمدينة سنة سبع ومئة للهجرة .

(٢) اقدعوا : امنعوا .

هواه، وأفضل منه من رفض دنياه، وقال هشام بن عبد الملك بن مروان^(١) :
إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال
قال ابن المعتز رحمه الله : لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال
الشاعر :

إذا ما رأيت المرة يقتاده الهوى . فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه . وقد وجدت فيه مقالاً عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى . من الناس إلا حازم الرأي كامله
ولما كان الهوى غالباً، وإلى سبيل المهالك مُورداً، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً،
يلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته، لأن سلطان الهوى
قوي، ومدخل مكره خفي، ومن هذين الوجهين يُؤتى العاقل، حتى تنفذ أحكام
الهوى عليه، أعني بأحد الوجهين: قوة سلطانه، وبالأخر: خفاء مكره؛ فأما الوجه
الأول: فهو أن يقوى سلطان الهوى، بكثرة دواعيه، حتى تستولي عليه غلبة الهوى
والشهوات، فيكّل العقل عن دفعها، ويضعف عن منعها، مع وضوح قبورها في العقل
المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر، وعلى الشباب، أغلب، لقوة شهواتهم،
وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم، وأنهم ربما جعلوا الشباب عذراً لهم، كما قال محمد
ابن بشير :

كلّ يرى أن الشباب له في كل مبلغ لذة عذّر
ولذلك قال بعض الحكماء : الهوى ملك غشوم، ومتسلط ظلوم . وقال بعض الأدباء :
الهوى عسوف، والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء :

يا عاقلاً أردى الهوى عقله . مالك قد سدت عليك الأمور
أتجعل العقل أسير الهوى . وإنما العقل عليه أمير
وحسم ذلك : أن يستعين العقل بالنفس النّفور، فيشعرها ما في عواقب الهوى، من
شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام . فقد قال النبي ﷺ :

(١) هو عاشر الخلفاء الأمويين . توفي سنة خمس وعشرين ومئة .

« حُقَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُقَّتِ النارُ بالشهوات »: أخبر أن الطريق إلى الجنة: باحتمال المكاره، والطريق إلى النار: باتباع الشهوات.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم، وآجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوّفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرغبة إذا اجتمعتا على النفس ذلّت لها وانقادت. وقد قال ابن السكّال^(١): كن لهواك مُسوّفاً، ولعقلك مُسّعفاً، وانظر ما تسوء عاقبته، فوطن نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء، كما تخاف من الداء وقال الشاعر:

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى تَوَلَّيْتُ وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أَطْمَعْتُ تَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ
فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى، لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحوراً، وبالنفس مقهوراً، ثم له الحظ الأوفى في ثواب الخالق، وثناء المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠] وقال الحسن البصري: أفضل الجهاد جهاد الهوى. وقال بعض الحكماء: أعزّ العزّ الامتناع من تملك الهوى. وقال بعض البلغاء: خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه، وقال بعض الأدباء: من أمارت شهوته، فقد أحمى مَروءته. وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله، فهو شر من البهائم. وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته؟ قال: من جاهد الهوى طاعة لربه، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه. وقال بعض الشعراء:

قد يدركُ الخازمُ ذو الرأيِ المنَى بطاعةِ الحزمِ وعصيانِ الهوى

(١) أبو العباس محمد بن سبيع العجلي، كان من الزهاد، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة.

وأما الوجه الثاني فهو أن يُخْفِيَ الهوى مكرهه، حتى تموه أفعاله على العقل، فيتصوّر القبيح حسناً، والضرر نفعاً، وهذا يدعو إليه أحد شيئين: إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء، فيخْفِيَ عنها القبيح، لحسن ظنّها، وتتصوره حسناً، لشدة ميلها، ولذلك قال النبي ﷺ: «حُبُّكُ الشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ»: أي يُعْمِي عن الرُّشْد، ويصِمُّ عن الموعظة، وقال علي رضي الله عنه: الهوى عمى، قال الشاعر:

حسنٌ في كلّ عَيْنٍ منْ تَوَدَّ (١)

وقال عبدالله (٢) بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولستُ براءَ عيبَ ذي الوُدِّ كلّهُ ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضياً
فعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلَةٌ ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

وأما السبب الثاني: فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبهه، وطلب الراحة في اتباع ما يسهل، حتى يظنّ أن ذلك أوفقُ أمره، وأحد حاله، اغترارا بأن الأسهل محمود، والأعسر مذموم، فلن يعدم أن يتورّط يُجْدِع الهوى، وزينة المكر في كل مخوف حذر، ومكروه عسر؛ ولذلك قال عامر بن الظرب (٣) الهوى يقظان، والعقل راقد، فمن ثم غلب. وقال سليمان بن وهب: الهوى أمتع، والرأي أنفع، وقيل في المثل: العقل وزير ناصح، والهوى وكيل فاضح، وقال الشاعر:

إذا المرءُ أعطى نفسه كل ما اشتَهت ولم ينهها تاقَتْ إلى كلّ باطلٍ
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعتَه إليه من حلاوة عاجلٍ

(١) هذا عجزيت لعمر بن أبي ربيعة المخزومي، وصدره: «فتضاحكن وقد قلن لها» من قصة شعرية لطيفة، مطلعها: «ليت هذا أنجزتنا ما تعد».

(٢) من فتیان بني هاشم وأجوادهم وفصحائهم، كان صديقاً للحسين بن عبدالله بن العباس، ثم وقع بينهما أمر، فتهاجرا، فقال عبدالله:

إن حسينا كان شيئا ملفقا فمحضه التكشيف حتى بدا ليا
وأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخاليا
ولست براء... الخ البيهقي (عن منهاج اليقين).

(٣) عامر بن الظرب العدواني: أحد حكام العرب المشهورين في الجاهلية، كان يقضي بينهم في المسائل المشكلة، إلى أن كبر وضعف.

وجسم السبب الأول: أن يجعل فكر قلبه، حكماً على نظر عينه، فإن العين رائد الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد الحق، والحق من دواعي العقل. وقال بعض الحكماء: نظرُ الجاهل بعينه وناظره، ونظرُ العاقل بقلبه وخاطره. ثم يتهم نفسه في صواب ما أحببت، وتحسين ما اشتئت، ليصح له الصواب، ويتبين له الحق، فإن الحق أثقل محملاً، وأصعب مركباً، فإن أشكل عليه أمران، اجتنب أحبهما إليه، وترك أسهلها عليه، فإن النفس عن الحق أنفر، وللهو أثر. وقد قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك. وعلة هذا القول: هو أن الثقل تبطي النفس عن التسرع إليه، فيصح مع الإبطاء وتطاول الزمان، صواب ما استعجم، وظهور ما استبهم. وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من تفكر أبصر، والمحبوب السهل تسرع النفس إليه، وتُعجل بالإقدام عليه، فيقصر الزمان عن تصفحه، ويفوت استدراكه، لقضي فعله، فلا ينفع التصفح بعد العمل، والاستدراك بعد الفوت. وقال بعض الحكماء: ما كان عنك معرضاً، فلا تكن له متعرضاً. وقال الشاعر:

أليس طلابُ ما قد فات جهلاً وذكر المرء ما لا يستطيعُ
ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى، وما يقارنه من محن الدنيا، فقال: الهوى مطيئة الفتنة، والدنيا دار المحنة، فاترك الهوى تسلم، وأعرض عن الدنيا تغم، ولا يغرتك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري، فمدة اللهو تنقطع، وعارية الدهر تُرتجع ويبقى عليك ما تركته من المحارم، وتكتسبه من المآثم، وقال علي بن عبد الله الجعفري^(١) سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد:

أهوى هوى الدين واللذات تُعجيني فكيف لي بهوى اللذات والدين!
فقلت: هما ضرطان، فذر أيتها شئت، وخذ الأخرى.

فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة

(١) هو المشهور بابن المديني، الإمام المبرز في علوم الحديث. قال البخاري: ما استصغرت نفسي عند أحد قط، إلا عند ابن المديني. وهو شيخ شيوخ المحدثين الكبار. ولد بسمرا، ومات بالعسكر سنة أربع وثلاثين ومئتين.

والمدلول، فهو أن الهوى مخلص بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة بنيل المستلذات، فصارت الشهوة من نتائج الهوى، وهي أخص، والهوى أصل، هو أعم. ونحن نسأل الله أن يكفينا دواعي الهوى، ويصرف عنا سبل الردى، ويجعل التوفيق لنا قائداً، والعقل لنا مرشداً؛ فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: عطف نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني، وقال محمد بن كناسة:

ما من روى أدباً ولم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما يعلم عاملاً من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغنى إصابة قائل أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر (١):

يأثها الرجل المعلوم غيره هلاً لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذو الضنى كما يصح به وأنت سقيم
ابداً بنفسك فانهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهنالك تعذر إن وعظت ويقتدى بالقول منك، ويقبل التسليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عاراً عليك إذا فعلت عظيم

حكى أبو فروة (٢) أن طارقاً صاحب شرطة خالد (٣) بن عبدالله القسري، مرّ بابن شبرمة (٤) وطارق في موكبه، فقال ابن شبرمة:

أراها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيفٍ عن قريبٍ تقشع (٥)

(١) هو أبو الأسود الدؤلي، وقيل الأخطل، والأبيات في أشعارها كلها.

(٢) أبو فروة: هو عدي بن عدي الجزري الكندي التابعي، قال البخاري: هو سيد أهل الجزيرة موكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة الموصل. توفي سنة عشرين ومئة.

(٣) خالد بن عبدالله بن يزيد القسري البجلي، كان من أمراء الدولة الأموية، وأخا هشام من الرضاعة، ولأم هشام العراق بعد عمر بن هبيرة، وكان خالد جواداً عظيم الهمة، وله أخبار ومكايد. مات بالشام سنة ست وعشرين ومئة.

(٤) هو عبدالله بن شبرمة الكوفي القاضي، فقيه أهل الكوفة، وكان راوية شاعراً خطيباً ناسباً، حاضر الجواب، وكان يشبه بعامر السعبي، والبيت الذي تمثل به لعمران بن حطان.

(٥) تمشع: تنكشف وتضمحل.

اللهم لي ديني ، ولهم دنياهم . فاستعمل^(١) ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء ، فقال له ابنه أبو بكر : أتذكر قولك يوم كذا إذ مرَّ بك طارق في موكبه ؟ فقال : يا بُنيّ ، إنهم يجدون مثل أبيك ، ولا يجد أبوك مثلهم^(٢) ، إن أباك أكل من حلوائهم ، فحطَّ^(٣) في أهوائهم .

أما ترى هذا الدِّينَ الفاضل كيف عُوِّجِلَ بالتقريع ، وقوبِلَ بالتوبيخ ، من أخص ذويه ، ولعله من أبرّ بنيه ! فكيف بنا ونحن أطلق منه عِناناً ، وأقلق جناناً ، إذا رُمقَتنا أعين المتتبعين ، وتناولتنا ألسن المتعنتين : هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذاً ، وسوى عصمته معاذاً ؟

(١) أي ولي من طرف أي جعفر المنصور .

(٢) أي معروف قدره ونوهون بذكره .

(٣) فحط : كذا في مهاج القيس ، أي سقط فيما سقطوا فيه . وفي طبعة بولاق : فخط

الباب الثاني

باب أدب العلم

[شرف العلم وفضله]

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طُلب وجدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه يُثمر على صاحبه، وفضله يَنمي عند طالبه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فمَنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما قد خُص به العالم من فضيلة العلم. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فنفي أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً، أو يفهم عنه زجراً.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إني علم، أحبُّ كل علم». وروى أبو أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ عن رجلين: أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال ﷺ: «فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم رجلاً». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس أبناء ما يُحْسِنُونَ. وقال مصعب^(١) بن الزبير لابنه: تعلم العلم، فإن يكن لك مال، كان لك جالاً، وإن لم يكن لك مال، كان لك مالاً. وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقمتم، وإن كنتم وسطاً سُدتم، وإن كنتم سُوقَةً عِشتم. وقال بعض الحكماء: العلم شرف من لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خَلْف، والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء: تعلّم العلم، فإنه يَقومُك ويسدّدك صغيراً،

(١) هو ابن الزبير بن العوام، كان أبوه من كبار الصحابة وقتل هو سنة ٧٢ للهجرة.

ويقدمك ويسودك كبيراً، ويصلح زيفك وفاسدك، ويرغم^(١) عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك، ويصحح همتك وأملك. وقال علي رضي الله تعالى عنه: قيمة كل امرئ ما يُحسِن. فأخذه الخليل^(٢)، فنظمه شعراً، فقال:

لا يكونُ العليُّ مثلَ الدِّيِّ لا ولا ذو الذكاء مثلُ الغبيِّ
قيمةُ المرءِ قدرُ ما يُحسِنُ المرءُ قضاةُ من الإمامِ عليٍّ

وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل؛ لأن فضل العلم إنما يُعرف بالعلم، وهذا أبلغ في فضله، لأن فضله لا يعلم إلا به، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم، جهلوا فضله، واسترذلوا أهله، وتوهّموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة، والطرف المشتهاة، أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز^(٣) في منشور الحكم: العالم يعرف الجاهل، لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم، لأنه لم يكن عالماً، وهذا صحيح، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله، انصرفوا الزاهدين، وانحرفوا عنه وعنهم، انحرف المعاندين، لأن من جهل شيئاً عاداه. وأنشدني ابن لنكك لأبي بكر بن دُرَيْد^(٤):

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصديراً ويكره «لا أدري» أصيبت مقاتله

وقيل لبُزْرجَهْر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم. قيل: فما بالناس ترى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم. وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال؟ فقال: لعز الكمال. وأنشدت لبعض أهل هذا العصر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قُبُور

(١) يرغمه: يلصق أنفه بالرغام، وهو التراب، ليدله.

(٢) أبو عبد الرحمن: الخليل بن أحمد البصري الأزدى الفراهيدي، أذكى العرب في عصره، وأكبر علماء النحو، ومخترع العروض، ومؤلف أول معجم عربي مرنب على الحروف. وتوفي سنة ١٧٥هـ.

(٣) ابن المعتز: عبدالله الشاعر العباسي. تولى الخلافة يوماً وليلة، ثم قتل سنة ٢٩٦هـ.

(٤) أبو بكر محمد بن الحسن بن درو: صاحب الجوهرة في اللغة. توفي لسنة ٣٢١ هجرية.

وإنَّ أَمراً لم يَحْيَ بِالعالم مَيِّتٌ فليس له حتى النشورِ نشورٌ
ووقف بعض المتعلمين بباب عالم، ثم نادى: تصدقوا علينا بما لا يتعب ضِرساً، ولا
يُسقم نفساً؛ فأخرج له طعام ونفقة. فقال: فاقني إلى كلامكم، أشد من حاجتي إلى
طعامكم؛ إني طالب هُدى لا سائل ندَى. فأذن له العالم، وأفاده عن كل ما سأل عنه،
فخرج جذلاً فرحاً، وهو يقول: علم أوضح لبساً، خير من مال أغنى نفساً.

واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال. قيل
لبعض الحكماء: من يعرف كل العلوم؟ فقال: كلُّ الناس. وروي عن النبي ﷺ أنه
قال: من ظن أن للعلم غاية، فقد بَخَسه حقه، ووضع في غير منزلته التي وصفه الله
بها، حيث يقول: ﴿وما أوتيتُم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال بعض
العلماء: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته، لكننا قد بدأنا العلم بالنيقصة، ولكننا نطلبه
لننقُص في كل يوم من الجهل، ونزداد في كل يوم من العلم.

وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالسباح في البحر: ليس يرى أرضاً، ولا
يعرف طولاً ولا عرضاً. وقيل لحماة الراوية^(١): أما تشبع من هذه العلوم؟ فقال:
استفرغنا فيها المجهود، فلم نبلغ منها المحدود، فنحن كما قال الشاعر:

إذا قطعنا علماً بدا علم

وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين، وقال أظنها له:

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي فالناس ما بين معوم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا يحيطُ به إلا إحاطة منقوص بمنقوص
وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها،
والعناية بأولها وأفضلها. وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته
يُرشدون، وبجهله يضلُّون، إذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم
شروط إجرائها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة»،
وإنما كان كذلك، لأن العلم يبعث على فعل العبادة، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم

(١) حماد بن مسيرة التميمي لقب بالراوية لحفظه كثيراً من أشعار العرب. توفي سنة ١٦٥ هـ.

بها، قد لا تكون عبادة، فلزم علم الدين كل مكلف. ولذلك قال النبي ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ». وفيه تأويلان : أحدهما : علم ما لا يسع جهله من العبادات، والثاني : جملة العلم إذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الأعيان، وفرض جميعه على الكفاية، كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان، ولا على الكفاية قال الله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة : ١٢٢] وروى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فإذا هو بمجلسين : أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقهون. فقال رسول الله ﷺ : « كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحب إلي من صاحبه، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه، ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلماً، وجلس إلى أهل الفقه »، وروى مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال : « الخير عادة، والشر لحاجة، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ». وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « خبار أمي علمائها، وخيار علمائها فقهاؤها »، وروى معاذ بن رفاعه، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العدوي، قال : قال رسول الله ﷺ : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوؤه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين »، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « عليّ بخلفائي، قالوا : ومن خلفائك ؟ قال : الذين يحيون سنتي، يعلمونها عباد الله » وروى حميد عن أنس : أن النبي ﷺ قال : « الفقه في الدين فرض على كل مسلم، ألا فتعلموا أو علموا، وتفقهوا، ولا تموتوا جهالاً »، وروى سليمان بن يسار، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عباد، وعباد الدين الفقه ».

وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية، ورأى أنها أحق بالفضيلة، وأولى بالتقدمة، شتتالاً لما تضمنه الدين من التكليف، واسترذالاً لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف، والكلام مع مثل هذا في الأصل لا يتسع له هذا الفصل، ولئن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته، وصحت رويته، لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملاً

أو سُدى، يعتمدون على آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعبة، لما تقول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع، وتُفْضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع، فلم يستغنوا عن دين يتألفون به، ويتفقهون عليه، ثم العقل موجب له، أو تابع له، ولو تصوّر هذا المختلّ تصوّر، أن الدين ضرورة في العقل، وأن العقل للدين أصل، لقصّر عن التقصير، وأذن للحق، ولكن أهمل نفسه فضل وأصل.

وقد يتعلق بالدين علوم، قد بين الشافعي رحمه الله فضيلة كل واحد منها، فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبّل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حُجته، ومن تعلم الحساب جزّل رأيه، ومن تعلم اللغة رقى طبعه، ومن لم يصن نفسه، لم ينفعه علمه.

ولعمري، إن صيانة النفس أصل الفضائل، لأن من أهمل صيانة نفسه، ثقة بما منحه العلم من فضيلته، وتوكلأ على ما يلزم الناس من صيانتها، سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبدّله، فلم يف ما أعطاه العلم، بما سلبه التبدّل، لأن القبيح أتمّ من الجميل، والرذيلة أشهر من الفضيلة، إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة، تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوي، فلا ينصفون محسناً، ولا يحابون منسئلاً، لا سيما من كان بالعلم موسوماً، وإليه منسوباً، فإن زلته لا تقال، وهفوته لا تُعذر، إمّا لقبح أثرها، واغترار كثير من الناس بها؛ وقد قيل في منشور الحكم زلّة العالم كالسفينه تغرق، ويغرق معها خلق كثير؛ وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم إذا زلّ هلك بزلة عالم كثير؛ فهذا وجه. وإما لأن الجهال بدمه أغرى، وعلى تنقيصه أخرى، ليسلبوه فضيلة التقدم، ويمنعوه مباينة التخصيص، عناداً لما جهلوه، ومقتاً لما باينوه، لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولوماً، كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً. وأنشدت عن الربيع لسافعي رضي الله عنه:

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهّد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تنطّع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه: عليك بكل نوع من العلم، فخذ منه، فإن المرء عدو ما

جهل، وأنا أكره أن تكون عدوّ شيءٍ من العلم. وأنشد :

تَفْتَنُ وَخِذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ فَإِنَّمَا يَفُوقُ إِمْرُؤُ فِي كُلِّ فَنٍّ لَهُ عِلْمٌ
فَأَنْتَ عَدُوٌّ لِلَّذِي أَنْتَ جَاهِلٌ بِهِ وَلَعَلَّمْ أَنْتَ تُتَقِنُهُ سَلَمٌ

وإذا صان ذو العلم نفسه حقّ صيانتها، ولازم فعل ما يلزمها، أمن تعيير الموالى، وتنقيص المُعَادِي، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله. وروى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: « العلماء ورثة الأنبياء » لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم. وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: « للأنبياء على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة ». وقال بعض البلغاء: إن من الشريعة أن تجلّ أهل الشريعة، ومن الصنعة أن ترُبّ حسن الصنعة؛ فينبغي لمن استدلّ بفطنته على استحسان الفضائل، واستقباح الرذائل، أن ينفي عن نفسه رذائل الجهل، بفضائل العلم، وغفلة الإهمال، باستيقاظ المعاناة، ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله، واثق بمنافعه، ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة، ولا نفوذ أمر وعلو منزلة، فإن من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق. وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد المملوك، حتى تجلسه مجالس الملوك ». وقد قال بعض الأدباء: كل عز لا يوطّده علم؛ مدّة، وكل علم لا يؤيده عقل؛ مضلّة. وقال بعض علماء السلف: إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم. وقال بعض البلغاء: العلم عصمة الملوك، لأنه يمنعهم من الظلم، ويردّهم إلى الحلم، ويصدّهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقّه، ويستنبطوا أهله؛ فأما المال فظل زائل، وعارية مسترجعة، وليس في كثرته فضيلة؛ ولو كانت فيه فضيلة لخصّ الله به من اصطفاه لرسالته، واجتباها لنبوته، وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصّهم الله به من كرامة، وفضلهم على سائر خلقه، فقراء لا يجدون بلغة، ولا يقدرّون على شيء، حتى صاروا في الفقر مثلاً؛ قال البحريّ:

فقر كفقر الأنبياء وغُرْبَةٌ وصَبَابَةٌ ليس البلاءُ بواحدٍ

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر، وحرمة المؤمن. قال الشاعر:

كم كافر بالله أمواله تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيماناً على فقره
يا لائم لدهر وأفعاله مشتغلاً يُزري على دهره
الدهر مأمور له أمر ينصرف الدهر على أمره

وقد بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمال، فقال: العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم حاكم والمال محكوم عليه. مات خزّان الأموال، وبقي خزّان العلم، أعيانهم مفقودة، وأشخاصهم في القلوب موجودة. وسئل بعض العلماء: أيّنا أفضل: المال أم العلم؟ فقال: الجواب عن هذا: أيّنا أفضل؟ المال أم العقل. وقال صالح بن عبد القدوس:

لا خيرَ فيمن كان خيرُ ثنائه في الناس قولُهُم غنيّ واجِدُ
وربما امتنع الإنسان من طلب العلم لكبر سنه، واستحيائه من تقصيره في صغره، أن يتعلّم في كبره؛ فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به، وآثره على العلم، أن يصير مبتدئاً به. وهذا من خدع الجهل، وغرور الكسل، لأن العلم إذا كان فضيلة، فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى، والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولأن يكون شيخاً متعلماً، أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً.

حكى أن بعض الحكماء رأى شيخاً كبيراً يجب النظر في العلم ويستحي، فقال له: يا هذا، أتستحي أن تكون في آخر عمرك، أفضل مما كنت في أوله، وذُكر أن إبراهيم ابن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: يا عمّ، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر. فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أوّ يحسن بمثلي طلب العلم؟ قال: نعم، والله لأن تموت طالباً للعلم، خير من أن تعيش قانعاً بالجهل. قال: وإلى متى يحسن لي طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة، لأن الصغير أعذر، وإن لم يكن في الجهل عذر، لأنه لم تطل به مدة التفریط، ولا استمرت عليه أيام الإهمال. وقد قيل في منثور الحكم: جهل الصغير معذور، وعلمه محقور. فأما الكبير فالجهل به أقبح، ونقصه عليه أفضح، لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلاً، ولم يفده علماً، وكانت أيامه في الجهل ماضية، ومن الفضل

خالية ، كان الصغير أفضل منه ، لأن الرجاء له أكثر ، والأمل فيه أظهر ، وحسبك نقصاً في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه .

وأنشدت لبعض أهل الأدب :

إذا لم يكن مَرُّ السنين مُتَرَجِّماً عن الفضل في الإنسان سَمِيَّةَ طِفْلاً
وما تنفع الأعوامُ حين تعدّها ولم تستفدْ فيهنَّ علماً ولا فضلاً
أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهل ، كأن به جهلاً

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادّة ، وشغله اكتسابها عن التماس العلم . وهذا وإن كان أعذر من غيره ، مع أنه قلما يكون ذلك إلا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة . فينبغي أن يصرف للعلم حظاً من زمانه ، فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة ، وأيام عطلة ، ومن صرّف كل نفسه إلى الكسب ، حتى لم يترك لها فراغاً إلى غيره ، فهو من عبيد الدنيا ، وأسراء الحرص . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : لكل شيء فترة ، فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا العلماء ، واسمعوا علماً يدلّكم على الهدى ، ويردّكم عن الرّدّي . وقال بعض العلماء : من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء : من صاحب العلماء وقر ، ومن جالس السفهاء حقر . وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته ، وبعد غايته ، ويخشى من قلة ذهنه ، وبعد فطنته ، وهذا الظن اعتذار ذوي النقص ، وخيفة أهل العجز ، لأن الإخبار قبل الاختبار جهل ، والخشية قبل الابتلاء عجز ، وقد قال الشاعر :

لا تكوننّ للأمور هيوباً فإلى خيبة يصيرُ الهيوب

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلّم العلم وأخاف أن أضيعه . فقال كفى بترك العلم إضاعة . وليس وإن تفاضلت الأذهان ، وتفاوتت الفطن ، ينبغي لمن قلّ منها حفظه أن ييأس من نيل القليل ، وإدراك اليسير ، الذي يخرج به من حدّ الجهالة ، إلى أدنى مراتب التخصيص ، فإن الماء مع لينه ، يؤثر في صمّ الصخور ، فكيف لا يؤثر العلم الزكيّ ، في نفس راغب شهيد ، وطالب خليّ ، لا سيما وطالب العلم معان

قال النبي ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، رِضاً بما يطلب . »

وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم ، أن يصوّر في نفسه حرفة أهله ، وتضابق الأمور مع الاشتغال به ، حتى يسمّهم بالإدبار ، ويتوسّمهم بالحرمان ، فإن إرأى محبرة تطيّر منها ، وإن وجد كتاباً أعرض عنه ، وإن رأى متجليّاً بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً ، وجاهلاً مُدْبِراً . ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منال وأحوال ، كنت أخفي عنهم ما يصحّني من محبرة وكتاب ، لئلا أكون عندهم مستثقلاً ، وإن كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً ، والقرب منهم مُحشاً ومفسداً . فقد قال بُزْرجَمهر : الجهل في القلب ، كالنزّ في الأرض ، يُفسد ما حوله . لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الأشعث ، عن أبي عثمان ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ أنه قال : « خالطوا الناس بأخلاقهم ، وخالفوهم في أعمالهم » . ولذلك قال بعض البلغاء : رَبَّ جهلٍ وقيتُ به عالماً ، وسقّه حَمِيّت به حلماً وهذه الطبقة مما لا يُرجى لها صلاح ، ولا يُؤمّل لها فلاح ، لأن من اعتقد أن العلم شَيْن ، وأن تركه زَيْن ، وأن للجهل إقبالاً مُجدياً ، وللعلم إدباراً مُكدياً كان ضلاله مستحكماً ، ورشاده مستبعداً ، وكان هو الخامس المالك ، الذي قال فيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أغدُ عالماً أو متعلماً ، أو مستمعاً أو محبّاً ، ولا تكن الخامس فتهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ مُسنّداً . وليس لمن هذه حاله في العدل نفع ، ولا في الاستصلاح مَطْمَع . قيل لبزرجهر : مالكم لا تعاتبون الجهال ؟ فقال : إنا لا نكلف العُمى أن يبصروا ولا الصّم أن يسمعوا .

وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور ، وتعانِد أهله هذا العناد ، ترى العقل بهذه المثابة ، وتنفر من العقلاء هذا النفور ، وتعتقد أن العاقل مُحارَف ، وأن الأحق محظوظ ؛ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم ، هل يكون لخير أهلاً ، أو لفضيلة موضعاً ؟

وقد قال بعض البلغاء : أخبثُ الناس المُساوي ، بين المحاسن والمساوي . وعلة هذا : أنهم ربما رأوا عاقلاً غير محظوظ ، وعالماً غير مرزوق ، فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظّه ورزقه ، وقد انصرفت عيونهم عن حِرمان أكثر النوكى ، وإدبار أكثر الجهّال ، لأن في العقلاء والعلماء قلة ، وعليهم من فضلهم سِمة . ولذلك قيل : العلماء

غرباء ، لكثرة الجهال ، فإذا ظهرت سِمة فضلهم ، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم ، تنوَّهوا بالتميز ، واشتهروا بالتعين ، فصاروا مقصودين بإشارة المتعنتين ، ملحوظين بإيحاء الشامتين . والجهال والحمقى لما كثُروا ولم يتخصصوا ، انصرفت عنهم النفوس : فلم يُلاحظ المحروم منهم بطَرَفٍ شامت ، ولا قُصِدَ المَحْدود منهم بإشارة عائب ؛ فلذلك ظن الجاهل المرزوق : أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل ، دون الجهل والحمق ؛ ولو فشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم ، لوجدت الإقبال في أكثرهم ، ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم ، لوجدت الحرمان في أكثرهم ، وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً ، لأن حظه عَجَب ، وإقباله مستغرب ؛ كما أن حرمان العاقل العالم غريب ، وإقلاله عجيب . ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين ، وبه معبرين ، حتى قيل لِبُزْرِجِمَهْر : ما أعجبُ الأشياء ؟ فقال : نُجَحِ الجاهل ، وإكداء العاقل . لكن الرزق بالحظ والجَدِّ ، لا بالعلم والعقل ، حكمة منه تعالى يدلُّ بها على قدرته ، وإجراء الأمور على مشيئته . وقد قالت الحكماء : لو جرت الأقسام على قدر العقول ، لم تعش البهائم ، فنظمه أبو تمام الطائي ، فقال :

يَنالُ الفتي من عيشه وهو جاهلٌ ويكُدي من دهره وهو عالمٌ
ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجا هلكن إذن من جهلنَّ البهائمُ
وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى :

لو كنت أعجبُ من شيء لأعجبني سعي الفتي وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتي لأُمور ليس يدركها والنفسُ واحدة ، وآلهم منتشرٌ

على أن العلم والعقل سعادة وإقبال ، وإن قلَّ معها المال ، وضائق معها الحال . والجهل والحمق حرمان وإدبار ، وإن كثر معها المال ، واتسعت معها الحال ، لأن السعادة ليست بكثرة المال ، فكم من مكثِرٍ شقيٍّ ، ومُقلٍّ سعيدٍ ، وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجاهل يرضعه ، أم كيف يكون العالم الفقير شقيّاً والعلم يرفعه ؟ وقد قيل في منثور الحكم : كم من ذليل أعزه علمه ، ومن عزيز أذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز : نعمة الجاهل كروضة على مَزَبَلَةٍ . وقال بعض الحكماء : كلما حَسُنَتْ نعمة الجاهل ازداد فحشا . وقال بعض العلماء لبنيه : يا بني ، تعلِّموا العلم ، فإن لم تنالوا به من الدنيا حظاً

فَلَا نِ يَذِمُ الزَّمَانَ لِكُمْ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُذَمَّ الزَّمَانُ بِكُمْ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ : مَنْ لَمْ يُقَدِّ بِالْعِلْمِ مَالًا، كَسَبَ بِهِ جَهْلًا. وَأَنشَدَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ لَابْنَ طَبَّاطَبَا (١) :

حَسُودٌ مَرِيضُ الْقَلْبِ يَخْفِي أُنَيْنَهُ وَيُضْحِي كَثِيبَ الْبَالِ عِنْدَ حَزِينِهِ
يَلُومُ عَلَى أَنْ رُحِنَتْ لِلْعِلْمِ طَالِبًا أَجْمَعَ مِنْ عِنْدِي الرُّوَاةُ فُنُونَهُ
فَأَعْرِفُ أَبْكَارَ الْكَلَامِ وَعُونَهُ وَأَحْفَظُ مِمَّا أُسْتَفِيدُ عُيُونَهُ
وَيَزْعَمُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكْسِبُ الْغِنَى وَيُحْسِنُ بِالْجَهْلِ الذَّمَّ ظُنُونَهُ
فِيَا لَأَتَمِّي دَعْنِي أَغْيَالِي بِقِيَمِي فَكَيْفَ كُلُّ النَّاسِ مَا يَحْسُنُونَهُ

وَأَنَا أُسْتَعِيزُ بِاللَّهِ مِنْ خُدَعِ الْجَهْلِ الْمَذْلَةِ، وَبِوَادِرِ الْحَقِّ الْمُضِلَّةِ، وَأَسْأَلُهُ السَّعَادَةَ بِعَقْلِ رَادِعٍ يَسْتَقِيمُ بِهِ مِنْ زَلٍّ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ يَسْتَهْدِي بِهِ مَنْ ضَلَّ. فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا اسْتَرْدَلَ اللَّهُ عَبْدًا حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمُ ».

فَيَنْبَغِي لِمَنْ زَهَدَ فِي الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رَاغِبًا، وَلِمَنْ رَغِبَ فِيهِ، أَنْ يَكُونَ لَهُ طَالِبًا، وَلِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مُسْتَكْرَأً، وَلِمَنْ اسْتَكْرَأَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ بِهِ عَامِلًا، وَلَا يَطْلُبُ لَتَرْكِهِ احْتِجَاجًا، وَلَا لِلتَّقْصِيرِ فِيهِ عُذْرًا. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَا تَعْذِرَانِي فِي الْإِسَاءَةِ إِنَّهُ شَرَارُ الرِّجَالِ مَنْ يُسِيءُ فَيُعْذَرُ
وَلَا يَسُوفُ نَفْسَهُ بِالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ، وَيُمَتِّنُهَا بِانْقِطَاعِ الْأَشْغَالِ الْمُتَّصِلَةِ، فَإِنْ لِكُلِّ وَقْتٍ شُغْلًا، وَلِكُلِّ زَمَانٍ عُذْرًا. وَقَالَ الشَّاعِرُ (٢) :

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةُ مَا بَقِيَ
وَيَقْصِدُ طَلِبَ الْعِلْمِ وَائْتِقًا بِتَيْسِيرِ اللَّهِ، قَاصِدًا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، بَنِيَّةَ خَالِصَةٍ، وَعَزِيمَةَ صَادِقَةٍ. فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لَغَيْرِ اللَّهِ، وَأَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ». وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

(١) هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ أَحَدُ بَنِي إِبْرَاهِيمَ طَبَّاطَبَا بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، تَوَلَّى بِمِصْرَ سَنَةَ ٣٤٥ هـ.

(٢) هُوَ الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ، وَاسْمُهُ قُتَيْبَةُ بْنُ حَبِيبَةَ بْنِ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ مَعَاصِرِي جُرَيْرٍ وَالْفَرَزْدَقِ.

« تعلموا العلم قبل أن يُرفع ، ورفعه ذهاب أهله ، فإن أحدكم لا يدري متى يُحتاج إليه ، أو متى يُحتاج إلى ما عنده ؟ ». وليحذر أن يطلبه لِمراء أو رياء ؛ فإن المماري به مهجور لا سنع ، والمرائي به محقور لا يرتفع . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تعلموا العلم لتُماروا به السفهاء ، ولا تتسموا العلم لتجادلوا به العلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه » .

وليس المماري به ، هو المناظر فيه ، طالباً للصواب منه ، ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح . وفيهم جاءت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يجادل إلا منافق أو مرتاب » . وقال الاوزاعي^(١) : إذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل .

وأنشد الرياشي^(٢) لمصعب بن عبد الله^(٣) :

أجادلُ كل معترض ظنينٍ فأجعلُ دينه غَرَضاً لديني
وأترك ما علمت لرأي غيري وليس الرأي كالعالم اليقين
وما أنا والخصومة وهي شيء يُصَرِّف في الشمال وفي اليمين
فأما ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلماء ، فقال لصاحبه : لا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة ، فإن المماري هو الذي لا يريد أن يتعلم منه أحد ، ولا يرجو أن يتعلم من أحد . واعلم أن لكل مطلوب باعناً ، والباعث على المطلوب شيان : رغبة أو رهبة . فليكن طالب العلم راغباً راهباً أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مَرْضاته ، وحافضي مَفْتَرَضاته . وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ، ومهملي زواجه ، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة ، أدت إلى كُنه العلم وحقيقة الزهد ، لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم ، والرهبة أقوى السببين في الزهد . وقد قالت الحكماء : أصل العلم الرغبة ، وثمرته السعادة ، وأصل الزهد الرهبة ، وثمرته العبادة . فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت

(١) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو ، أحد أتباع التابعين ، وإمام أهل الشام . ولد ببعلبك سنة ٨٠ للهجرة .

(٢) هو عباس بن الفرج ، أخذ عنه المبرد وابن دريد ، وقتل بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ .

(٣) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري الحافظ ، أحد رواة الإمام مالك .

السعادة؛ وعمت الفضيلة، وإن افرقا فيا ويح مفرقين، ما أضر افتراقها، وأقبح انفرادها. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ازداد في العلم رشدًا، ولم يزد في الدنيا زهدًا، لم يزد من الله إلا بعدًا». وقال مالك بن دينار^(١): من لم يؤت من العلم ما يقيمُه، فما أوتي منه لا ينفعه. وقال بعض الحكماء: الفقيه بغير ورع، كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه.

فصل: واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى.

ولذلك أسباب فاسدة، ودواعي واهية:

١ - فمنها أن يكون في النفس أغراض تختص بنوع من العلم، فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع، ويعدل عن مقدماته، كرجل يؤثر القضاء، ويتصدى للحكم، فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضي، وما يتعلق به من الدعوى والبيانات. أو يحب الاتِّسام بالشهادة، فيتعلم كتاب الشهادات، لئلا يصير مرسومًا بجهل ما يعاني، فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره، وأدرك منه مشهوره، ولم ير ما بقي إلا غامضًا طلبه عناء، وعويصًا استخراجُه فناء، لقصور همته على ما أدرك، وانصرافها عما ترك، ولو نصح نفسه، لعلم أن ما ترك أهمُّ مما أدرك. لأن بعض العلم مُرتبط ببعض، ولكل باب منه تعلُّق بما قبله، فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها، وقد يصح قيام الأوائل بأنفسها، فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل، تركًا للأوائل والأواخر، فإذا لم يسر يَعرَى من لوم، وإن كان تارك الكلّ ألوم.

٢ - ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم، إما لتكسُّب أو لتجَمُّل، فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل، وطريق النظر، ويتعاطى علم ما اختلف فيه، دون ما انفق عليه، لينظر على الخلاف، وهو لا يعرف الوفاق، ويجادل الخصوم، وهو لا يعرف مذهبًا مخصوصًا. ولقد رأيت من هذه الطبقة عددًا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين،

(١) مالك بن دينار، أبو يحيى البصري، العالم النقي، والزاهد النقي، توفي سنة ١٣١ هـ.

واشتهروا به اشتهار المتبحرين إذا أخذوا في مناظرة الخصوم، ظهر كلامهم، وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم، ضلت أفهامهم حتى إنهم ليخطئون في الجواب، خبط عشواء، فلا يظهر لهم صواب، ولا يتقرر لهم جواب، ثم لا يرون ذلك نقصاً، إذا تمقوا في المجالس كلاماً مرصوفاً، ولفقوا على المخالف حجاجاً مألوفاً، وقد جهلوا من المذاهب ما يعلمه المبتدئ، ويتداوله الناشئ، فهم دائماً في لَغَطٍ مضلٍّ، أو غلط مُذلٍّ. ورأيت قوماً منهم يَرَوْنَ الاشتغال بالمذاهب تكلفاً، والاستكثار منه تخلفاً، وحاجتي بعضهم عليه، فقال: كيف يكون علم حافظ المذاهب مستوراً، وعلم المناظر علماً مشهوراً؟ فقلت كيف يكون علم حافظ المذاهب مستوراً وهو سريع الجواب، كثير الصواب؟ لانه إن لم يُسأل سكت، فلم يعرف، والمناظر إن لم يُسأل سأل فعرف. وقلت: أليس إذا سأل الحافظ فأصاب بان فضله؟ قال: نعم، قلت: أفليس إذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه. وقد قيل: عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان؟ فأمسك عن جوابي، لأنه إن أنكر كابر المعقول، ولو اعترف لزمته الحجة، والإمساك إذعان، والسكوت رضا. ولأن ينقاد إلى الحق، أولى من أن يستفزّه الباطل. وهذه طريقة من يقول: اعرفوني وهو غير عَرُوف ولا معروف، وبعيدٌ ممن لا يعرف العلم أن يعرفه به. وقد قال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعَلِّمُ

٣ - ومن أسباب التقصير أيضاً: أن يَغْفُلَ عن التعلُّم في الصَّغَر، يشتغل به في الكبر فيستحي أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير، ويستنكف أن يساويه الحدث الغزير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها، ويهتم بحواشيها وأكنافها، ليتقدم على الصغير المبتدئ، ويساوي الكبير المنتهي. وهذا ممن رضي بخداع نفسه، وقنع بمداهنة حسه، لأن معقوله إن أحسن، ومعقول كل ذي حس، يشهد بفساد هذا التصوّر، وينطق باختلال هذا التخيل، لأنه شيء لا يقوم في وهم. ولجهل ما يبتدئ به المتعلم، أقبح من جهل ما ينتهي إليه العالم، وقد قال الشاعر:

ترقّ إلى صغير الأمر حتّى يُرَقِّيك الصغيرُ إلى الكبيرِ
فتعرف بالتفكير في صغير كبيراً بعد معرفة الصغيرِ

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم في الصغر أحسن . روى مروان بن سالم عن إسماعيل ابن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي يتعلم في صغره : كالنقش على الصخر ، والذي يتعلم في كبره : كالذي يكتب على الماء » . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : قلب الحدث كالأراضي الخالية ، ما ألقى فيها من شيء قبلته . وإنما كان كذلك ، لأن الصغير أفرغ قلباً ، وأقل شغلاً ، وأيسر تبذلاً ، وأكثر تواضعاً .

وقد قيل في منثور الحكم : المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علماً ، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً ، فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير إذا عري من هذه الموانع ، وأوعى منه إذا خلا من هذه القواطع ، فلا .

حكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلاً يقول : التعلم في الصغر كالنقش على الحجر فقال الأحنف : الكبير أكثر عقلاً . ولكنه أشغل قلباً .

ولعمري لقد فحص الأحنف عن المعنى وبيّنه ، وفيه على العلة ، لأن قواطع الكبير كثيرة . فمنها ما ذكرنا من الاستحياء . وقد قيل في منثور الحكم : من رقى وجهه رقى علمه . وقال الخليل بن أحمد : يرتع الجهل بين الحياء والكبر في العلم .

٤ - ومنها وقور شهواته ، وتقسم أفكاره . وقال الشاعر :

صرف الهوى عن ذي الهوى عزيز
إن الهوى ليس له تمييز
وقال بعض البلغاء : إن القلب إذا غلق ، كالرهن إذا غلق .

٥ - ومنها الطوارق المزعجة ، والهموم المذهلة . وقد قيل في منثور الحكم . هم قيد الحواس . وقال بعض العلماء البلغاء : من بلغ أشده ، لاقى من العيش أشده .

٦ - ومنها كثرة أشغاله ، وترادف أحواله ، حتى إنها تستوعب زمانه ، وتستنفد أيامه ، فإذا كان ذا رياسة أهته ، وإن كان ذا معيشة قطعته ، ولذلك قيل : تفقهوا قبل أن تسودوا وقال بُزْرجهر : الشغل مجهدة والفراغ مفسدة . فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه ، وينتهر الفرصة به ، فربما شح الزمان بما سمح ، وضمن بما منح ، ويبتدىء من العلم بأوله ، ويأتيه من مدخله ، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله ، فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله ، فإن لكل علم فضولاً مذهلة ، وشذوراً مشغلة ، إن صرف

إليها نفسه ، قطعتة عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضي الله عنها : العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شيء أحسنه وقال بعض الحكماء : بترك ما لا يعينك ، يتم لك ما يعينك .

ولا ينبغي أن يدعوه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه ، إشعاراً لنفسه أن ذلك من فضول علمه ، وإعذاراً لها في ترك الاشتغال به ، فإن ذلك مطية التَّوَكُّي ، وعذر المقصّرين ، ومن أخذ من العلم ما تسهل ، وترك منه ما تعذر ، كان كالقائض ، إذ امتنع عليه الصيد تركه ، فلا يرجع إلّا خائباً ، إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعاً ، كذلك العلم : طلبه صعب على من جهله ، سهل على من علمه ؛ لأن معانيه التي يتوصل إليها ، مستودعة في كلام مترجم عنها ، وكل كلام مستعمل ، فهو يجمع لفظاً مسموعاً ، ومعنى مفهوماً ، للفظ كلام يُعقل بالسمع ، والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء : العلوم مطلعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، ولسان معبر وبيان مصوّر ، فإذا عقل الكلام بسمعه ، فهم معانيه بقلبه ، وإذا فهم المعاني ، سقط عنه كلفة استخراجها ، وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها ، لأن المعاني شوارد ، تضلّ بالإغفال ، والعلوم وحشية ، تنفر بالإرسال ، فإذا حفظها بعد الفهم أنست ، وإذا ذكرها بعد الأنس رست . وقال بعض العلماء : من أكثر المذاكرة بالعلم ، لم ينس ما علم ، واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علماً نسي ما تعلّم
فكم جامع للكتب من كل مذهبٍ يزيد مع الأيام في جمعه عمى
وإن لم يفهم معاني ما سمع ، كشف عن السبب المانع منها ، ليعلم العلة في تعذر فهمها ، فإنه بمعرفة أسباب الأشياء وعللها ، يصل إلى تلافي ما شذّ ، وصلاح ما فسد . وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام :

إما أن يكون لعلّة في الكلام المترجم عنها ، وإما أن يكون لعلّة في المعنى المستودع فيها ، وإما أن يكون لعلّة في السامع المستخرج . فإن كان السبب المانع من فهمها لعلّة في الكلام المترجم عنها ، لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال : أحدها أن يكون لتقصير اللفظ

عن المعنى، فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى، وهذا يكون من أحد وجهين: إما من حصر المتكلم وعيه، وإما من بلادته وقلة فهمه: والحال الثانية: أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى، فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه، وهذا قد يكون من أحد وجهين: إما من هذر المتكلم وإكثاره، وإما لسوء ظنه بفهم سامعه. والحال الثالثة أن يكون لمواضعه يقصدها المتكلم بكلامه، فإذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها. فأما تقصير اللفظ وزيادته، فمن الأسباب الخاصة دون العامة، لأنك لست تجد ذلك عاما في كل كلام، وإنما تجده في بعضه؛ فإن عدلت عن الكلام المقصر إلى الكلام المستوفي، وعن الزائد إلى الكافي، أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك؛ وإن أقمت على استخراجها إما لضرورة دعتك إليه، عند إغواز غيره أو لحماية داخلتك عند تعذر فهمه، فانظر في سبب الزيادة والتقصير، فإن كان التقصير لخصر، والزيادة لهذر، سهل عليك استخراج المعنى منه، لأن ماله من الكلام محصول، لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح، وفي الأكثر على الأقل دليل، وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع، كان استخراجها أسهل. وإن كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم، فهو أصعب الأمور حالا، وأبعدا استخراجا، لأن ما لم يفهمه مكلمك، فأنت من فهمه أبعد، إلا أن تكون بفرط ذكائك، وجودة خاطرك تتنبه بإشارته، على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه، فتكون فضيلة الاستيفاء لك، وحق التقدم له.

وأما المواضعة فضربان: عامة وخاصة، فأما العامة فهي مواضعة العلماء، فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغني المتعلم عنها، ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها، كما جعل المتكلمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقابا، وضعوها لمعان اتفقوا عليها، ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذه، وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا.

وأما الخاصة فمواضعة الواحد، يقصد بباطن كلامه غير ظاهره، فإذا كانت في الكلام كانت رمزا، وإن كانت في الشعر كانت لغزا. فأما الرمز فلست تجده في علم معنوي، ولا كلام لغوي، وإنما يختص غالبا بأحد شيئين: إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده، ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس إليه، واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة

عنه وإما لما يدّعي أربابه أنه علم مُعوز ، وأن إدراكه بديع معجز ، كالصنعة التي وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء ، فرمzوا بأوصافه ، وأخفوا معانيه ، ليوهموا الشخ به ، والأسف عليه ، خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة ، وقد قال الشاعر :

مُنعت شيئاً فأكثرُت الولوع به وحب شيء إلى الإنسان مأمُنعاً
ثم ليكونوا بُراء من عهدة ما قالوه إذا جُرب . ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحاً ، وعلماً مستفاداً ، لخرج من الرمز الخفيّ إلى العلم الجليّ ، فإن أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم ، لا تتفق على ستر سليم . وإخفاء مُفيد ، وقد قال زهير :

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من سترٍ
وربما استعمل الرمز من الكلام ، فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى في القلوب موقعا وأجلّ في النفوس موضعاً ، فيصير بالرمز سائراً ، وفي الصحف مُخلداً : كالذي حكى عن فيثاغورس^(١) في وصاياه المرموزة ، أنه قال : احفظ ميزانك من الندى ، وأوزانك من الصدا . يريد بحفظ الميزان من الندى : حفظ اللسان من الخنا ، وحفظ الأوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى ، فصار بهذا الرمز مستحسنًا ومدوّناً ، ولو قاله باللفظ الصريح ، والمعنى الفصيح ، لما سار عنه ، ولا استحسن منه . وعلة ذلك أن المحجوب عن الأفهام ، كالمحجوب عن الأبصار ، فيما يحصل له في النفوس من التعظيم ، وفي القلوب من التفخيم ، وما ظهر منها ولم يحتجب ، هان واسترّذل وهذا إنما يصح استحلاؤه فيما قلّ ، وهو باللفظ الصريح مستقل . فأما العلوم المنتشرة التي تطلعُ النفوس إليها ، فقد استغنت بقوة الباعث عليها ، وشدة الداعي إليها ، عن الاستدعاء إليها برمز مستحلّ ، ولفظ مستغرب ، بل ذلك منفر عنها ، لما في الاشتغال باستخراج رموزها ، من الإبطاء عن دركها ، وتصوّر معانيها . فهذا حال الرمز .

وأما اللغز فهو تحدّي أهل الفراغ ، وشغل ذوي البطالة ، ليتنافسوا في تباين

(١) عالم يوناني مشهور بنظرياته الرياضية .

قرائهم، ويتفاخروا في سرعة خواطرهم، فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعاً، ولا يفيد علماً، فهم كأهل الصراع، الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم، إلى صراع كدود، يصرع عقولهم، ويهدأ أجسامهم، لا يكسبهم حداً، ولا يُجدي عليهم نفعاً. انظر الى قول الشاعر :

رجلٌ مات وخلف رجلاً ابن أم ابن أبي أخت أبيه
معــــه أمٌ بني أولاده وأبـا أخت بني عم أخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقد روتك صعوبة ما تضمناه من السؤال، إذا أستكدك الفكر في استخراجهِ. فعلمت أنه أراد: ميتاً خلف أباً وزوجة وعماً، ما الذي أفادك من العلم، ونفي عنك من الجهل؟ ألسنت بعد علمه تجهل ما كنت جاهلاً من قبله، ولو أن السائل قلب لك السؤال، فأخر ما قدّم، وقدّم ما أخر، لكنت في الجهل به قبل استخراجهِ، كما كنت في الجهل الأول، وقد كدّدت نفسك، وأتعبت خاطرك، ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله، فتكون فيه كما كنت قبله.

فاصرف نفسك، تولّى الله رُشدك عن علوم التَّوَكُّي، وتكلف البطالين، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ». ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة، وسرعة الخاطر، مصروفاً إلى علم ما يكون إنفاق خاطرك فيه مدحوراً، وكد فكري فيه مشكوراً، وقد روى سعيد بن أبي هند، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ ». ونحن نستعيز بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا، ونجهل نفع إحسانه إلينا، وقد قيل في منشور الحكم: من الفراغ تكون الصبوة. وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاءه، أو فرض أدّاه، أو مجد أثله، أو حد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه فقد عقر يومه، وظلم نفسه. وقال بعض الشعراء:

لقد هاج الفراغُ عليك شُغلاً وأسباب البلاء من الفراغِ
فهذا تعليل ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه، حتى خرج بنا الاستيفاء إلى الإطالة، والكشف إلى الإغماض.

وأما القسم الثاني، وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلّة في المعنى المسنود، فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام: إما أن يكون مستقلاً بنفسه، أو يكون مقدمة لغيره، أو يكون نتيجة من غيره.

فأما المستقلّ بنفسه فضربان: جليّ وخفيّ فأما الجليّ فهو يسبق إلى فهم متصوره من أول وهلة، ولبس هذا من أقسام ما يُشكل على ذي تصور.

وأما الخفيّ فيحتاج في إدراكه إلى زيادة تأمل، وفضل مُعانة، لينجليّ عما أخفي، وينكشف عما أغمض، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب، ويقرب منه ما بُعد، فإن للرياضة جراءة، وللدراسة تأثيراً. وأما ما كان مقدمة لغيره فضربان: أحدهما: أن تقوم المقدمة بنفسها، وإن تعدت إلى غيرها، فتكون كالمستقلّ بنفسه، في تصوره وفهمه، وإن كان مستدعياً لنتيجته. والثاني: أن يكون مفتقراً إلى نتيجته، فيتعذر فهم المقدمة إلا بما يتبعها من النتيجة، لأنه تكون بعضاً، وتبعيض المعنى أشكل له، وبعضه لا يغني عن كله. وأما ما كان نتيجة لغيره، فهو لا يدرك إلا بأوله، ولا يتصور على حقيقته إلا بمقدمته، والاشتغال به قبل المقدمة عناء، وإتعاّب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أدّى. فهذا يوضحّ تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها.

وأما القسم الثالث، وهو أن يكون السبب المانع لعلّة في المستمع، فذلك ضربان: أحدهما من ذاته، والثاني من طارئ عليه؛ فأما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين: أحدهما: ما كان مانعاً من تصور المعنى وفهمه؛ والثاني ما كان مانعاً من حفظه بعد تصوره وفهمه؛ فأما المانع من تصور المعنى وفهمه، فهو البلادة، وقلة الفطنة، وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: إذا فقد العالم الذهن، قلّ عن الأضداد احتجاجة، وكثر إلى الكتب احتياجه، وليس لمن بُلي به إلا الصبر والإقلال، لأنه على القليل أقدر، وبالصبر أخرى أن ينال ويظفر. وقد قال بعض الحكماء: قدّم لحاجتك، بعض لحاجتك؛ وليس يقدر على الصبر من هذه حالته، ألا أن يكون غالب الشهوة، بعيد الهمّة، فيشعر قلبه الصبر، لقوة شهوته؛ ويكلف جسده احتمال التعب، لبعد همته؛ فإذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة، أعقبه ذلك إلحاح الآمنين، ونشاط

المدرسين، فقلّ عنده كل كثير، وسهل عليه كل عسير. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تنالون ما تحبون، إلا بالصبر على ما تكرهون؛ ولا تبلغون ما تهوون إلا بترك ما تشتهون ». وقيل في منشور الحكم: أتعب قدمك، فكم من تعب قدّمك. وقال بعض البلغاء: إذا اشتد الكلف، هانت الكلف. وأنشد بعض أهل الأدب، لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

لا تعجزن ولا تدخلن مضجرةً فالتجح يهلك بين العجز والضجر
وأما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه، فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير، وإهمال التواني. فينبغي لمن يُلي به أن يستدرك تقصيره، بكثرة الدرس، ويوقظ غفلته بإدامة النظر. فقد قيل: لن يُدرك العلم من لا يطيل درسه، ويكدّ نفسه، وكثرة الدرس كدّ لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنا، والجهلة مغرما، فيحتمل تعب الدرس، ليدرك راحة العلم، وينفي عنه معرّة الجهل، فإن نيل العظيم، بأمر عظيم، وعلى قدر الرغبة يكون الطلب، وبحسب الراحة يكون التعب. وقد قيل: علة الراحة، قلة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: أكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب، وأعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب.

وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ، واتكل بعد فهم المعاني، على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة، فلا يكون إلا كمن أطلق ما صاده، ثقة بالقدرة عليه، بعد الامتناع منه، فلا تعقبه الثقة إلا خجلاً، والتفريط إلا ندماً.

وهذه حال قد يدعو إليها أحد ثلاثة أشياء: إما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته، وطول الأمل في التوفر عليه عند نشاطه، وفساد الرأي في عزمته، وليس يعلم أن الضجور خائب، وأن الطويل الأمل مغرور، وأن الفاسد الرأي مصاب؛ والعرب تقول في أمثالها: حرف في قلبك، خير من ألف في كتبك. وقالوا: لا خير في علم لا يعبرُ معك الوادي، ولا يعمرُ بك النادي. وأنشدت عن الربيع، للشافعي رضي الله عنه:

علمي معي حيثما يممت يتبعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ، من غير تصور ولا فهم، حتى يصير حافظاً لألفاظ المعاني، قima بتلاوتها وهو لا يتصورها، ولا يفهم ما تضمنته، يروي بغير روية، ويخبر عن غير خبرة، فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة، ولا يؤيد حجة، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: « همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الرعاية ». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا للعلم رعاة، ولا تكونوا له رواة، فقد يروعي من لا يروي، ويروي من لا يروعي. وحدث الحسن البصريّ بحديث، فقال له رجل: يا أبا سعيد، عمن؟ قال: ما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك عظته، وقامت عليك حجته.

وربما اعتمد على حفظه وتصوره، وأغفل تقييد العلم في كتبه، ثقة بما استقرّ في ذهنه، وهذا خطأ منه، لأن الشك معترض، والنسيان طارئ. وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: « قيدوا العلم بالكتاب ». ورُوي أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ النسيان، فقال له: استعمل يدك، أي اكتب، حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت. وقال الخليل بن أحمد: اجعل ما في الكتب رأس المال، وما في قلبك النفقة. وقال مهبوذ: لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين، لا نحلّ مع النسيان عقود الآخرين. وقال بعض البلغاء: إن هذه الآداب نوافر، تندّ عن عُقل الأذهان، فاجعلوا الكتب عنها حُماة، والأقلام لها رعاة.

وأما الطارئ فنوعان:

أحدهما شبهة تعترض المعنى، فتمنع من تصوره، وتدفع عن إدراك حقيقته. فينبغي أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر، ليصل إلى تصور المعنى، وإدراك حقيقته. ولذلك قال بعض العلماء: لا تُلْجَلْ قلبك من المذاكرة، فيعود عقياً، ولا تُعْفَ طبعك من المناظرة، فيصير سقيماً؛ وقال بشار بن بُرد:

شفاء العمى طولُ السؤال وإنما دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلاً عما عناك فإنما دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

والثاني: أفكار تعارض الخاطر، فتذهل عن تصور المعنى، وهذا سبب قلما يعرّى منه أحد، لا سيما من انسلطت آماله، واتسعت أمانيه، وقد يقلّ فيمن لم يكن له في غير العلم أرب. ولا فيما سواه همة، فإن طرأت على الإنسان، لم يقدر على مكابرة نفسه على

الفهم، وغلبة قلبه على التصور، لأن القلب مع الإكراه أشد نفوراً، وأبعد قبولاً. وقد جاء الأثر، بأن القلب إذا أكره عمي، ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من همّ مذهل، أو مكر قاطع، ليستجيب له القلب مطيعاً، وقد قال الشاعر:

وليس بمغنٍ في المودّة شافعٌ إذا لم يكن بين الضلوع شفيعٌ

وقال بعض الحكماء: إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش، فتألفوها بالاقتصاد في التعليم، والتوسط في التقديم، لتحسن طاعتها، ويدوم نشاطها.

فهذا تعليل ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعاني.

وها هنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام، وفهم معانيه، ولكنه قد يعرّى من بعض الكلام، فلذلك لم يدخل في جملة أقسامه، ولم تستجز الإخلال بذكره، وهو الخط، لأن من الكلام ما كان مسموعاً، لا يحتاج في فهمه إلى تأمل الخط به، والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه؛ ومنه ما كان مُستودعاً بالخط، محفوظاً بالكتابة، مأخوذاً بالاستخراج، فكان الخط حافظاً له، ومعبراً عنه وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، قال: يعني الخط. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]: يعني الخط؛ والعرب تقول: الخطّ أحد اللسانين، وحسنه إحدى الفصاحتين؛ وقال جعفر بن يحيى: الخط سِمَطُ الْحِكْمَةِ، به يُفَصِّلُ شُؤْرَهَا، وَيُنْظِمُ مَنُورَهَا؛ وقال ابن المقفع: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم على الشاهد والغائب، وهو للغاير والدّائر، مثله للقائم الدّاهر. وقال حكيم الروم: الخط هندسة روحانية، وإن ظهرت بآلة جُسمانية؛ وقال حكيم العرب: الخط أصيل في الروح، وإن ظهر بحواسّ الجسد.

واختلف في أول من كتب الخطّ، فذكر كعبُ الأحبار أن أوّل من كتب آدم عليه السلام، كتب سائر الكتب، قبل موته بثلاث مئة سنة في طين، ثم طبخه، فلما غرقت الأرض في أيام نوح على نبينا وعليه السلام، بقيت الكتابة، فأصاب كلّ قوم كتابتهم، وبقي الكتاب العربيّ، إلى أن خصّ الله تعالى به إسماعيل، فأصابه وتعلمها.

وحكى ابن قُتيبة: أن أول من كتب إدريس، على نبينا وعليه السلام.

وكانت العرب تعظم قدر الخط، وتعدّه من أجلّ نافع؛ حتى قال عكرمة: بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف، حتى إن الرجل ليفادي على أنه يعلم الخط، لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره، وجلالة قدره، وظهور نفعه وأثره. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٥] فوصف نفسه بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، وعدّ ذلك من نعمه العظام، ومن آياته الجسام، حتى أقسم به في كتابه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]؛ فأقسم بالقلم، كما أقسم بما يُخطّ بالقلم.

واختلف في أول من كتب بالعربية، فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب بها آدم عليه السلام، ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل على نبينا وعليه السلام.

وحكى ابن عباس رضي الله عنهما، أن أول من كتب بها ووضعها، إسماعيل عليه السلام، على لفظه ومنطقه. وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه، أن أول من كتب بها قوم من الأوائل، أسماؤهم: أبجد، وهوز، وحطّي، وكلمن، وسعقص، وقرشت، وكانوا ملوك مدّين.

وحكى ابن قُتيبة في المعارف: أن أول من كتب بالعربي مُرامر بن مُرة، من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت.

وحكى المَدائني: أن أول من كتب بها مُرامر بن مرة، وأسلم بن سِدْرة، وعامر بن جَدْرة؛ فمرامر وضع الصُّور، وأسلم فصل ووصل، وعامر وضع الإعجام.

ولما كان الخط بهذه الحال، وجب على من أراد حفظ العلم، أن يعني بأمرين: أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوع لها؛ والثاني ضبط ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميزة لها، ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط، وملاحة نظمه، فإنما هو زيادة حذق بصنّعه، وليس بتبشّط في صحته. وقد قال عليّ بن عُبيدة: حسن الخط لسان اليد، وبهجة الضمير. وقال أبو العباس المبرد: رداء الخط زمانة الأدب. وقال

عبد الحميد : البيان في اللسان، والخط في البنان. وأنشدني بعض أهل العلم، لأحد شعراء البصرة:

اعْذِرْ أَخَاكَ عَلَى رِءَاةِ خَطِّهِ وَاعْفِرْ نِذَالَتَهُ لِحُودَةِ ضَبْطِهِ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ يُرَادُ مِنْ تَرْكِيبِهِ إِلَّا تَبَيُّنُ سِمَاطِهِ
فَإِذَا أَبَانَ عَنِ الْمَعَانِي لَمْ يَكُنْ تَحْسِينُهُ إِلَّا زِيَادَةُ شَرْطِهِ

ومحلّ ما زاد على الخط المفهوم، من تصحيح الحروف، وحسن الصورة، محلّ ما زاد على الكلام المفهوم، من فصاحة الألفاظ، وصحة الإعراب، ولذلك قالت العرب: حسن الخط إحدى الفصاحتين؛ وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم في الكلام، أن يطرح الفصاحة والإعراب، وإن فهم وأفهم، كذلك لا يعذر من أراد التقدم في الخط، يطرح تصحيح الحروف، وتحسين الصور، وإن فهم وأفهم، ربما تقدّم بالخط من كل الخط أجلّ فضائله، وأشرف خصائله، حتى صار علماً مشهوراً، وسيداً مذكوراً، غير أن العلماء أطرّحوها صرف الهمّة إلى تحسين الخط، لأنه يشغلهم عن العلم، ويقطعهم عن التوقّر عليه، ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئة، لأن الزمان الذي يُفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر، وليست رداءة الخط هي السعادة، وإنما السعادة ألا يكون له صارف عن العلم. وعادة ذي الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم، فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيداً، وإن لم تكن رداءة الخط سعادة.

وإذا كان ذلك كذلك، فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته، كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته.

والأسباب المانعة من قراءة الخط، وفهم ما تضمنه، قد تكون من ثمانية أوجه:

الوجه الأول: إسقاطه ألفاظاً من أثناء الكلام، يصير الباقي منها مبهتوراً، لا يعرف استخراجاً، ولا يفهم معناه. وهذا يكون إما من سهو الكاتب، أو من فساد نقله، وهذا يسهّل استنباطه على من كان متراضاً بذلك النوع، فيستدل بجواشي الكلام وما سلم منه، على ما سقط أو فسد، لا سيما إذا قلّ، لأن الكلمة تستدعي ما يليها، ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه، فأما من كان قليل الارتياض بذلك النوع، فإنه يصعب عليه استنباط المعنى منه، لا سيما إذا كان كثيراً، لأنه يحتاج في فهم المعاني، إلى

الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة، فإذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى، قصر فهمه عن إدراكه، وضلّ فكره من استنباطه.

والوجه الثاني: زيادة ألفاظ في أثناء الكلام، يُشكّل بها معرفة الصحيح غير الزائد، من معرفة السقيم الزائد، فيصير الكل مشكلاً، وهذا لا يكاد يوجد كثيراً، إلا أن يقصد الكاتب تعمية كلامه، فيُدخل في أثناءه ما يمنع من فهمه، فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة. فأما وقوعه سهواً، فقد يكون بالكلمة والكلمتين، وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره.

والوجه الثالث: إسقاط حروف من أثناء الكلمة، تمنع من استخراجها على الصحة؛ وقد يكون هذا تارة من السهو، فيقلّ، وتارة من ضعف الهجاء، فيكثر، والقول فيه كالقول في الوجه الأول.

والوجه الرابع: زيادة حروف في أثناء الكلمة، يشكّل بها معرفة الصحيح من حروفها، وهذا يكون تارة من سهو الكاتب، فيقلّ، ولا يمنع من استخراج الصحيح؛ ويكون تارة لتعمية ومواضعة، يقصد بها الكاتب إخفاء غرضه، فيكثر كالتراجم، ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني.

والوجه الخامس: وصل الحروف المفصولة، وفصل الحروف الموصولة، فيدعو ذلك إلى الإشكال، لأن الكلمة ينبّه عليها وصل حروفها، ويمنع فصلها من مشاركة غيرها، فإن كان ذلك من سهو، قلّ فسهل استخراجها، وإن كان ذلك من قلة معرفة بالخط، أو مَشَقاً^(١) تُسبِق به اليد، كثر فصعب استخراجها، إلّا على المرتاض به؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شرُّ الكتابة المشق، كما أن شر القراءة الهذمة^(٢)، وإن كان للتعمية والرمز، لا يعرف بالمواضعة.

والوجه السادس: تغيير الحروف عن أشكالها، وإبدالها بأغيارها، حتى يكتب الجاء على شكل الباء، والصاد على شكل الراء، وهذا يكون في رموز التراجم،

(١) لعل المراد من لفظة المشق. الكتابة السريعة التي لا تبين فيها صور الحروف لقارئها.

(٢) الهذمة: السرعة في القراءة، بحيث لا تبين أحرف الكلمة بياناً واضحاً.

ولا يوقف عليه إلا بالمواضعة، إلا لمن قد زاد فيه الذكاء، فيقدرُ على استخراج المعنى.

والوجه السابع: ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة، وإثباتها على الأوصاف الحقيقية، حتى لا نكاد الحروف تمتاز عن أغيارها، حتى تصوير العين الموصولة كالفاء، والمفصولة كالحاء؛ وهذا يكون من رداءة الخط، وضعف اليد، واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة، وشدة التأمل، وإن كان ربما أضجر قارئه، وأوهى معانيه، ولذلك قيل: إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحاً.

والوجه الثامن: إغفال النقط والأشكال التي تتميز بها الحروف المشتبهة، وهذا أيسر أمراً، وأخف حالاً، لأن من كان متميزاً بصحة الاستخراج، ومعرفة الخط، لم تخف عليه معرفة الخط، وفهم ما تضمنه، مع إغفال النقط والأشكال.

بل قد استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات، ورأه من تقصير الكاتب، أو سوء ظنه بفهم المكاتب، وكان استقبحهم له في مكاتبة الرؤساء أكثر.

حكى قدامة بن جعفر: أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملاً، فشكا العامل منه إلى عبيد الله بن سليمان، وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجاً لصحة دعواه، ووضوح شكواه، فوقع فيها عبيد الله بن سليمان: هذا هذا، فأخذها العامل وقرأها، فظن أن عبيد الله أراد بهذا هذا، إثباتاً لصحة دعواه، وصدق قوله، كما يقال في إثبات الشيء هو هو، فحمل الرقعة إلى كاتب الديوان، وأراه خط عبيد الله، وقال له: إن عبيد الله قد صدّق قولِي، وصحّح ما ذكرت؛ فخفي على الكاتب ذلك، وأطيف به على كتاب الدواوين، فلم يقفوا على مراد عبيد الله، فردّ إليه، ليسأل عن مراده به، فشدد عبيد الله الكلمة الثانية، وكتب تحتها: والله المستعان؛ استعظما منه لتقصيرهم في استخراج مراده، حتى احتاج إلى إبانته بالشكل. فهذه حال الكتاب في استقبحهم إعجام المكاتبات بالنقط والأشكال. فأما غير المكاتبات من سائر العلوم، فلم يروه قبيحاً، بل استحسّوه، لا سيما في كتب الأدب، التي يقصد بها معرفة صيغة الألفاظ، وكيفية مخارجها، مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب، فإن الحاجة إلى ضبطها بالشكل والإعجام أكثر، وهي فيما سواه من العلوم أيسر، وقد قال الثوري: الخطوط المعجمة،

كالبرود المعلّمة. وقال بعض البلغاء : إعجام الخط يمنع من استعجابه ، وشكله يؤمن من إشكاليه. وقال بعض الأدباء : رب علم لم تُعْجَم فصوله ، فاستعجم محصوله.

وكما استقبح الكتاب الشكل والإعجام في المكاتبات ، وإن كان في كتب العلوم مستحسنًا ، فكذلك استحسنوا مَشَقَّ الخط في المكاتبات وإن كان في كتب العلوم مستقبحاً. وسبب ذلك أنهم لفرط إدلالهم بالصنعة ، وتقدمهم في الكتابة ، يكتفون بالإشارة ، ويقتصرون على التلويع ، ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة تقصيرا . ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال ، رأوا ما نَبّه عليه من سواد المداد أثراً جليلاً ، وعلى الفضل والتخصيص دليلاً.

حُكي أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صُفْرة ، فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ، ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ، وأنشد :

إنما الزعفرانُ عَطَّرَ العَذَارَى ومِداد الدُّوَيِّ عَطَّرَ الرَّجَالَ
فهذه جملة كافية في الإنابة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ، ومعرفة معانيه ، لفظاً كان أو خطأ ، والله وليّ التوفيق .

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ، ليسهل عليه الوصول إليه ، ثم يكون بعد ذلك سائساً لنفسه ، مدبراً لها في حال تعلمه ، فإن للنفس نفورا يُفْضي إلى تقصير ، ووفورا يؤول إلى سرف ، وقيادها عسر . ولها أحوال ثلاث : فحال عدل وإنصاف ، وحال غلو وإسراف ، وحال تقصير وإجحاف :

فأما حال العدل والإنصاف بلا تقصير . فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين : طاعة مسعدة ، وشفقة كافة ، فطاعتها تمنع التقصير ، وشفقتها تردّ عن السرف والتبذير وهذه أحمَد الأحوال ، لأن ما منع من التقصير نام ، وما صدّ عن السرف مستديم ، والنموّ إذا استدام فأخْلُقَ به أن يُسْتَكْمَلَ . وقال بعض الحكماء : إياك ومفارقة الاعتدال ، فإن المسرف مثل المقصّر في الخروج عند الحدّ .

وأما حال الغلو والإسراف : فهي أن تختص النفس بقوى الطاعة ، وتعدم قوى الشفقة ، فيبعثها اختصاص الطاعة على إفراغ الجهد ، ويُضْفِي بها إفراغ الجهد إلى عجز

الكَلال فيؤدّيها عجز الكلال، إلى التّرك والإهمال، فتصير الزيادة نقصانا، والربح خسرانا. وقد قالت الحكماء: طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام: إن أخذ منه قوتا عَصَمَهُ، وإن أسرف فيه أَبْشَمَهُ، وربما كان فيه منيَّة، كأخذ الأدوية التي القصد فيها شفاء، ومجاوزة الحد فيها السّمّ المميت.

وأما حال التقصير والإجحاف: فهي أن تختص النفس بقوى الشَّفَقَة، وتعدم قوى الطاعة، فيدعوها الإشفاق إلى المعصية، وتمنعها المعصية من الإجابة، فلا تطلب شاردا، ولا تقبل عائدا، ولا تحفظ مستودعا؛ ومن لم يطلب الشارد، ويقبل العائد، ويحفظ المستودع، فَقَدْ الموجود، ولم يجد المفقود؛ ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون، ومن لم يجد ما فقد، فهو خائب مغبون. وقد قال بعض الحكماء: العجز مع الوائي، والقوّت مع التوائي.

وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوّتين، فيكون للنفس طاعة وإشفاق، وإحداهما أغلب من الأخرى، فإن كانت الطاعة أغلب، كانت إلى الوفور المجاوز أميل، وإن كان الإشفاق أغلب، كانت إلى التقصير أقرب؛ فإذا عرف من نفسه قدر طاعتها، وخَبَرَ منها كُنَّةَ إشفاقها، راض نفسه، ليلبث على أحد حالاتها، وقد أشار إلى ما وصفنا من حال النفس، الفرزدق في قوله: لكل امرئ نفسان: نفسٌ كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويُطيعها ونفسُك من نفسك تشفع للندي إذا قلّ من أحرارهنّ شفيحها

فإن أهمل سياستها، وأغفل رياضتها، ورام أن يأخذها بالعنف، ويقهرها بالعسف. استشاطت نافرة، ولجت معاندة، فلم تنقد إلى طاعة، ولم تنكف عن معصية. وقال سابق البربري:

إذا زَجَرْتَ لَجَوْجاً زدته عُلْقاً ولجّت النفسُ منه في تماديها
فعدّ عليه إذا ما نفسه جمحت باللين منك فإنّ اللين يثنيها

فإذا استصعب عليه قياد نفسه، ودام منه نفور قلبه، مع سياستها، ومعاناة رياضتها، تركها ترك راحة، ثم عاودها بعد الاستراحة، فإنّ إجابتها تصرّع، وطاعتها

ترجع . وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « إن القلب يموت ويحيا ، ولو بعد حين » .
وقال ابن مسعود : للقلوب شهوة وإقبال ، وفترة وإدبار ، فأتوها من قبل شهوتها ،
ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر :

وما سُمِّيَ الإنسانَ إِلَّا لِأَنْسِهِ ولا القلبَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْقَلِبُ
وأما الشروط التي يتوقَّر بها علم الطالب ، وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ
به من التوفيق ، ويُمدَّ به من المعونة ، فتسعة شروط :

الأول : العقل الذي يدرك به حقائق الأمور .

والثاني : الفطنة التي يتصوَّر بها غوامض العلوم .

والثالث : الذكاء الذي يستقرُّ به حفظ ما تصوِّره ، وفهم ما علمه .

والرابع : الشهوة التي يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليها الملل .

والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلف الطَّلَب .

والسادس : الفراغ الذي يكون معه التوفر ، ويحصل به الاستكثار .

والسابع : عدم القواطع المذهلة ، من هموم ، وأشغال ، وأمراض .

والثامن : طول العمر ، واتساع المدة ، لينتهي بالاستكثار ، إلى مراتب الكمال .

والتاسع : الظفر بعالم سَمَح بعلمه ، متأنٌّ في تعليمه .

إذا استكمل هذه الشروط التسعة ، فهو أسعد طالب ، وأنجح متعلم . وقد قال
الإسكندر : يحتاج طالب العلم إلى أربع : مدة ، وجِدَّة ، وقرِيحة ، وشبهة . وتمامها في
الخامسة : معلم ناصح .

فصل : وسأذكر طَرَفًا مما يتأدب به المتعلم ، ويكون عليه العالم .

اعلم أن للمتعم في زمان تعلمه ثَمَلًا وتَذَلُّلاً ، إن استعملها غَنِمَ ، وإن نرَكها حُرِمَ ؛
لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه
تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار . وقد رَوَى مُعَاذٌ ^(١) عن النبي ﷺ أنه
قال : « ليس من أخلاق المؤمن المَلَقُ إِلَّا في طلب العلم » وقال عبدالله بن عباس رضي

(١) معاذ بن جبل الأنصاري ، من كبار الصحابة وعظماهم وعلماهم ، توفي سنة ثمانٍ عشرة للهجرة .

الله عنها : ذَلَلْتُ طالبا ، فعزَّزْتُ مطلوباً . وقال بعض الحكماء : من لم يَحتَمِلْ ذُلَّ التعلُّمِ ساعة ، بقيَ في ذلِّ الجهلِ أبداً ، وقال بعض حكماء الفرس . إذا قعدتَ وأنت صغير حيث تُحبُّ ، قعدتَ وأنت كبير حيث لا تُحبُّ . ثم ليعرفَ له فضل علمه ، وليشكر له جميل فعله . فقد رَوَتْ عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ وَقَرَ عالماً فقد وقَرَ ربه » . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لا يعرف فضل أهل العلم ، إلا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء :

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرَما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته إن كانت له ، وإن كان العالم خاملاً ، فإن العلماء لعلمهم قد استحقوا التعظيم ، لا بالقدرة والمال . وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر ابن دريد :

لا تحقرن عالماً وإن خلقتْ أثوابه في عيون راميهِ
وانظر إليه بعين ذي أدب مهذب الرأي في طله ثقر
فالمسك بينا تراه ممتنها بفهر عطاره وساحقهِ
حتى تراه في عارضِي مَلِكٍ وموضع التاج من مفارقهِ

وليكن مقتدياً بهم في رَضِيّ أخلاقهم ، متشَبِّهاً بهم في جميع أفعالهم ، ليصير لهم ألفاً ، وعليها ناشئاً ، ولما خالفها مجانباً . فقد قال النبي ﷺ : « خيلوا شَبَابِكُمُ المتشبهون بشيوخكم ، وشِرَارُ شيوخكم المتشبهون بشبانكم » . وروى ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : من تشبَّه بقوم فهو منهم » ؛ وأنشدني بعض أهل الأدب ، لأبي بكر بن دُرَيْد :

العالم العاقل ابن نفسه أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدباً فإنما المرء بفضله كئسه
وليس مَنْ تَكْرَمُهُ لغيره مثل الذي تَكْرَمُهُ لنفسه

وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وإن آنسه ، والإدلال عليه وإن تقدمت

صحبتة . فقد قيل لبعض الحكماء : من أذلّ الناس ؟ فقال : عالم يجري عليه حكم جاهل . وكلمت رسول الله ﷺ جارية من السبي^(١) ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم ، فقال ﷺ : « ارحموا عزيز قوم ذلّ ، ارحموا غنيا افتقر ، ارحموا عالما ضاع بين الجهال » . ولا يُظهر له الاستكفاء منه ، والاستغناء عنه ، فإن في ذلك كفراً لنعمته ، واستخفافاً بحقه ، وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه ، لجودة ذكائه ، وحدة خاطره ، فقصده من يعلمه بالإعنات له ، والاعتراض عليه ، ازدراء به ، وتبكيته له ، فيكون كمن تقدم به المثل السائر لأبي البطحاء :

أعلمه الرماية كل يوم فلما أشدّ ساعده رماني
وهذه من مصائب العلماء ، وانعكاس حظوظهم ، أن يصبروا عند من يعلمونه مستجهلين ، وعند من قدموه مسترذلين ، وقال صالح بن عبد القدوس :

وإن عناء أن تعلّم جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟
متى ينتهي عن شيء من أتى به إذا لم يكن منه عليه تندم ؟
وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم ، على الوالد ، حتى قال بعضهم :

يا فاخرا للسفاه بالسلف وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب لأن جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خيرا أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف

ء ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له ، على قبول الشبهة منه ، ولا يدعوه ترك الإعنات له ، على التقليد فيما أخذ عنه ، فإنه ربما غالى بعض الأتباع في عالمهم ، حتى يروا أن قوله دليل ، وإن لم يستدل ، وأن اعتقاده حجة ، وإن لم يحتج ، فيفضي به الأمر إلى التسليم له ، فيما أخذ عنه ، ويؤول به ذلك إلى التقصير فيما يصدر منه ، لأنه اجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه ، فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت ، أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت ، لأنه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ، ما كانوا يرونه لمن

(١) هي سفانة بنت حاتم الطائي .

أخذوا عنه ، فيطالبهم بما قصروا فيه ، فيضعفوا عن إبانته ، ويعجزوا عن نصرتة ، فيذهبوا ضائعين ، ويصيروا عجزة مضعوفين .

ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل ، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة ، فكان جوابه عنها أن قال : إن هذه دلالة فاسدة ، ووجه فسادها أن شيعي لم يذكرها ، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه ، فأمسك عنه المستدل تعجباً ، ولأن شيخه كان محتشماً ، وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ، ثم أقبل المستدل علي وقال لي : والله لقد أفحمني بجهله ، وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ، من بين مبتهزى ومتعجب ، ومستعيز بالله من جهل مغرب ، فهل رأيت كذلك عالماً أوغل في الجهل ، وأدلّ على قلة العقل .

وإذا كان المتعلم معتدلاً الرأي فيمن يأخذ عنه ، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه ، حتى لا يحمليه الاعنات على اعتراض المبكتين ، ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين ، يرى المتعلم من المذمتين ، وسلم العالم من الجهتين ، وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتاً ، ولا قبول ما صح في النفس تقليداً . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « العلم خزانة ، ومفتاحه السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنما يُؤجر في العلم ثلاثة : القائل ، والمستمع ، والآخذ » وقال عليه الصلاة والسلام : « هلا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العمي السؤال » ؛ فأمر بالسؤال وحث عليه . ونهى آخرين عن السؤال ، وزجر عنه ، فقال ﷺ : « أنهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم وكثرة السؤال ، فإنما هلك من قبلكم بكثرة السؤال » . وليس هذا مخالفاً للأول ، وإنما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ، ونهى عنه من قصد به إعنات ما سمع ، وإذا كان السؤال في موضعه ، أزال الشكوك ، ونفى الشبهة ، وقد قيل لابن عباس ^(١) رضي الله عنهما : بئس نلت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤال ، وقلب عقول ، وروى نافع ^(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « حسن السؤال نصف العلم » . وأنشد المبرد عن أبي سليمان الغنوي :

(١) ابن عباس . هو خير الأمة . وابن عمر رسول الله ﷺ . مات بالطائف سنة ثمان وستين .

(٢) نافع مولى عبدالله بن عمر أصله من البربر من المغرب . مات بالمدينة سنة سبع عشرة ومئة .

فسل الفقيه تكن فقيها مثله لا خيرَ في علم بغير تدبّر
وإذا تعسّرتِ الأمورُ فأرْجِها وعليك بالأمر الذي لم يعسّرِ
وليأخذ المتعلّم حَظَّهُ ممن وجدَ طلبته عنده، من نبيه وخامل، ولا يطلب الصيت
وحسن الذكر، باتباع أهل المنازل من العلماء، إذا كان النفع بغيرهم أعم، إلا أن
يستوي النفعان، فيكون الأخذ عمّن اشتهر ذكره، وارتفع قدره أولى، لأن الانتساب
إليه أجمل، والأخذ عنه أشهر، وقد قال الشاعر:

إذا أنت لم يشهركَ علمك لم تجدْ لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وإن صانك العلم الذي قد حملته أتاك له من يحنّيه ويحمّله
وإذا قرب منك العلم، فلا تطلب ما بعد، وإذا سهّل من وجه، فلا تطلب ما
صعب، وإذا حمّدت من خبرته، فلا تطلب من لم تختبره، فإن العدول عن القريب
إلى البعيد عناء، وترك الأسهل بالأصعب بلاء، والانتقال من المخبور إلى غيره خطر،
وقد قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: عُقِبِي الأخرق مضرة، والمتعسّف لا تدوم
له مسرة، وقال بعض الحكماء: القصد أسهل من التعسّف، والكف أودع من التكلف،
وربما تتعب نفس الإنسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه، وطلب ما صعب،
احتقارا لما سهّل عليه، وانتقل إلى من لم يخبره، ملّلا لمن خبره، فلا يدرك محبوبا، ولا
يظفر بطائل، وقد قالت العرب في أمثالها: العالم كالكمة، يأتيها البُعداء، ويزهد فيها
القُرباء، وأنشدني بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم:

لا ترى عالما يحلّ بقوم فيحلّوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة لجموعتين في إنسان
فإذا حلّتا مكانا سحيقا فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة المنبوعة بيت الـ له يسعى لوجهها الثقلان
وترى أزهّد البرية في الحـ حجّ لها أهلها لقرب المكان

فصل: فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق، [هي] التي بهم أليق، ولهم
الزّمْ، فالتواضع، ومجانبة العُجب، لأن التواضع عَطُوف، والعجب مُنْفَر، وهو بكل
أحد قبيح، وبالعلماء أقبح. لأن الناس بهم يقتدون، وكثيرا ما يداخلهم الإعجاب،

لوحدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظروا حق النظر، وعلموا بموجب العلم، لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العُجب بهم أخرى، لأن العُجب نقص ينافي الفضل، لا سيما مع قول النبي ﷺ: «إن العُجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، فلا يفي ما أدركه من فضيلة العلم، بما لحقهم من نقص العُجب. وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قليل العلم خير من كثير العبادة». وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله عز وجل، وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، لتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم. وقال بعض السلف: من تكبر بعلمه وترفع، وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه، رفعه الله به. وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال، وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء، فإنه ليس مثناه في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر. قال الله تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف: ٧٦]، يعني في العلم. قال أهل التأويل: يعني فوق كل ذي علم من هو أعلم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى. وقيل لبعض الحكماء: من يعرف كل العلم؟ قال: كل الناس. وقال الشعبي: ما رأيت مثلي. وما أشاء أن ألقى رجلاً أعلم مني إلا لقبته. لم يذكر الشعبي هذا القول تفضيلاً لنفسه، فيستقبح منه، وإنما ذكره تعظيماً للعلم عن أن يحاط به، فينبغي لمن عليم، أن ينظر إلى نفسه، بقصر ما فصر فيه، لبسم من عُجب ما أدرك منه. وقد قيل في منشور الحكم: إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء.

رأشت لابن العميد:

من شاء عبثاً هنيئاً ينفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلبظرون إلى من فوقه أدباً ولينظرون إلى من دونه مآلاً

رَفَلَهَا تَحَدَّ الْعَالَمَ مُعْجِبًا، وَبِمَا أَدْرَكَهُ مِنْهُ مَفْتَخِرًا، إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ مُقْلًا وَمَقْصُرًا، لِأَنَّهُ فَدَّ يَجْهَلُ قَدْرَهُ، وَبِحَسَبِ أَنَّهُ نَالَ بِالْدُخُولِ فِيهِ أَكْثَرَهُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِ مُتَوَجِّهًا، فَسَكَّرَ فِيهِ نَعَامَ مَنْ بَعْدَ غَايَتِهِ، وَالْعَجْزَ عَنْ إِدْرَاكِ نَهَايَتِهِ، مَا يَصْدُّهُ مَنْ

العُجْبُ به . وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه ، وظن أنه ناله . ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ؛ وأما الشبر الثالث فتهيأت ، لا يناله أحد أبداً .

ومما أنذرك به من حالي ، أنني صنف في البيوع كتابا ، جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي ، وكدّدت فيه خاطري ، حتى إذا تهذّب واستكمل ، وكذّبت أعجب به ، وتصوّرت أنني أشد الناس اضطلاعا بعلمه ، حضري وأنا في مجلسي أعرابيان ، فسألاني عن بيع عقّده في البادية ، على شروط تضمنت أربع مسائل ، لم أعرف لواحدة منهن جوابا ؛ فأطرقت مفكرا ، وبجالي وحالها معتبرا . فقالا : ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقال : واهما لك ، وانصرفا ، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي ، فسألاه ، فأجابها مسرعا بما أفتنعهما ، وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه ، فبقيت مرتبكا ، وبجالها وحالي معتبرا . وإني لعلي ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي ، فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تدلّل بها قياد النفس ، وانخفاض لها جناح العُجْب ، توفيقا مُنيحته ، ورُشدا أوتيته . وحقّ على من ترك العُجْب بما يُحسّن ، أن يدع التكلف لما لا يُحسّن ، فقد نهى الناس عنهما ، واستعاذوا بالله منهما .

ومن أوضح ذلك بيانا ، استعاذة الجاحظ في كتاب البيان^(١) ، حيث يقول : « اللهم إنا نعوذ بك من فتنه القول ، كما نعوذ بك من فتنه العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نُحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نُحسن ، ونعوذ بك من شر السلاطة والهدر ، كما نعوذ بك من سرّ العي والحصر » . ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ ، فليس لمن تكلف ما لا يُحسن غاية ينتهي إليها ، ولا حدّ يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود ، فأخلق به أن يضلّ ويضلّ . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ سئِلَ فأفتى بغير علم ، فقد ضلّ وأضل » . وقال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم ، بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك ، أن تنطق بما لا تفهم ، ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول :

(١) مفتح الجزء الأول من البيان والسبين .

إذا ما انتهى علمي تناهيتُ عندهُ أطال فأملِي، أو تناهى فأقصّرَا
ويُخبرني عن غائب المرءِ فعِلُهُ كفى الفعلُ عما غيَّب المرءُ مُخبرَا
فإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل، فلا عار أن يجهل بعضه، وإذا لم يكن في
جهل بعضه عار، لم يقبح به أن يقول لا أعلم، فيما ليس يعلم.

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيّ البقاع خير، وأيّ البقاع شرّ؟ فقال: لا
أدري حتى أسأل جبريل. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: وما أبردها على
القلب! إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم، أن يقول الله أعلم، وإن العالم من عرف أن ما يعلم
فيما لا يعلم قليل. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم قول لا أدري،
أصيب مقتله. وقال بعض العلماء: هلك من ترك لا أدري. وقال بعض الحكماء: ليس
لي من فضيلة العلم إلا علمي بأنّي لست أعلم. وقال بعض البلغاء: من قال لا أدري علّم
قدري، ومن انتحل ما لا يدري أهمل فهو ي: ولا ينبغي للرجل وإن صار في طبقة
العلماء الأفاضل، أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده، ليسلم من التكلف له. وقد قال
عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت، وعلم
الجهال ما علمت، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: خمس خذوهن عني، فلو
ركبتم الفلك ما وجدتموهن إلاّ عندي: ألا لا يَرْجُونَ أحدًا إلاّ ربّه، ولا يخافن إلاّ
ذنبه، ولا يستنكف العالم أن يتعلم ما ليس عنده، وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم،
فليقل لا أعلم، ومنزلة الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد. وقال عبدالله بن
عباس رضي الله عنهما: لو كان أحد يكتفي من العلم، لاكتفى منه موسى على نبينا
وعليه السلام، ولما قال: هل أتبعك على أن تعلمن مما علّمت رُشدا. وقيل للخليل
ابن أحد: بم أدركت هذا العلم؟ قال: كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته. وقال
بُزْرجَمهر: من العلم ألاّ تحقير شيئا من العلم، ومن العلم أن تفضل جمع العلم وقال
المنصور ^(١) لشريك ^(٢) أني لك هذا العلم؟ قال: لم أرغب عن قليل أستفيده، ولم أبخل
بكثير أفيدّه. على أن العلم يقتضي ما بقي منه، ويستدعي ما تأخر عنه، وليس للراغب

(١) المنصور هو أبو جعفر بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، استخلف بعد أخيه أبي العباس السفاح.
ولد سنة خمس وسعين، وتوفي سنة ١٥٨ هـ.

(٢) شريك: هو أبو عبدالله بن عبدالله النخعي، كان من الفقهاء والمحدثين (٩٥ - ١٧٧ هـ).

فيه قناعة ببعضه. وروى عون بن عبد الله، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: «مَنْهُمَا لَا يَشْبَعَانِ: طالب علم وطالب دُنْيَا»، أما طالب العلم فإنه يزداد من الرحمن قرباً، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما طالب الدنيا، فإنه يزداد طغياناً، ثم قرأ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ﴾ [العلق: ٦]: وليكن مستقلاً للفضيلة منه، ليزداد منها، ومستكثراً للنقيصة فيه. لينتهي عنها، ولا يقنع من العلم بما أدرك، لأن القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك، والترك له جهل. وقد قال بعض الحكماء: عليك بالعلم والإكثار منه، فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير، وكثيره أشبه شيء بكثيره، ولن يعيب الخير إلا القلة، فأما كثرته فإنها أمانة. وقال بعض البلغاء: من فضل علمك، استقلالك لعلمك، ومن كمال عقلك، استظهارك على عقلك.

ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها، ولا أن يتجاوز بها قدرَ حقها، ولأن يكون بها مقصراً، فيذعن بالانقياد، أولى من أن يكون بها مجاوزاً، فيكف عن الازدياد، لأن من جهل حال نفسه، كان لغيرها أجهل. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: إذا عرف نفسه وقد قسم الخليل ابن أحد أحوال الناس فيما عليموه أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة، لا يخلو حال الإنسان منها، فقال:

الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاسألوه؛ ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك ناس فذكّروه؛ ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري، فذلك مسترشد فارشدوه؛ ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فارفضوه.

وأنشد أبو القاسم الأُمَدي:

إذا كانت لا تدري ولم تك بالذي	يسألك من يدري فكيف إذن تدري؟
جهلت ولم تعلم بأنك جاهل	فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري؟
إذا جئت في كل الأمور بغمة	فكن هكذا أرضاً يطأك الذي يدري
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري	وأنت لا تدري بأنك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه ، وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ، ولا يكن من قال الله تعالى فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة : ٥] . وقد قال قتادة ^(١) في قوله تعالى: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ [يوسف : ٦٨] إنه العامل بما علم . ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: « ويل لجماع القول! ويل للمصرتين! » يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به ورؤي عبدالله بن وهب ^(٢) عن سفيان ، أن الخضير على نبينا وعليه السلام ، قال لموسى عليه السلام: يا بن عمران . تعلم العلم لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بُورُهُ ، ولغيرك نُورُهُ . وقال علي بن أبي طالب : إنما زهد الناس في طلب العلم ، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء : أخوف ما أخاف إذا وقعت بين يدي الله ، أن يقول: قد علمت فإذا عملت ؟ وكان يقال : خير من القول فاعله ، وخير من الصواب قائله ، وخير من العلم حامله . وقيل في منشور الحكم : لم ينتفع بعلمه ، من ترك العمل به وقال بعض العلماء : ثمرة العلم أن يُعمل به ، وثمره العمل أن يُؤَجَّرَ عليه . وقال بعض الصلحاء : العلم بهنّف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال بعض الحكماء : خير العلم ما نفع ، وخير القول ما رَدَعَ . وقال بعض الأدباء : ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء : من تمام العلم استعماله ، ومن تمام العمل استقلاله ، فمن استعمل علمه ، لم يخل من رشاد . ومن استقل عمله ، لم يُقْصَر عن مُراد : وقال أبو تمام الطائي :

ولم يحسدوا من عالم غير عامل خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طُرْفَات المجد عُوْجاً فُضِيْعَةً وأفْطَع عجز عندهم عجز حازم
لأنه لما كان علمه حُجَّة على من أخذَ عنه ، واقتبس منه ، حتى يلزمه العمل به ، والمصر الد ، كان عليه أحج ، وله ألزم ، لأن مرتبة العلم قبل مرتبة القول ، كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل ، وقد قال أبو العتاهية رحمه الله :

اسمع إلى الأحكام تح ملها الرواة إليك عنكا
رأعهم هُديت بأنها حُجج تكون عليك منكنا

(١) - ابن - عسك - السدوسي المصري النابغى من كبار رجال الحديث توفي بواسط سنة ١١٧ هـ

(٢) - ابن - عسك - ابن مسلم المصري . كان من كبار المجتهدين . توفي بمصر سنة ١٩٧ هـ

ثم لينجنب أن يقول ما لا يفعل، وأن يأمر بما لا يأتمر، وأن يسرّ غير ما يظهر، ولا يجعل قول الشاعر هذا:

اعمل بقولي وإن قصّرت في عملي ينفعك قولي ولا يضروك تقصيري
عذرا له في تقصيره، فيضره، وإن لم يضر غيره، فإن إصرار النفس بغيرها، ويحسن لها مساوئها، فإن من قال ما لا يفعل، فقد مكر، ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع، ومن أسرّ غير ما يظهر، فقد نافق. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المكر والخديعة وصاحبها في النار». على أن أمره بما لا يأتمر مطّرح، وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح، بل ربما كان ذلك سببا لإغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا، وارتكاب ما نهى عنه كيادا. وحكي أن أعرابيا أتى ابن أبي ذئب^(١)، فسأله عن مسألة طلاق، فأفتاه بطلاق امرأته، فقال: انظر حسنا، قال: نظرت وقد بانت منك، فولّى الأعرابي وهو يقول:

أتيت ابن ذئب أبتغي الفقه عنده فطلق حتى البتّ تبّت أنامله
أطلق في فتوى ابن ذئب حليتي وعند ابن ذئب أهله وحلائله؟!
فضن بجهله، أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق؛ فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الأمر والمأمور، كيف يكون مقبولا منه، وهو غير عامل به، ولا قابل له؟ كلا. وقال أحمد بن يوسف^(٢):

وعامل بالفجور يأمر بالـ رّ كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعيط ثوبك طهر أولاً فلا تلم

وقال آخر:

عوذ لسانك قلة اللفظ واحفظ كلامك أيّا حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقد أصبحت محتاجا إلى الوعظ

(١) ابن أبي ذئب. محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي العامري المدني مات بالكوفة سنة ١٥٩ هـ.

(٢) من أفاضل كتاب المأمون وأفظنهم وأذكاهم.

وأما الانقطاع عن العلم إلى العمل، أو الانقطاع عن العمل إلى العلم، إذا عمل بموجب العلم، فقد حُكي عن الزَّهْرِيِّ فيه ما يُعْنِي عن تكلف غيره، وهو أنه قال: العلم أفضل من العمل به لمن جَهِل، والعمل أفضل من العلم لمن عَليم. وأما فضل ما بين العلم والعبادة، إذا لم يُخَلَّ بواجب، ولم يقصر في فرض، فقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «يُبْعَثُ الْعَالَمُ وَالْعَابِدُ، فَيُقَالُ لِلْعَابِدِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، وَيُقَالُ لِلْعَالَمِ: اتَّعِدْ حَتَّى تَشْفَعَ لِلنَّاسِ».

ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون: فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم. وكيف يسوغ لهم البخل بما مَنَحُوهُ جوداً من غير بخل، وأتوه عفواً من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشَّحُّ لما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووَهَى. ولو استن بذلك من تقدّمهم، لما وصل العلم إليه، ولانقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقضها أردالاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْنَعُوا الْعِلْمَ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فُسَادَ دِينِكُمْ وَالتَّبَاسَ بِصَائِرِكُمْ»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهُدًى مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً يُحْسِنُهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِّنْ نَّارٍ». وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا، حَتَّى أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْعَمُوا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِذَا كَانَ مِنْ قَوَاعِدِ الْحِكْمَةِ بَذْلُ مَا يَنْقُصُهُ الْبَذْلُ، فَأَحْرَى أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوَاعِدِهَا بَذْلُ مَا يَزِيدُهُ الْبَذْلُ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كَمَا أَنَّ الْإِسْتِفَادَةَ نَافِلَةٌ لِلْمُتَعَلِّمِ، كَذَلِكَ الْإِفَادَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى الْمُعَلِّمِ. وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحُكْمِ: مَنْ كَتَمَ عِلْماً فَكَأَنَّهُ جَاهِلُهُ. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ^(١) إِنِّي لَأَفْرَحُ بِإِفَادَتِي الْمُتَعَلِّمِ، أَكْثَرَ مِنْ فَرَحِي بِاسْتِفَادَتِي مِنَ الْمُعَلِّمِ.

(١) خالد بن صفوان الأهمشي من أشهر خطباء العرب كان من سهار أبي العباس السفاح مؤسس دولة بني العباس، وذوي المنزلة عنده، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه.

ثم له بالتعليم نفعان :

أحدهما : ما يرجوه من ثواب الله تعالى ، فقد جعل النبي ﷺ التعليم صدقة ، فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ، ورأي يسدده » . وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « تعلموا وعلموا ، فإن أجر العالم والمتعلم سواء ، قيل : وما أجرهما ؟ قال : مئة مغفرة ، ومئة درجة في الجنة » .

والنفع الثاني : زيادة العلم ، وإتقان الحفظ ، فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك ، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز في منشور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يُخمدُها ألا تُجد حطباً ، كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ، ولكن فقدُ الحاملين له سبب عدمه ، فإياك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء : علّم علمك ، وتعلم علّم غيرك ، فإذا أنت قد علّمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

واعلم أن المتعلمين ضربان : مُستدعى وطالب ؛ فأما المستدعى إلى العلم ، فهو من استدعاهُ العالم إلى التعليم ، لما ظهر له من جودة ذكائه ، وبأن له من قوّة خاطره ، فإذا وافق استدعاءُ العالم شهوةَ المتعلم ، كانت نتيجتها دركُ النَّجباء ، وظفرُ السُّعداء ، لأن العالم باستدعائه متوفّر ، والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر ؛ وأما طالب العلم لداع يدعوه ، وباعث يحذّوه ، فإن كان الداعي دينياً ، وكان المتعلم فطنا ذكياً ، وجب على العالم أن يكون عليه مُقبلاً ، وعلى تعليمه متوفّراً ، لا يخفي عليه مكنونا ، ولا يتطوي عنه مخزونا ، وإن كان بليداً بعيد الفطنة ؛ فينبغي ألاّ يُمنع من اليسير فيُحرّم ، ولا يُحمّل عليه بالكثير فيُضلّم ، ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه ، فإن الشهوة باعثة ، والصبر مؤثّر . وقد روي عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله ، فتظلموا ، ولا تضعوه في غير أهله ، فتأثموا » . وقال بعض الحكماء : لا تمنعوا العلم أحداً ، فإن العلم أمتع لجانبه . فأما إن لم يكن الداعي دينياً نظر فيه ، فإن كان مباحاً ، كرجل دعاه إلى طلب العلم حبّ النباهة ، وطلب الرياسة ؛ فالقول فيه يقارب القول الأوّل في تعليم من قبله ، لأن العلم يعطفه إلى الدين في ثاني الحال ، وإن لم يكن مبتدئاً به في أوّل حال وقد حُكي عن سفيان الثوري أنه قال : تعلمنا العلم لغير الله تعالى ، فأبى أن يكون إلّا لله . وقال عبد

الله بن المبارك: طلبنا العلم للدنيا، فدلّنا على ترك الدنيا. وإن كان الداعي محظورا، كرجل دعاه إلى طلب العلم شرّ كامن، ومكرّ باطن، يريد أن يستعملهما في شبه دينية، وحيل فقهية، لا تجد أهل السلامة منها مخلصا، ولا عنها مدّفعا، كما قال النبي ﷺ: «أهلك أمتي رجлан: عالم فاجر، وجاهل متعبد. فقل: يا رسول الله، أيّ الناس شرّ؟ فقال: العلماء إذا فسدوا» فينبغي للعالم إذا رأى من هذه حالة، أن يمنعه من طلبته، ويصرفه عن بُغيته، ولا يعينه على إمضاء مكره، وإكمال شرّه. فقد روى أنس ابن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «واضع العلم في غير أهله، كمقلّد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب» وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: لا تلقوا الجوهر للخنزير؛ فالعلم أفضل من اللؤلؤ، ومن لا يستحقه شرّ من الخنزير.

وحكي أن تلميذا سأل عالماً عن بعض العلوم، فلم يُفِده، فقليل له: لم منبته؟ فقال: كل تربة غرس، ولكل بناء أسّ. وقال بعض البلغاء: لكل ثوب لابس، ولكل علم نابس. وقال بعض الأدباء: ارث لروضة توسّطها خنزير، وابك لعلم حواه شيرير.

وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسّم به المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمّله بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم، وأنجح للمتعلّم. وقد روى ثابت عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسّم». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا أنا لم أعلم ما لم أر، فلا علّمت ما رأيت. وقال عبد الله بن الزبير: لا عاش بخير من لم ير برأيه، ما لم ير بعينه. وقال ابن الرومي:

أَلْمَعِيَ يَرَى بِأَوَّلِ رَأْيٍ آخَرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَوَدَعِيَ لَهُ فُؤَادَ ذَكِيٍّ مَالَهُ فِي ذِكَاثِهِ مِنْ ضَرْبِ
لَا يُرَوِّي وَلَا يَقْلِبُ طَرَفَا وَأَكْفَ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيلِ

وإذا كان العالم في توسّم المتعلمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً، لم يَضِعْ له عَناء، ولم يَخِبْ على يديه صاحب، وإن لم يتوسّمهم، وخفيت عليه أحوالهم، ومبْلَغ استحقاقهم، كانوا وإياه في عَناء مُكَّد، وتعَب غير مُجَد، لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكيّ محتاج إلى الزيادة، وبلید يكتفي بالقليل، فيضجر الذكيّ منه،

ويُعْجِزُ البليد عنه ومن يردد أصحابه بين عجز وضمَجْر مَلَّوه ومَلَّهم. وقد حَكَّى عبد الله بن وهب، أن سفيان بن عبد الله قال: قال الخضير لموسى عليهما السلام: يا طالب العلم: إن القائل أقلُّ مَلالةً من المستمع، فلا تُمِلْ جلساءك إذا حدثتهم يا موسى واعلم أن قلبك وعَيْنُكَ، فانظر ما تحشو في وعائِكَ. وقال بعض الحكماء: خير العلماء من لا يُقِلُّ ولا يُمِلُّ. وقال بعض العلماء: كل علم كَثُرَ على المستمع، ولم يطاوعه الفهم، ازداد القلب به عمىً، وإنما ينفع سمع الآذان، إذا قوى فهم القلوب في الأبدان.

وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم، لفضيلة نفسه، وكرم طبعه، فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده، والإدلال عليه، بل يعطيه ما يستحقه بلسطانه؛ وعلوَّ يده، فإن للسلطان حقَّ الطاعة والإعظام، وللعالم حقَّ القبول والإكرام. ثم لا ينبغي أن يبتدئه إلا بعد الاستدعاء، ولا يزيده على قدر الاكتفاء، فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره، فصار ذلك ذريعة إلى مَلِّه، ومفضيا إلى بعده، فإن السلطان مُتَقَسِّم الأفكار، مُسْتَوْعِب الزمان، فليس له في العلم فراغ المنقطعين إليه، ولا صبر المنفردين به. وقد حكى الأصمعي رحمه الله، قال: قال لي الرشيد: يا عبد الملك، أنت أعلم منا، ونحن أعقل منك، فلا تعلمنا في مَلَا، ولا تسرع إلى تذكيرنا في خَلَا، واطركننا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزدد، إلا أن تستدعي ذلك منك. وانظر إلى ما هو أَلطف في التأديب، وأنصف في التعليم، وابلغ بأوجز لفظ غاية التقويم.

وأيخرج تعليمه مُخْرَج المذاكرة والمحاضرة، لا يخرج التعليم والإفادة، لأن لتأخير التعلم خِجَلَة تقصير، يجلُّ السلطان عنها، فإن ظهر منه خطأ أو زلل، في قول أو عمل، لم يجاهره بالرد، وعرض باستدراك زلله، وإصلاح خَلِّه وحكي أن عبد الملك بن مروان. قال للشعبي كم عطاءك؟ قال: ألفين قال: لَحَنْتَ قال: لما ترك أمير المؤمنين الإعراب، كرهت أن أعرب كلامي عليه.

ثم ليحذر أتباعه فيما يجانب الدين، ويضاد الحق، موافقة لرأيه، ومتابعة لهواه، فربما زلت أقدام العلماء في ذلك، رغبة أو رهبة، فضلوا وأضلوا، مع سوء العاقبة، وقبح الآثار. وقد رَوَى الحسن البصري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال هذه

الأمة بخير تحت يد الله، وفي كنفه، ما لم يمالِ قَرَاؤُها أمراءُها، ولم يَزكْ صلحاؤها فجارها، ولم يمارِ أخيارها أشرارها؛ فإذا فعلوا ذلك، رفع عنهم يده، ثم سلط عليهم جبابرتهم، فساموهم سوء العذاب، وضرهم بالفاقة والفقر، وملأ قلوبهم رعباً». ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب، والقناعة بالميسور عن كد المطالب، فإن شبه المكتسب إثم، وكد الطالب ذل، والأجر أجدر به من الإثم، والعز أليق به من الذل.

وأنشدني بعض أهل الأدب لعلّي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى:

يقولون لي فبك أنقباضاً وإنما	رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من دانا هم هان عندهم	ومن أكرمتهم عزة النفس أكرمها
ولم أقض حق العلم إن كان كلما	بدا طمع صيرته لي سلباً
وما كل برق لاح لي يستفزني	ولا كل من لا قيت أرضاه مُنعماً
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى	ولكن نفس الحر تحتمل الظماً
أنهئها عن بعض مالا يشينها	مخافة أقوال العدا فيم أو لما؟
ولم أبذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لا قيت، لكن لأخدماً
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة	إذن فاتباع الجهل قد كان أحزماً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لعظماً
ولكن أهانوه فهان ودنسوا	محيّاه بالأطعام حتى تجهماً

على أن العلم عوض من كل لذة، ومغني عن كل شهوة، ومن كان صادق النية فيه، لم يكن له همة فيما يجد بداً منه. وقال بعض البلغاء: من تفرّد بالعلم، لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب، لم تفتته سلوة، ومن آنسه قراءة القرآن، لم توحشه مفارقة الإخوان. وقال بعض العلماء: لا سمير كالعلم، ولا ظهير كالعلم.

ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا، ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا، من غير أن يعتاضوا عليه عوضاً، ولا يلتمسوا عليه رزقاً؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ [البقرة: ٤١]. قال أبو العالية: لا تأخذوا عليه أجراً، وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا بن آدم علم مجاناً، كما علمت مجاناً.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أجر المعلم كأجر الصائم القائم». وحسب من هذا أجره أن يلتبس أجرا.

ومن آدابهم نصح من علموه، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم ومعاونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكركم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لعلومهم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لعليّ كرم الله وجهه: يا عليّ «لأنّ يهديّ الله بك رجلا، خير مما طلعت عليه الشمس».

ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما، ولا يُحقِّروا ناشئا، ولا يستصغروا مُبتدئا، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم: ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف». ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «وقروا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه».

ومن آدابهم ألاّ يمنعوا طالبا، ولا ينقروا راغبا، ولا يُؤيسُوا متعلما، لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزهد فيما لديهم، واستمرار ذلك مُفضٍ إلى انقراض العلم بانقراضهم. فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لم يُقْنِط الناسَ من رحمة الله تعالى، ولا يُؤيسهم من روح الله، ولا يدع القرآن، رغبة إلى ما سواه، ألا لا خيرَ في عبادة ليس فيها تفقه، ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر».

فهذه جملة كافية، والله ولي التوفيق.

باب أدب الدين

اعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما كَلَّفَ الخلقَ مُتَعَبِّدَاتِهِ ، وألزمهم مُفْتَرَضَاتِهِ ، وبعث إليهم رُسُلَهُ ، وشرع لهم دينه ؛ لغير حاجة دعته إلى تكليفهم ، ولا ضرورة قادتته إلى تعبدهم ، وإنما قصد نفعهم ، تفضلا منه عليهم ، كما تفضل بما لا يحصى عَدًّا من نعمه ، بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم ، لأن نفع ما سوى المتعبدات يختص بالدنيا العاجلة ، ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة ، وما جمع نفعي الدنيا والآخرة ، وكان أعظم نعمة ، وأكثر تفضلا .

وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع ، وشرع مسموع . فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل ، لأن الشرع لا يَرِدُ بما يمنع منه العقل ، والعقل لا يَتَّبِعُ فيما يمنع منه الشرع ؛ فلذلك توجه التكليف إلى من كَمُلَ عقله .

فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغهم رسالته ، وألزمهم حُجَّتَهُ ، وبين لهم شريعته ، وتلا عليهم كتابه ، فيما أحلَّه وحرَّمه ، وأباحه وحظَّره ، واستحبه وكرهه . وأمر به ونهى عنه ، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه ، وأوعد به من العقاب لمن عصاه ، فكان وعده ترغيبا ، ووعيده ترهيبا ، لأن الرغبة تبعث على الطاعة . والرغبة تكف عن المعصية ، والتكليف يجمع أمرا بطاعة ، ونهيا عن معصية ، ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرغبة ، وكان ما تَحَلَّلَ كتابه من قصص الأنبياء السالفة ، وأخبار القرون الخالية عظة ، واعتبارا ، تقوى معها الرغبة ، وتزداد بها الرهبة ، وكان ذلك من لطفه بنا ، وتفضله علينا ، فالحمد لله الذي نعمه لا تُحصى ، وشكره لا يُؤدَّى .

ثم جعل إلى رسوله ﷺ ، بيان ما كان جملا ، وتفسير ما كان مشكلا ، وتحقيق ما

كان محتتملا ، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومنزلة التفويض إليه . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ ، استنباط ما نبه على معانيه ، وأشار إلى أصوله ، ليتوصلوا بالاجتهاد فيه ، إلى علم المراد به ، فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

فصار الكتاب أصلا ، والسنة فرعا ، واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا . ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال : « القرآن أصل علم الشريعة ، نصه دليله ، والحكمة بيان رسول الله ﷺ ، والأمة المجتمعة حجة على من شذ عنها » .

وكان من رأفته بخلقه ، وتفضله على عباده ، أن أقدرهم على ما كلفهم ، ورفع الحرج عنهم فيما تعبّدهم ، ليكونوا مع ما قد أعده لهم ، ناهضين بفعل الطاعات ، ومجانبة المعاصي : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام : قسما أمرهم باعتقاده ، وقسما أمرهم بفعله ، وقسما أمرهم بالكف عنه ، ليكون اختلاف جهات التكليف ، أبعث على قبوله ، وأعون على فعله ، حكمة منه ولطفا ، وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين : قسما إثباتا ، وقسما نفيا . فأما الإثبات فإثبات توحيده وصفاته ، وإثبات بعثته رسله ، وتصديق محمد ﷺ ، فيما جاء به . وأما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبايح أجمع . وهذان القسمان أول ما كلفه العاقل . وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام : قسما على أبدانهم ، كالصلاة والصيام ، وقسما في أموالهم كالزكاة والكفارة : وقسما على أبدانهم وفي أموالهم ، كالحج والجهاد ، ليسهل عليهم فعله ، ويخف عنهم أداؤه ، نظرا منه تعالى لهم ، وتفضلا منه عليهم . وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام : قسما لإحياء نفوسهم ، وصلاح أبدانهم ، كنهيه عن القتل ، وأكل الخبائث ، وشرب الخمر المؤدية إلى فساد العقل .

وزواله . وقسماً لائتلافهم وإصلاح ذات بينهم، كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم، والسرف المفضي إلى القطيعة والبغضاء . وقسماً لحفظ أنسابهم، وتعظيم محارمهم، كنهيه عن الزنا، ونكاح ذوات المحارم، فكانت نعمته فيما حظره علينا، كنعمته فيما أباحه لنا، وتفضله فيما كفنا عنه، كتفضله فيما أمرنا به . فهل يجد العاقل في رويته مساعاً أن يقصر فيما أمر به، وهو نعمة عليه . أو يرى فسحة في ارتكاب ما نُهي عنه وهو تفضّل عليه ؟ وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فأهمّلها مع شدة فاقتة إليها، إلا مذموماً في العقل، مع ما جاء من وعيد الشرع .

ثم من لطفه بخلقه، وتفضله على عباده، أن جعل لهم من جنس كل فريضة نَفلاً، وجعل لهم من الثواب قِسْطاً، وندبهم إليه نَدْباً، وجعل لهم بالحسنة عشرة، ليضاعف ثواب فاعله، ويضع العقاب عن تاركه . ومن لطيف حكمته، أن جعل لكل عبادة حالين: حال كمال وحال جواز، رفقا منه بخلقه، لما سبق في علمه، أن فيهم العَجَل المبادر، والبطيء المتثاقل، ومن لا صبر له على أداء الأكمل، ليكون ما أُخِلَّ به من هيئات عبادته، غير قادح في فرض، ولا مانع من أجر، فكان ذلك من نعمه علينا، وحسن نظره إلينا .

فكان أول ما فُرِض بعد تصديق نبيه ﷺ عبادات الأبدان، وقد قدمها على ما يتعلق بالأموال، لأن النفوس على الأموال أشح، وبما يتعلق بالأبدان أسمح، وذلك الصلاة والصيام، فقدّم الصلاة على الصيام، لأن الصلاة أسهل فعلاً، وأيسر عملاً، وجعلها مشتملة على حضوع له، وابتهاال إليه، فالخضوع له رهبة منه، والابتهاال إليه رغبة فيه، ولذلك قال النبي ﷺ: « إذا قام احدكم إلى صلاته، فإنّما يناجي ربه، فلينظر بم يناجيهِ ؟ » وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة أصفرّ مرة، وأحمرّ أخرى، فقيل له في ذلك ؟ فقال: أتتني الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملتها ولا أدري: أسيء فيها أم أحسن .

ثم جعل لها شروطاً لازمة من رفع حدث، وإزالة نجس، ليستديم النظافة للقاء ربه، والطهارة لأداء فرضه، ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل، ليتدبر ما فيه، من أوامره

ونواهيته، ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه، ثم علقها بأوقات راتبته. وأزمان مترادفة، ليكون ترادف أزمانها، وتتابع أوقاتها، سبباً لاستدامة الخضوع له والابتهاال إليه. فلا تنقطع الرهبة منه، ولا الرغبة فيه، وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة، استدأام صلاح الخلق، وبحسب قوة الرغبة والرهبة، يكون استيفاءها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ: « الصلاة مِكيال، فمن وقَّى وقَّى له، ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله في المطفِّفين ». ورُوِيَ عن النبي ﷺ، أنه قال: « من هانت عليه صلاته، كان على الله عز وجل أهون ».

وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك:

أقبل على صلواتك الخمس	كم مصبح وعساء لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة	تمحو ذنوب صحيفة الأمس
فليفعَلن بوجهك الغض البلى	فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام، وقدمه على زكاة الأموال، لتعلق الصيام بالأبدان، وكان في إيجابه حتّ على رحمة الفقراء وإطعامهم، وسدّ جوعاتهم، لما عانَوْه من شدة المجاعة في صومهم. وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام: أتجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. ثم لما في الصوم من قهر النفس وإذلالها، وكسر الشهوة المستولية عليها، وإشعار النفس ما هي عليه من الحاجة إلى يسير الطعام والشراب، والمحتاج إلى الشيء ذليل به، وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه، فقال: ﴿ ما المسيحُ بن مريمَ إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسل ﴾ [المائدة: ٧٥] وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، فجعل احتياجهما إلى الطعام نقصاً فيهما عن أن يكونا إلهين. وقد وصف الحسن البصريّ رحمه الله تعالى نقص الإنسان بالطعام وغيره، فقال: مسكينٌ ابن آدم. محتوم الأجل، مكتوم الأمل، مستور العِلل، يتكلم بلحم وينظر بشحم، ويسمع بعظم، أسير جوعته، صريع شبعته، تؤذيه البقرة، وتُنسِنه العرقة، وتقتله الشرقة، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً. فانظر إلى لطفه بنا، فيما أوجبه من الصيام علينا، كيف أيقظ العقول له، وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة، ونفع النفوس به، ولم تكن لولاه

منتفعة ولا نافعة .

تم فرض زكاة الأموال، وقدمها على فرض الحج، لأن في الحج مع إنفاق المال سفرًا شاقًا، فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة، منها إلى الحج؛ فكان في إيجابها مواساة للفقراء، ومعونة لذوي الحاجات، تكفهم عن البغضاء، وتمنعهم من التقاطع، وتبعثهم على التواصل، لأن الآمل وصول، والراجي هائب، وإذا زال الأمل، وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة، وقعت البغضاء، واشتد الحسد، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والتغريير بالنفوس. هذا مع ما في أداء الزكاة من تمرين النفس على السباحة المحمودة، ومجانبة الشح المذموم، لأن السباحة تبعث على أداء الحقوق، والشح يصد عنها. وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدًا. وما صد عنها فأخلق به ذمًا. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « شر ما أعطى العبد شح هالع، وجبن خالع ». فسبحان من دبرنا بلطف حكيمته، وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته، حتى استوجب من الشكر بإخفائها، أعظم مما استوجبه بإبدائها.

تم فرض الحج، فكان آخر فروضه، لأنه يجمع عملا على بدن، وحقًا في مال، فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان، وفروض الأموال، ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين، ذريعة إلى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان في إيجابه تذكير ليوم الحشر، بمقارفة المال والأهل، وخضوع العزيز والذليل، في الوقوف بين يديه، واجتماع المطيع والعاصي، في الرهبة منه، والرغبة إليه، وإقلاع أهل المعاصي عما اجترحوه، وندم المذنبين على ما أسلفوه، فقل من حجّ إلّا وأحدث توبة من ذنب، وإقلاعا من معصية، ولذلك قال النبي ﷺ: « من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها ». وهذا صحيح، لأن الندم على الذنوب مانع من الإقدام عليها، والتوبة مكفرة لما سلف منها، فإذا كفّ عما كان يُقدّم عليه، أنبأ عن صحة توبته، وصحة التوبة تقتضي قبول حجته، ثم نبّه بما يعاني فيه من مشاق السفر المؤدّي إليه على موضع النعمة برفاهة الإقامة، وأنسّة الأوطان، ليحنو على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل.

ثم أعلم بمشاهدة حرّمه الذي أنشأ منه دينه، وبعث فيه رسوله ﷺ، ثم بمشاهدة دار

المجرة، التي أعزَّ الله بها أهل طاعته، وأذلَّ بنصرة نبيه محمد ﷺ أهل معصيته، حتى خضع له عظماء المتجبرين، وتذللَّ له زعماء المتكبرين، أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع، ولا قوى بعد الضعف البين، حتى طبَّق الأرض شرقاً وغرباً، إلَّا بمعجزة ظاهرة، ونصر عزيز.

فاعتبرْ أَلْهَمَكَ اللهُ الشكر، ووفقك للتقوى، إِنْعامه عليك فيما كلفك، وإِحسانه إليك، فيما تَعَبَّدَكَ فَقَدْ وَكَلْتُكَ إِلَى فِطْنَتِكَ، وَأَحْلَيْتُكَ عَلَى بَصِيرَتِكَ، بعد أن كُنْتُ لَكَ رائِداً صدوقاً، وناصحاً شفيقاً، هل تَحْسُنْ نهوضاً بسحره، إذا فعلت ما أمرك، وتقبلتَ ما كلفك، كلاًّ إنه لا يُؤَلِّيكُ نعمة توجب الشكر، إلَّا وصلها قبل شكر ما سلف، بنعمة توجب الشكر في المؤتَنَف. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: نعم الله أكثر من أن تشتري، إلَّا ما أعان عليه، وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر، إلَّا ما عفا عنه.

وأنشد لمنصور بن إسماعيل الفقيه البصري رحمه الله تعالى:

شَكَرُ الْإِلَهِ نِعْمَةٌ مُّوجِبَةٌ لِّشُكْرِهِ
فَكَيْفَ شُكْرِي بِرَّهِ وَشُكْرُهُ مِنْ بَرِّهِ

وإذا كنتَ عن شكره نعمه عاجزاً، فكيف بك إذا قصرتَ فيما أمرك، أو فرطت فيما كلفك، ونفعه أعودُ عليك لو فعلته، هل تكون لسوايغ نعمه إلَّا كَفُوراً، وببدائه العقول إلَّا مزجوراً، وقد قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]. قال مجاهد: أي يعرفون ما عَدَدَ اللهُ عليهم من نعمه، وينكرونها بقولهم إنهم ورثوها عن آبائهم، أو اكتسبوها بأفعالهم. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: يا بن آدم، ما أنصفتني أَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بالنعم، وتَمَقَّقْتَ إِلَيَّ بالمعاصي، خيري إليك نازل، وشركَ إليَّ صاعد، كم من مَلَكٍ كريم يصنَعِدُ إِلَيَّ مِنْكَ بعمل قبيح». وقال بعض صلحاء السلف: قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نُحْصِيهِ، مع كثرة ما نَعْصِيهِ، فلا ندري أَيُّها نشكر: أَجِيل ما ينشُرُ، أم قبيح ما يَسْتُرُ؟

فحقَّ على من عرف موقع النعمة، أن يقبلها ممتثلاً لما كَلَّفَ منها، وقبولها يكون بأدائها، ثم بشكر الله تعالى على ما أنعم به من إسداؤها، فإن بنا من الحاجة إلى نعمه،

أكثرَ مما كلفنا من شكر نعمه، فإن نحن أدّينا حقَّ النعمة في التكليف؛ تفضل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف، فلزمت النعمتان، ومن لزمته النعمتان، فقد أوتي حظ الدنيا والآخرة، وهذا هو السعيد على الإطلاق. وإن قصرنا في أداء ما كُلفنا من شكره، قَصَّرَ عنا مالا تكليف فيه من نعمته، فنفرت النعمتان: ومن نفرت عنه النعمتان، فقد سلب حظ الدنيا والآخرة، فلم يكن له في الحياة حظ، ولا في الموت راحة، وهذا هو الشقي بالاستحقاق، وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح، ولا عقل سليم. وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. وروى الأعمش عن مسلم قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، ما أشدَّ هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. فقال: يا أبا بكر إن المصيبة في الدنيا جزاء. واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١]، فقال بعضهم: أحد العذابين: الفضيحة في الدنيا، والثاني: عذاب القبر. وقال عبد الرحمن بن زيد: أحد العذابين: مصائبهم في الدنيا، وفي أموالهم وأولادهم، والثاني: عذاب الآخرة في النار.

وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش، أو أدركوا أمنية من الدنيا، كانت عليهم نعمة، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة. وروى ابن لُهيعة عن عُقبة بن مسلم، عن عُقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْعِبَادَ مَا يَشَاؤُونَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ إِيَّاهُ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَلَمَّا تَسَوَّأَ مَا ذَكَرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فأما المحرمات التي يمنع الشرع منها، واستقر التكليف عقلاً أو شرعاً بالنهي عنها، فتقسم قسمين: منها ما تكون النفوس داعية إليها، والشهوات باعثة عليها، كالسِّفَاح وشرب الخمر، فقد زجر الله عنها، لقوة الباعث عليها، وشدة الميل إليها، بنوعين من الزجر: أحدها: حدّ عاجل، يرتدع به الجري، والثاني: وعيد آجل يزدجر به التقى.

ومنها ما تكون النفوس نافرة منها، والشهوات مصروفة عنها، كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السُّموم المتلفات، فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده،

دون الحد ، لأن النفوس مستعدة في الزجر عنها ، والشهوات مصروفة عنها ، وعن ركوب المحظور منها .

ثم أكد الله زواجه بإنكار المنكرين لها ، فأوجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليكون الأمر بالمعروف تأكيداً لأوامره ، والنهي عن المنكر تأييداً لزواجه ، لأن النفوس الأثرة قد ألهتها الصبوة عن اتباع الأوامر . وأذهلتها الشهوات عن تذكر الزواجر ، فكان إنكار المجانسين أزجر لها ، وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها ، ولذلك قال النبي ﷺ : « ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا أعمهم الله بعذاب محتضر » .

وإذا كان ذلك ، فلا يخلو حال فاعلي المنكر من أمرين : أحدهما ، أن يكونوا آحاد متفرقين ، وأفراداً متبديدين ، لم يتحزبوا فيه ، ولم يتضافروا عليه ، وهم رعية مهجورون ، وأفذاذ مستضعفون ، فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، مع المكنة وظهور القدرة ، واجب على من شاهد ذلك من فاعليه ، وسمعه من قائله ؛ وإنما اختلفوا في وجوب ذلك على منكبيه ، هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع ، فذهب بعض المتكلمين إلى وجوب ذلك بالعقل ، لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح ، وجب أيضاً بالعقل أن يمنع غيره منه ، لأن ذلك أدعى إلى مجانبته ، وأبلغ في مفارقتها . وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قوماً ركبوا سفينة ، فاقتسموا ، فأخذ كل واحد منهم موضعاً ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ فقال : هو مكاني أصنع فيه ما شئت . فلم يأخذوا على يديه ، فهلك وهلكوا » وذهب آخرون إلى وجوب ذلك بالشرع دون العقل ، لأن العقل لو أوجب النهي عن المنكر ، ومنع غيره من القبيح ، لوجب مثله على الله تعالى ، ولما جاوز ورود الشرع بإقرار أهل الذمة على الكفر ، وترك النكير عليهم ، لأن واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشرع ، وفي ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لإنكاره . فأما إن لحق المنكر مضرّة من إنكاره ، ولم تلحقه من كفه وإقراره ، لم يجب عليه الإنكار بالعقل ولا بالشرع . أما العقل فلأنه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازئها نفع . وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « أنكر المنكر بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك . وذلك

أضعف الإيمان». فإن أراد الإقدام على الإنكار مع لحوق المضرة به، نَظَرَ؛ فإن لم يكن إظهار النكير بما يتعلق بإعزاز دين الله، ولا إظهار كلمة الحق، لم يجب عليه النكير، إذا خشي بغالب الظن تلفاً أو ضرراً، ولم يحسن منه النكير أيضاً، وإن كان في إظهار النكير إعزازُ دين الله تعالى، وإظهار كلمة الحق، حسن منه النكير، مع خشية الإضرار والتلف، وإن لم يجب عليه إذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وإن انتصر أو قتل. وعلى هذا الوجه قال النبي ﷺ: «إن من أفضل الأعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائر». فأما إذا كان يُقتل قبل حصول الغرض، قبح في العقل أن يتعرض لإنكاره، وكذلك لو كان الإنكار يزيد المنهي إغراء بفعل المنكر، ولجأً في الإكثار منه. قَبِحَ في العقل إنكاره.

والحالة الثانية: أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليه، وعُصْبَةٌ قد تحزبت ودعت إليه، فقد اختلف الناس في وجوب إنكاره على مذاهب شتى؛ فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار: لا يجب إنكاره، والأولى بالإنسان أن يكون كافاً مُمَسِّكاً، وملازماً لبيته وادعاً، غير مُنكَر ولا مُسْتَفِزٍّ، وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر: لا يجب إنكاره، ولا التعرض لإزالته، إلا أن يظهر المنتظر، فيتولى إنكاره بنفسه، ويكونوا حينئذ أعوانه. وقالت طائفة أخرى منهم الأصم: لا يجوز للناس إنكاره، إلا أن يجتمعوا على إمام عدل، فيجب عليهم الإنكار معه. وقال جمهور المتكلمين: إنكار ذلك واجب، والدفع عنه لازم، على شروطه، من وجود أعوان يصلحون له، فأما مع فقد الأعوان، فعلى الإنسان الكف، لأن الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض، وذلك قبيح في العقل أن يُتَعَرَّضَ له.

فهذا حكم ما أكد الله تعالى به أوامره، وأيد به زواجه، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يختلف من أحوال الآمرين به، والناهين عنه.

ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه، من فعل الطاعات، واجتناب المعاصي، من أربعة أحوال: فمنهم من يستجيب إلى فعل الطاعة، ويكف عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، فهذا يستحق جزاء العاملين، وثواب المطيعين. رَوَى محمد بن عبد الملك المدائني، عن نافع، عن ابن عمر

رضي الله عنها، قال: قال رسول الله ﷺ: «الذنب لا يُنسى، والبر لا يبلى، والبدن لا يموت، فكن كما شئت، وكما تدين ثدان». وقد قيل: كلَّ يَحْصُدُ ما يزرع، ويجز بما يصنع، بل قالوا: زرع يومك حصاد غدك.

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات، ويُقدِّم على ارتكاب المعاصي، وهي أخْبَثُ أحوال المكلفين، وشر صفات المتعبدین، فهذا يستحق عذابَ اللاهي عن فعل ما أمر به من طاعته، وعذاب المجترى على ما أقدم عليه من معاصيه، وقد قال ابن شُرْمَة: عَجِبْتُ لِمَن يَحْتَمِي مِنَ الطَّيِّبَاتِ خِيفَةَ الدَّاءِ، كَيْفَ لَا يَحْتَمِي مِنَ الْمَعَاصِي خِيفَةَ النَّارِ؟ فَأَخَذَ ذَلِكَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ:

جِسْمُكَ قَدْ أَفْنَيْتَهُ بِالْحِمَى دَهَوْرًا مِنَ الْبَارِدِ وَالْحَارِ
وَكَانَ أَوَّلَى بِكَ أَنْ تَحْتَمِيَ مِنَ الْمَعَاصِي حَذَرَ النَّارِ

وقال ابن ضُبَّارَة^(١): إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى، أهون من الصبر على عذاب الله تعالى. وقال آخر: اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه. وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنه: رضي الله عنك، فقال: كيف يرضى عني ولم أرضه.

ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات، ويُقدِّم على ارتكاب المعاصي، فهذا يستحق عذاب المجترى، لأنه تورط بغلبة الشهوة، على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أقلعوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله، فيدعكم هتًا بتًا» (المت: الكسر، والبت: القطع)، ولذلك قال بعض العلماء: أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، ولم تنزل الشهوة يقينه. وقال حماد بن زيد: عَجِبْتُ لِمَن يَحْتَمِي مِنَ الْأَطْعِمَةِ لِمَضَرَّاتِهَا، كَيْفَ لَا يَحْتَمِي مِنَ الذُّنُوبِ لِمَعَرَّاتِهَا. وقال بعض الصلحاء: أهل الذنوب مرضى القلوب. وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: ما أعجب الأشياء؟ فقال: قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه. وقال بعض الألباء: يَدِلُّ بالطاعة العاصي وينسى عظيم المعاصي. وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: أيُّ أحبُّ إليك؟ رجل قليل الذنوب، قليل العمل، أو رجل كثير الذنوب كثير العمل؟

(١) ضبارة بن عبد الله بن مالك بن أبي السليك الحضرمي الشامي، وثقه ابن حبان (التاج).

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا أعدل بالسلامة شيئاً . وقيل لبعض الزهاد : ما تقول في صلاة الليل ؟ فقال خف الله بالنهار ، ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلاً يقول لقوم : أهلككم النوم . فقال : بل أهلكتكم اليقظة . وقيل لأبي هريرة رضي الله عنه : ما التقوى ؟ فقال : أجُزّت في أرض فيها شوك ؟ فقال : نعم . فقال : كيف كنت تصنع ؟ فقال : كنت أتوقى . قال : فتوق الخطايا . وقال عبد الله بن المبارك :

أَيُضْمَنُ لِي فَتَى تَرَكَ الْمَعَاصِي وَأَرْهَنَهُ الْكَفَالَةَ بِالْخُلَاصِ
أَطَاعَ اللَّهَ قَوْمٌ فَاسْتَرَحَوْا وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا غُصَصَ الْمَعَاصِي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ، ويكفّ عن ارتكاب المعاصي ، فهذا يستحق عذاب اللاهي عن دينه ، المنذر بقلّة يقينه . وروى أبو إدريس الخولاني ، عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : أنه قال : كانت صُحُف موسى على نبينا وعليه السلام كلها عبراً : عجت لمن أيقن بالنار ثم يضحك ، وعجت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب ، وعجت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم يطمئن إليها ، وعجت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ، وعجت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل . وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « اجتهدوا في العمل ، فإن قصّر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي » . وهذا واضح المعنى ؛ لأن الكف عن المعاصي ترك ، وهو أسهل ، وعمل الطاعات فعل ، وهو أثقل ؛ ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ، ولا بغير عذر ، لأنه ترك ، والترك لا يعجز المعذور عنه ، وإنما أباح ترك الأعمال بالأعذار ، لأن العمل قد يُعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله : رحم الله امرأ كان قوياً ، فأعمل قوّته في طاعة الله تعالى ، أو كان ضعيفاً فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى :-

العمر ينقُص والذنوب تزيد وتُقال عَثَرَاتُ الْفَتَى فَيَعُودُ
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهودُ
والمرء يُسأل عن سنّيه فيشتهي تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لأعمال الطاعة ، ومجانبة المعاصي آفتين : إحداها تَكْسِبُ الوزر ، والأخرى توهن الأجر .

فأما المكسبة للوزر، فإعجاب بما أسلف من عمله وقدم من طاعته، لأن الإعجاب به يفضي إلى حالتين مذمومتين: إحداهما أن المُعْجَب بعمله مُمتنّ به، والممتنّ على الله تعالى حامد لنعمه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله تعالى إلى نبيّ من أنبيائه: أما زهدك في الدنيا، فقد استعجلت به الراحة؛ وأما انقطاعك إليّ فهو عز لك، فهذان لك، وبقيت أنا. والثانية: أن المعجب بعمله مُدِلّ به، والمدلّ بعمله مجترىء، والمجترىء على الله عاص. وقال مؤرق العجليّ: خير من العُجْب بالطاعة، ألا تأتي بطاعة. وقال بعض السلف: ضاحك معترف بذنبه، خير من باك مدلّ على ذنبه، وباك نادم على ذنبه، خير من ضاحك معترف بلهوه.

وأما الموهنة للأجر، فالثقة بما أسلف، والركون إلى ما قدّم، لأن الثقة تؤول إلى أمرين: أحدهما يحدث اتكالا على ما مضى، وتقصيراً فيما يستقبل، ومن قَصَّر واتكل لم يرج أجراً، ولم يؤدّ شكراً، والثاني أن الواثق آمن، والآمن من الله تعالى غير خائف، ومن لم يتخف الله تعالى هانت عليه أوامره، وسهلت عليه زواجه. وقال الفضيل بن عياض: رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى. وقال مؤرق العجليّ: لأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحب إليّ من أن أبيت قائماً، وأصبح ناعماً. وقال الحكماء: ما بينك وبين ألا يكون فيك خير، إلا أن ترى أن فيك خيراً. وقيل لرابعة العدوية رحها الله: هل عملت عملاً قط ترين أنه يُقبل منك؟ قالت: إن كان شيء فخوفي من أن يردّ عليّ عملي. وقال ابن السماك رحمة الله عليه: إنا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر! وإنا لله فيما بقي ما أقل فيه الحذر! وحكي أن بعض الزهاد وقف على جمع، فنادى بأعلى صوته: يا معشر الأغنياء، لكم أقول: استكثروا من الحسنات، فإن ذنوبكم كثيرة، يا معشر الفقراء، لكم أقول: أقلوا من الذنوب، فإن حسناتكم قليلة.

فينبغي - أحسن الله إليك بالتوفيق - ألا تضع صحة جسمك، وفراغ وقتك، بالتقصير في طاعة ربك، والثقة بسالف عملك، فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك، والعمل فرصة فراغك، فليس كل الزمان مستعداً، ولا ما فات مستدركاً، وللِفراغ زين أو ندم، وللخلوة ميل أو أسف. وقال عمر بن الخطاب: الراحة للرجال غفلة، وللنساء غلّة. وقال بُزْجَمِيْهُر: إن يكن الشغل مَجْهدة، فالِفراغ مَفْسدة. وقال بعض

الحكماء: إياكم والخلوات، فإنها تفسد العقول، وتعقّد المحلول. وقال بعض البلغاء: لا تمض يومك في غير منفعة، ولا تضع مالك في غير صنعة، فالعمر أقصر من أن ينفذ في غير المنافع، والمال أقل من أن يصرف في غير الصنائع، والعاقل أجل من أن يُفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره. وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم، على نبينا وعليه السلام: البر ثلاثة: المنطق والنظر والصمت، فمن كان منطقاً في غير ذكر فقد لغأ، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها.

واعلم أن للإنسان فيما كُلف من عباداته ثلاث أحوال: إحداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها، ولا زيادة عليها. والثانية أن يقصر فيها. والثالثة أن يزيد عليها.

فأما الحال الأولى: فهي أن يأتي بها على حال الكمال، من غير تقصير فيها، ولا زيادة تطوّع على راتبها، فهي أوسط الأحوال وأعدلها، لأنه لم يكن منه تقصير فيدم، ولا تكثير فيعجز. وقد روى سعيد بن أبي سعيد^(١) رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «سددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدلجة» وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

وأما الحال الثانية: وهو أن يقصر فيها، فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال:

إحداها: أن يكون لعذر أعجزه عنه، أو مرض أضعفه عن أداء ما كُلف به، فهذا يخرج عن حكم المقصرين، ويلحق بأحوال العاملين، لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز. وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عامل كان يعمل عملاً فيقطعه عنه مرض، إلا وكلّ الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله». والحال الثانية: أن يكون تقصيره فيه اغترار بالمساحة فيه، ورجاء العفو عنه، فهذا مخدوع العقل، مغرور بالجهل، فقد جعل الظنّ دُخْرًا، والرجاء عُدّة، فهو كمن قطع سفرًا بغير زاد، ظناً بأنه سيجده في المفاوز الجذبة، فيفضي به الظن إلى الهلكة، وهلاً كان الحذر أغلب عليه، وقد الله تعالى ندب إليه.

(١) هو سعيد بن كيسان المقبري المدني، توفي سنة ١٢٥ هـ.

وحكي أن إسرائيل بن محمد القاضي قال: لقيني مجنون كان في الخربات، فقال: يا إسرائيل خَفِ الله خوفاً يشغلك عن الرجاء، فإن الرجاء يشغلك عن الخوف، وفرّ إلى الله، ولا تَفِرْ منه. وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله: ألا تبكي؟ فقال تلك حِلْيَة الآمنين.

وحُكي أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان: أين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب كتبه إليّ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه:

«أما بعد، فإن الإنسان ليسره دَرَك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه، فلا تكن بما نِلته من دنياك فرحاً، ولا لما فاتك منها ترحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، فكأن قدّ. والسلام.

وقال محمود الوراق رحمه الله:

أخاف على المحسن المتَّقِي	وأرجو لذي الهفوات المُسِي
فذلك خوفي على مُحْسِن	فكيف على الظالم المعتدي؟
على أن ذا الزيغ قد يستفيق	ويستأنف الزيغ قلب التقي

والحال الثالثة: أن يكون تقصيره فيه، ليستوفي ما أخل به من بعد، فيبدأ بالسيئة في التقصير، قبل الحسنة في الاستيفاء، اغتراراً بالأمل في إهماله، ورجاء لتلافي ما أسلف من تقصيره وإخلاله، فلا ينتهي به الأمل إلى غاية، ولا يُفْضي به إلى نهاية، لأن الأمل هو في ثاني حال، كهو في أول حال. فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «من يُؤمِّل أن يعيش غداً، فإنه يؤمِّل أن يعيش أبداً». ولعمري، إن هذا صحيح، لأن لكل يوم غداً، فإذا نُفِضي به الأمل إلى الفوت من غير دَرَك، ويؤديه الرجاء إلى الإهمال من غير تَلاَف، فيصير الأمل خيبة، والرجاء يأساً. وقد رَوَى عمرو بن سعيد، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ قال: «أولُ صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين، وفسادها بالبخل والأمل». وقال الحسن البصري رحمه الله: ما أطال عبد الأمل، إلا أساء العمل. وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة: ألك حاجة ببغداد؟ قال:

ما أحبّ أن أبسط أمني إلى أن تذهب إلى بغداد وتجيء . وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله ، والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء : الأمل كالسراب ، غرّ من رآه ، وخاب من رجاه . وقال محمد بن يزدان : دخلت على المأمون ، وكنت يومئذ وزيره ، فرأيت قائماً وبيده رقعة ، فقال : يا محمد ، أقرأت ما فيها ، فقلت : هي في يد أمير المؤمنين ، فرمى بها إليّ ، فإذا فيها مكتوب :

إنك في دار لها مُدَّة يُقبَل فيها عملُ العاملِ
أما ترى الموتَ محيطاً بها يقطعُ فيها أملُ الآمِلِ ؟
تَعَجَّل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قَابلِ
والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقلِ

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى : هذا من أحكم شعر قرأته وقال أبو حازم الأعرج : نحن لا نريد أن نموت حتى ن்தوب ، ونحن لا ن்தوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء : زائد الإمهال ، رائد الإهمال .

والحال الرابعة : أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء ، وزهداً في التمام ، واقتصاراً على ما ستح ، وقلة اكتراث بما بقي ، فهذا على ثلاثة أضرب :

أحدها : أن يكون ما أخلَّ به ، وقصّر فيه ، غيرَ قادح في فرض ، ولا مانع من عبادة ، كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها ، وعمل مفترضاتها ، وأخلَّ بمسئولاتها وهيئاتها ، فهذا مسيء فيما ترك ، إساءة من لا يستحق وعيداً ، ولا يستوجب عقاباً ، لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب ، وإخلاله بالمسئول يمنع من إكمال الثواب . وقد قال بعض الحكماء : من تهاون بالدين هان ، ومن غالب الحق لان . وقال الشاعر :

ويصونُ تَوْبَتَهُ ويت رُكُّ غير ذلك لا يَصُونُهُ
وأحقُّ ما صان الفتى ورعى أمانتَهُ ودينُهُ

والضرب الثاني : أن يكون ما أخلَّ به من مفروض عبادته ، لكن لا يقدر ترك ما بقي فيما مضى ، كمن أكمل عبادات ، وأخل بغيرها ، فهذا أسوأ حالاً ممن تقدمه ، لما استحقه من الوعيد ، واستوجبه من العقاب .

والضرب الثالث : أن يكون ما أخلّ به من مفروض عبادته ، وهو قادح فيما عمل منها ، كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض ، فيكون المقصر في بعضها ، تاركاً لجميعها ، فلا يحتسب له ما عمل ، لإخلاله بما بقي ، فهذا أسوأ أحوال المقصرين ، وحاله لاحقة بأحوال التاركين ، بل قد تكلف مالا يُسقط فرضاً ، ولا يؤدّي حقاً ، فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد ، وزاد عليهم في تكلف ما لا يفيد ، فصار من الأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ثم لعله لا يفتن لشأنه ، ولا يشعر بخسرانه ، وقد خسر الدنيا والآخرة ، ويفتن ليسير من ماله إن وهى واختل .
وأنشدني بعض أهل العلم :

أبنيّ إن من الرجال بهيمةٌ في صورة الرجل السميع المبصر
فطين بكل مصيبة في ماله وإذا يصابُ بدينه لم يشعر
وأما الحال الثالثة ، وهو أن يزيد فيما كلف ، فهذه على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون الزيادة رياء للناظرين ، وتصنعاً للمخلوقين ، حتى يستعطف به القلوب النافرة ، ويخدع به العقول الواهية ، فيتبهرج بالصّلحاء وليس منهم ، ويتدلّس في الأخيار وهو ضدهم ، وقد ضرب رسول الله ﷺ للمرائي بعمله مثلاً ، فقال : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور » : يريد بالمتشبع بما لا يملك : المتزيّن بما ليس فيه ، وقوله كلابس ثوبي زور : هو الذي يلبس ثياب الصّلحاء ، فهو بريئه محروم الأجر ، مذموم الذكر ، لأنه لم يقصد وجه الله تعالى ، فيؤجّر عليه ، ولا يخفي رباؤه على الناس ، فيحمد به . قال الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] : قال جميع أهل التأويل : معنى قوله : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] أي لا يرائي بعمله أحداً ، فجعل الرياء شركاً ، لأنه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى ، مقصوداً به غير الله تعالى . وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى ، في قوله تعالى : ﴿ ولا تجهرُ بصلاتك ، ولا تخافُ بها ﴾ [الإسراء : ١١٠] قال : لا تجهر بها رياء ، ولا تخافت بها حياء . وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأوّل قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ﴾ [النحل : ٩٠] : أن العدل استواء السريرة ،

والعلانية في العمل لله تعالى والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته. وكان غيره يقول: العدل شهادة أن لا إله إلا الله. والإحسان: الصبر على أمره ونهيه، وطاعة الله في سره وجهره. وإيتاء ذي القربى وصلة الأرحام وينهى عن الفحشاء: يعني الزنا والمنكر: القبائح. والبغي: الكبر والظلم. وليس يخرج الرياء بالأعمال من هذا التأويل أيضاً، لأنه من جملة القبائح. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي، الرياء الظاهر، والشهوة الخفية» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة، من يرى أن فيه خيراً ولا خير فيه». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تعمل شيئاً من الخير رياء، ولا تتركه حياء. وقال بعض العلماء: كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى، فعلتها قبج الرياء، وثمرتها سوء الجزاء. وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به، كما حكى أن طاهر بن الحسين، قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق، يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم. فقال: يا أبا عبد الله، سألتك عن مسألة، فأجبت عن مسألتين! وحكى الأصمعي رحمه الله: أن أعرابياً صلى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك. فقال: وأنا مع ذلك صائم فقال أعرابي كان فيهم:

صَلَّى فَأَعْجِبَنِي، وَصَامَ فَرَاتَنِي نَحَّ الْقُلُوصَ عَنِ الْمَصْلِيِّ الصَّائِمِ

فانظر إلى هذا الرياء مع قبجه، ما أدله على سخف عقل صاحبه. وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه، على الاستهزاء بنفسه، كالذي حكى أن زاهداً نظر إلى رجل في وجهه سَجَادَة كبيرة، واقفاً على باب السلطان، فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا؟ فقال: إنه ضرب على غير السكة. وهذا من أجوبة الخلاعة، التي يُدْفَع بها تهجين المذمة. ولقد استحسّن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خَفَّفَ صلاته مرة. فقال بعض أهل المسجد: خَفَّفْتَ صلاتك جداً؟ فقال: إنه لم يخالطها رياء. فتخلص من تنقيصهم بنفي الرياء عن نفسه، ورفع التصنع في صلاته، وقد كان الإنكار لولا ذلك متوجهاً عليه، واللوم لاحقاً به.

ومرّ أبو أمامة ببعض المساجد، فإذا رجل يصلي وهو يبكي. فقال له: أنت أنت

لو كان هذا في بيتك ، فلم ير ذلك منه حسناً ، لأنه اتهمه بالرياء ، ولعله كان بريئاً منه ، فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته ، وأشهر سياته ، مع أنه آثم فيما عمل ، أنتم من هبوب النسيم بما حمل ، ولذلك قال عبد الله بن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد . وربما أحسن ذو الفضل من نفسه ميلاً إلى المراءاة ، فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراءاة ، فكان ذلك أبلغ في فضله . كالذي حُكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه أحسن على المنبر بريح خرجت منه ، فقال : يا أيها الناس ، إني قد ميّلت بين أن أخافكم في الله تعالى ، وبين أن أخاف الله فيكم ، فكان أن أخاف الله فيكم أحب إليّ ، ألا وإني قد فسوت وها أنا نازل أعيد الوضوء ، فكان ذلك منه زجراً لنفسه ، لتكف عن نزاعها إلى مثله .

وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : عِظْني . فقال : لا أَرْضى نفسي لك واعظاً ، لأني أجلس بين الغني والفقير . فأميل على الفقير ، وأوسع للغني ، ولأن طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره . وحُكي أن قوماً أرادوا سفراً . فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب ، فقالوا : قد ضلّلنا ، فكيف الطريق ؟ فقال : ههنا ، وأوماً بيده إلى السماء .

والقسم الثاني : أن يفعل الزيادة اقتداءً بغيره ، وهذا قد تُثَمِّره مجالسة الأخيار الأفاضل ، وتحذره مكاثرة الأتقياء الأماثل . ولذلك قال النبي ﷺ : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالل » : فإذا كاثرهم المجالس ، وطاولهم المؤانس ، أحب أن يقتدي بهم في أفعالهم ، ويتأسى بهم في أعمالهم ، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ، ولا أن يكون في الخير دونهم ، فتبعته المنافسة على مساواتهم ، وربما دعت الحمية إلى الزيادة عليهم ، والمكاثرة لهم ، فيصبرون سبباً لسعادته ، وباعثاً على استزادته ، والعرب تقول : لولا الوثام ، هلك الأنام ، أي لولا أن الناس يرى بعضهم بعضاً ، فيقتدي بهم في الخير ، هلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء : من خير الاختيار : صحبة الأخيار ، ومن شر الاختيار ، مودة الأشرار ، وهذا صحيح ؛ لأن للمصاحبة تأثيراً في اكتساب الأخلاق ، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح ، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر :

رَأَيْتُ صَلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمْ دَاءُ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ
يُعْظَمُ فِي الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَلَاحِهِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
وَأُنْشِدُنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ، لِأَبِي بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيِّ:

لَا تَصْحَبِ الْكِسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ كَمْ صَالِحٍ بِفُسَادٍ آخِرٍ يَفْسُدُ
عَدَوَى الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةً وَالْجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمَدُ

والقسم الثالث: أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه، التماساً لثوابها، ورغبة في الزلفة بها، فهذا من نتائج النفس الزاكية، ورواعي الرغبة الوافية، الدالّين على خلوص الدين، وصحة اليقين، وذلك أفضل أحوال العاملين، وأعلى منازل العابدين، وقد قيل: الناس في الخير أربعة: منهم من يفعله ابتداء، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه استحساناً، ومنهم من يتركه حرماناً. فمن فعله ابتداء فهو كريم، ومن فعله اقتداء فهو حكيم، ومن تركه استحساناً فهو رديء، ومن تركه حرماناً فهو شقيّ.

ثم لما يفعله من الزيادة حالتان:

إحداها: أن يكون مقتصداً فيها، وقادراً على الدوام عليها، فهي أفضل الحالتين، وأعلى المنزلتين، عليها انقراض أخيار السلف، وتتبعهم فيها فضلاء الخلف، وقد روت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب، حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه». والعرب تقول: القصد والدوام وأنت السابق الجواد؛ ولأن من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى، لم يكن له مسرة إلا في طاعته. وقال عبدالله بن المبارك: قلت لراهب: متى عيدكم؟ قال: كل يوم لا أعصي الله فيه، فهو يوم عيد. انظر إلى هذا القوم منه، وإن لم يكن من مقاصد الطاعة، ما أبلغه في حب الطاعة، وأحثة على بذل الاستطاعة!

وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة، فقيل: لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة، والناس متزينون؟ فقال، ما يَتَزَيَّنُ لله تعالى بمثل طاعته.

والحالة الثانية: أن يستكثر منها استكثاراً من لا ينهض بدوامها، ولا يقدر على اتصالها، فهذا ربما كان بالمقصر أشبه، لأن الاستكثار من الزيادة: إما أن يمنع من أداء

اللازم، فلا يكون إلا تقصيراً، لأنه تطوّع بزيادة أحدثت نقصاً، وينفّل منع فرضاً، وإمّا أن يعجز عن استدامة الزيادة، ويمنع من ملازمة الاستكثار، من غير إخلال بلازم، ولا تقصير في فرض، فهي إذن قصيرة المدى، قليلة اللّبث، والقليل العمل في طويل الزمان، أفضل عند الله عزّ وجلّ من كثير العمل في قليل الزمان، لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير، قد يعمل زماناً، ويترك زماناً، فرمما صار في زمان تركه لاهياً أو ساهياً، والمقلّل في الزمان الطويل، مستيقظ الأفكار، مستديم التذكّار. وقد رَوَى أبو صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للإسلام شِرةً، وللشِرة فترة، فمن سدّد وقاربَ فارْجُوه، ومن أشيرَ إليه بالأصابع فلا تعدّوه» فجعل للإسلام شِرةً، وهي الإيغال في الإكثار، وجعل للشِرة فترة، وهي الإهمال بعد الاستكثار، فلم يخلُ بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيراً أو إخلالاً، ولا خير في واحد منها.

واعلم جعل الله العلمَ حاكماً لك وعليك، والحقّ قائداً لك وإليك، وأن الدنيا إذا وصلت فتبعات موبقة، وإذا فارقت ففجعات مُحْرِقة وليس لوصلها دوام، ولا من فراقها بدّ، فَرَضْ نفسك على قَطيعتها، لتسلم من تَبِعاتها، وعلى فِراقها، لتأمن فجعاتها، فقد قيل: المرء مقترض من عمره المنقرض، مع أن العمر وإن طال قصير. والفراغ وإن تم سير.

وأنشِدْ لعلّي بن محمد رحمه الله تعالى:

إذا كَمَلْتُ للمرء ستون حِجَّةً	فلم يحظَ من ستينَ إلا بسُدْسِها
ألم تر أنّ النصف بالليل حاصلٌ	وتذهبُ أوقاتُ المَقِيلِ بِخُمسِها
فتأخذُ أوقاتُ الهموم بِمحصّةٍ	وأوقاتُ أوجاعٍ تُميتُ بِمِسّها
فحاصل ما يبقى له سُدُسُ عُمُرِهِ	إذا صدّقته النفس عن عَلمِ حَدْسِها

ورياضة نفسك لذلك تترتّب على أحوال ثلاث، وكل حالة منها تشعّب، وهي

لتسهيل ما يليها سبب:

فالحالة الأولى: أن تصرف حُبّ الدنيا عن قلبك، فإنها تُلهيك عن آخرتك، ولا تجعل سعيك لها، فتمنعك - طَـك منها، وتوقّ الركون إليها، ولا تكن آمناً لها: فقد

رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « مَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا، وَرَكَنَ إِلَيْهَا، التَّاطَتْ مِنْهَا بِشْغَلٍ لَا يَفْرُغُ عَنْهُ، وَأَمَلٌ لَا يَبْلُغُ مَنْتَهَاهُ، وَحِرْصٌ لَا يُدْرِكُ مَدَاهُ ». وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ: الدُّنْيَا لِإِبْلِيسَ مَزْرَعَةٌ، وَأَهْلُهَا لَهُ حُرَّاثٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيْتَنَ مَسَّهَا، قَاتَلَ سَمَّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا أَعْجَبَكَ مِنْهَا، لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيقَنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا، وَكُنْ أَحْذَرُ مَا تَكُونُ لَهَا، وَأَنْتَ آتِسُ مَا تَكُونُ بِهَا، فَإِنْ صَاحِبَهَا كَلِمًا أَطْمَأَنَّ مِنْهَا إِلَى سُرُورٍ، أَشْخَصَهُ عَنْهَا مَكْرُوهٌ، وَإِنْ سَكَنَ مِنْهَا إِلَى إِيْنَاسٍ، أَزَالَهُ عَنْهَا إِيجَاشٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: الدُّنْيَا لَا تَصْفُو لَشَارِبٍ، وَلَا تَبْقَى لِصَاحِبٍ، وَلَا تَخْلُو مِنْ فِتْنَةٍ، وَلَا تُخْلِي مِنْ مِحنةٍ، فَأَعْرِضْ عَنْهَا، قَبْلَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْكَ، وَاسْتَبْدِلْ بِهَا، قَبْلَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِكَ، فَإِنْ نَعِمَ بِهَا يَتَنَقَّلُ، وَأَحْوَالُهَا تَتَبَدَّلُ، وَلَذَاتُهَا تَفْنَى، وَتَبِعَاتُهَا تَبْقَى. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: انْظُرْ إِلَى الدُّنْيَا نَظْرَ الزَّاهِدِ الْمَفَارِقِ لَهَا، وَلَا تَتَأَمَّلْهَا تَأَمَّلَ الْعَاشِقِ الْوَاقِقِ بِهَا.

وقال بعض الشعراء:

ألا إنَّما الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ وما خَيْرُ عِشٍّ لَا يَكُونُ بِدَائِمٍ
تَأْمَلُ إِذَا مَا نَلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً فأفْنيتها هل أنتِ إِلَّا كِجَامٍ
فَكَمْ غَافِلٍ عَنْهُ وَلَيْسَ بِغَافِلٍ وَكَمْ نَائِمٍ عَنْهُ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « مَنْ هَوَانَ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا. وَرَوَى سَفِيَانُ أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُوسَى، أَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا وَابْذُهَا وَرَاءَكَ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ بَدَارٌ، وَلَا فِيهَا مَحَلٌّ لِقَرَارٍ، وَإِنَّمَا جَعَلَتِ الدُّنْيَا لِلْعِبَادِ، لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا لِلْمَعَادِ. وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ، فَأَعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ يَصِفُ الدُّنْيَا: أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ؛ حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ؛ مَنْ صَحَّ فِيهَا أَمْنٌ، وَمَنْ مَرَضَ فِيهَا نَدَمٌ، وَمَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فَنٌ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنٌ، وَمَنْ سَاعَاها فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا أَتَتْهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا أَعَمَّتْهُ، وَمَنْ نَظَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: إِنْ الدُّنْيَا تَقْبَلُ إِقْبَالَ الطَّالِبِ، وَتَدْبِرُ إِدْبَارَ الْهَارِبِ، وَتَصِلُ وَصَالَ الْمَلُولِ، وَتَفَارِقُ فِرَاقَ الْعَجُولِ، فَخَيْرُهَا يَسِيرٌ، وَعِيشُهَا قَصِيرٌ، وَإِقْبَالُهَا خَدِيعَةٌ، وَلَذَاتُهَا فَانِيَةٌ، وَتَبِعَاتُهَا بَاقِيَةٌ، فَاعْتَمِ

عَفْوَةُ الزَّمانِ، وانتَهزَ فُرْصَةَ الإمكانِ، وخذَ منَ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ، وتزوّدَ منَ يومِكَ
لِغَدِكَ. وقالَ وهبُ بنُ منبِهٍ. مَثَلُ الدُّنيا والآخِرَةِ مَثَلُ ضَرَّتَيْنِ: إنْ أَرْضَيْتَ إِحْداهُما؛
أَسْخَطْتَ الأُخرى. وقالَ عبدُ الحميد^(١): الدُّنيا منازلٌ، فراحِلٌ ونازِلٌ. وقالَ بعضُ
الحِكماءِ. الدُّنيا إمَّا نِعمَةٌ نازِلَةٌ، وإمَّا نِعمَةٌ زائِلَةٌ. وقيلَ في مَثُورِ الحِكمِ: منَ الدُّنيا على
الدُّنيا دَليلٌ. وقالَ الشَّاعِرُ:

تَمَتَّعَ مِنَ الأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ حَازِماً فَإِنَّكَ مِنْهَا بَيْنَ نَاحٍ وَأَمْرٍ
إِذَا أَبَقْتَ الدُّنْيَا عَلَى المَرءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ
فَلَنْ تَعْدِلَ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَا وَزْنَ ذَرٍّ مِنْ جَنَاحِ لُطَائِرٍ
فَمَا رَضِيَ الدُّنْيَا ثَوَاباً لِمُؤْمِنٍ وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا جِزَاءً لِكَافِرٍ

ورَوَى عنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «الدُّنْيَا يَوْمَانِ: يَوْمٌ فَرَحٌ، وَيَوْمٌ هَمٌّ، وَكِلاهُما زائلٌ
عَنكَ، فَدَعُوا ما يَزُولُ، وَأَتَعِبُوا نَفُوسَكُم في العَمَلِ لِمَا لا يَزُولُ». وقالَ عيسى بنُ مَرِيَمَ
عليه السَّلامُ: لا تُتَنَازَعُوا أَهْلَ الدُّنيا في دُنْيائِهِم، فَيُتَنَازَعُوكُم في دِينِكُم، فلا دُنْيائِهِم
أَصَبُّمُ، ولا دِينُكُم أَبْقِيَمُ. وقالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ: لا تَسْكُنْ مَنْ يَقولُ في الدُّنيا يَقولُ
الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيها عَمَلَ الرَّاغِبِينَ، فَإِنَّ أُعْطِيَ مِنْها لَمْ يَشْبَعْ. وَإِنْ مُنِعَ مِنْها لَمْ يَقْنَعْ،
يَعْجِزُ عَنِ شُكْرِ ما أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيادَةَ فيما بَقِيَ، وَيُنْهَى النَّاسَ ولا يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ بما
لا يَأْتِي، يَحِبُّ الصَّالِحِينَ ولا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِم، وَيُبْغِضُ الطَّالِحِينَ وَهُوَ مِنْهُمْ. وقالَ الحَسَنُ
البَصْرِيُّ: الدُّنيا كُلُّها غَمٌّ، فَمَا كانَ مِنْها مِنْ سُرورٍ فَهُوَ رُبْحٌ. وقالَ بعضُ العُلَماءِ: إِنْ
الدُّنيا كَثِيرَةُ التَّغْيِيرِ، سَريعَةُ التَّنْكِيرِ، شَدِيدَةُ المَكْرِ، دائِمَةُ العَدْرِ، فَاقطَعِ أسبابَ الهَوَى
عَنِ قَلْبِكَ، واجْعَلْ أَبْعَدَ أَملِكَ بَقِيَّةَ يَوْمِكَ، وَكُنْ كَأَنَّكَ تَرى ثَوابَ أَعْمالكِ. وقالَ
بعضُ الحِكماءِ: الدُّنيا إمَّا مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ، وإمَّا مَنِيَّةٌ مُفْجِعَةٌ. وقالَ الشَّاعِرُ:

خَلَّ دُنْيَاكَ إِنَّها يَعْقُبُ الخَيْرَ شَرُّها
هِيَ أُمَّ تَعُوقُ مِنْ نَسْلِها مَنْ يَبَرُّها
كُلَّ نَفْسٍ فَإِنَّها تَبْتَغِي ما يَسُرُّها
وَالْمَنائِيا تَسوِّقُها وَالْأَماني تَغُرُّها

(١) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري الكاتب.

فإذا استَحَلَّتِ الْجَنَى أعقَبَ الخَلْوَ مُرُّهَا
يستوي في ضريحه عبدُ أرضٍ وحُرُّهَا

فإذا رُضَّتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفت، اعتضت منها بثلاث خلال:
إحداهنَّ: أن تُكْفَى إشفاقَ المُحِبِّ، وحَذَرَ الوامق، فليس لمشفقٍ ثقة، ولا لحاذر
راحة.

والثانية: أن تأمن الاغترارَ بملاهيها، فتسلم من عادية دواهيها، فإن اللاهيَ بها
مغرور، والمغرور فيها مذعور.

والثالثة: أن تستريح من تعب السعي لها، ووَصَبِ الكدِّ فيها، فإن من أحبَّ شيئاً
طلبه، ومن طلب شيئاً كَدَّ له، والمكدود فيها شقيٌّ إن ظفر، ومحروم إن خاب.
وروي عن النبي ﷺ أنه قال لكعب: يا كعب، الناس غاديان، فمُبْتَاعٌ نفسه
فَمُعْتَقُهَا، وبائعٌ نفسه فَمُوبِقُهَا. وقال عيسى بن مريم عليها السلام: تعملون للدنيا وأنتم
تُرْزَقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرْزَقون فيها إلا بعمل. وقال
بعض البلغاء: مَنْ نَكِدَ الدنيا أَلَا تَبْقَى على حالة، ولا تخلو من استحالة، تُصْلِحُ جانباً
يُفْسِدُ جانب، وتسُرُّ صاحباً بمساءة صاحب؛ فالركون إليها خطر، والثقة بها غرر.
وقال بعض الحكماء: الدنيا مُرْتَجَعَةُ الهبة، والدهر حسود؛ لا يأتي على شيء إلا غيرُه؛
ولمن عاش حاجةً لا تنقضي. ولما بلغ مَرَدُّكَ ^(١) من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه
نبذها، وقال: هذا سرور، لولا أنه غرور؛ ونعيم، لولا أنه عديم؛ ومُلك، لولا أنه
هُلُك؛ وغناء، لولا أنه فناء؛ وجسيم، لولا أنه ذميم؛ ومحمود، لولا أنه مفقود؛ وغني،
لولا أنه مُنَى؛ وارتفاع، لولا أنه اتضاع؛ وعلاء، لولا أنه بلاء؛ وحسن، لولا أنه
حزن؛ وهو يوم لو وثق له بحد. وقال بعض الحكماء: قد ملك الدنيا غير واحد، من
راغب وزاهد، فلا الراغب فيها استبقت، ولا عن الزاهد فيها كفت. وقال أبو
العتاهية:

هِيَ الدَّارُ دارُ الأَدَى والقَلْدَى ودارُ الفَناءِ ودارُ الغِيَرِ

(١) صاحب مذهب في الفلسفة الإباحية، وهو فارسي.

فَلَوْ نَلَتْهَا بِجَذَافِيْرِهَا لَمُتْ وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا الْوَطْرُ
أَيَا مَنْ يَوْمُلُ طَوْلُ الْخُلُودِ وَطُولُ الْخُلُودِ عَلَيْهِ ضَرَرُ
إِذَا مَا كَبُرَتْ وَبَانَ الشَّبَابُ فَلَا خَيْرَ مِنَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْكِبَرِ

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع. هل يتوقع أحدكم إلا غنى مطغيا، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هراما مقيدا، أو الدجال، فهو شر غائب ينتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر».

وحكي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام: أن هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع، فإني قريب. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: أوحى الله إلي الدنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه. وقال بعض البلغاء: زد من طول أملك، في قصير عملك، فإن الدنيا ظل الغمام، وحلم النيام، فمن عرفها ثم طلبها، فقد أخطأ الطريق، وحرم التوفيق. وقال بعض الحكماء: لا يؤمنك إقبال الدنيا عليك، من إدبارها عنك، ولا دولة لك، من إدالة منك. وقال آخر: ما مضى من الدنيا كما لم يكن، وما بقي منها كما قد مضى. وقيل لزاهد: قد خلعت الدنيا، فكيف سحت نفسك عنها؟ فقال: أيقنت أني أخرج منها كارها، فرأيت أن أخرج منها طائعا. وقيل لحُرقة بنت النعمان: مالك تبكين؟ فقالت: رأيت لأهلي غصارة، ولم تمتلئ دار فرحا، إلا امتلأت ترحا. وقال ابن السكيت: من جرّته الدنيا خلّوتها، بميله إليها، جرّته الآخرة مرّاتها، لتجافيه عنها. وقال صاحب كلیلة ودمنه: طالب الدنيا كشارب ماء البحر: كلما ازداد شربا ازداد عطشا، وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليك نوم والأسى لك لازم
تسرّ بما يفني وتفرح بالئنى كما سرّ باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكرر غيبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروها. فقال: كأنك دعوت على

صاحبك بالموت؛ إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروها. وقال أبو العتاهية:

إِنَّ الزَّمَانَ وَلَوْ يَلِي ——— مِنْ لِأَهْلِهِ لَمُخَاشِينُ
خَطَوَاتِهِ الْمُتَحَرِّكَاتُ ——— تَ كَأَنَّهُنَّ سَوَاكِينُ

والحالة الثانية من أحوال رياضتك لها: أن تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها. وأنالتك من غرائبها، فتعلم أن العطية فيها مرتجعة، والمنحة فيها مستردة، بعد أن تُبقيَ عليك ما احتقبت من أوزار وصولها إليك، وخسران خروجها عنك؛ فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث: شبابه فيما أبلاه، وعمره فيما أفناه، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ ». وروي عن عيسى بن مريم عليه السلام، أنه قال: في المال ثلاث خصال. قالوا: وما هن يا روح الله؟ قال: يكسبه من غير حِلِّه. قالوا: فإن كسبه من حِلِّه. قال: يضعه في غير حَقِّه. قالوا: فإن وضعه في حَقِّه. قال: يشغله عن عبادة ربه. ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال: يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه؟ قال: تنظر ما عندك، فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحَقِّه. قال: ومن يطيق هذا يا أبا حازم؟ قال: فمن أجل ذلك مُلئت جهنم من الجنة والناس أجمعين. وعيّرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال: من الغنى دُهيمٌ. ودخل قوم منزل عابد، فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه، فقال: لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها أثاثا. وقيل لبعض الزهاد: ألا توصي؟ قال: بماذا أوصي؟ والله ما لنا شيء، ولا لنا عند أحد شيء، ولا لأحد عندنا شيء. انظر إلى هذه الراحة كيف تعجلها، وإلى السلامة كيف صار إليها؟ ولذلك قيل: الفقر مُلكٌ ليس فيه محاسبة. وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما نُحِبُّ التكاثر في دار البقاء. وقيل: لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حِمَارًا؟ فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادما حمار. وقيل لأبي حازم رضي الله عنه: ما مالك؟ قال: شيئان: الرضا عن الله، والغنى عن الناس. وقيل له: إنك ليسكين. فقال: كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟ وقال بعض الحكماء: رب مغبوطٍ بمسرةٍ هي داؤه، ومرحومٍ من سقمٍ هو شفاؤه. وقال

بعض الأدباء : الناس أشتات ، ولكل جمع شتات . وقال بعض البلغاء : الزهد بصحبة اليقين ، وصحة اليقين بنور الدين ، فمن صح يقينه زهد في الثراء ، ومن قوي دينه ، أيقن بالجزاء ، فلا تغرّك صحة نفسك ، وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة . وقال بعض الشعراء :

رب مَغْرُوسٍ يُعَاشُ بِهِ عَدِمَتْهُ عَيْنٌ مُغْتَرِسَةٌ
وكذلك الدَّهْرُ مَأْتَمُهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

فإذا رُضْتَ نفسك من هذه الحال بما وصفت ، اعتضت منها ثلاث خلال : إحداهن نصح نفسك وقد استسلمت إليك ، والنظر لها ، وقد اعتمدت عليك ، فإن غاش نفسه مغبون ، والمنحرف عنها مأفون .

والثانية : الزهد فيما ليس لك ، لتكفى تكلف طلبه ، وتسلم من تبعات كسبه .

والثالثة : انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه ، وأن تؤتیه لمستحقه ، ليكون لك ذخراً ، ولا يكون عليك وزراً ، فقد روي أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أكره الموت . قال : ألك مال ؟ قال نعم . قال : قدّم مالك ، فإن قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضي الله عنها : دَبَحْنَا شاةً ، فتصدقنا بها ، فقلت : يا رسول الله ما بقي إلا كَتَفُهَا . قال : كلها بَقِيَّ إِلَّا كَتَفُهَا . وحكي أن عبدالله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود ، باع داراً بثمانين ألف درهم فقيل له : اتخذ لولدك من هذا المال ذخراً . فقال : أنا أجعل هذا المال ذخراً لي عند الله عز وجل ، وأجعل الله ذخراً لولدي ، وتصدق بها . وعُوتِبَ سهل بن عبدالله المُرُوزِيّ في كثرة الصدقة . فقال : لو أن رجلاً أراد أن ينتقل من دار إلى دار ، أكان يُبْقِي في الأولى شيئاً ؟ وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فكبرهم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . وقيل لعبدالله بن عمر : ترك زيد بن خزيمة ألف درهم . فقال : لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصري رحمه الله : ما أنعم الله على عبد نعمة إلا وعليه فيها تبعة ، إلا سليمان بن داود عليه السلام فإن الله تعالى قال له : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ [ص : ٣٩] وقال أبو حازم : إن عوفينا من شرّ ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوي عنا . وقال بعض السلف : قدّموا كلاً ليكون

لكم، ولا تخلّفوا كلّاً فيكون عليكم. وقال إبراهيم: نعم القوم السّؤال: يدقّون أبوابكم يقولون: أتوجّهون للآخرة شيئاً. وقال سعيد بن المسيب: مرّ بي صِلّة بن أُشَيْم، فما تماكنت أن نهضت إليه فقلت: يا أبا الصّهباء، أدع لي. فقال: رَغَبَكَ الله فيما يبقى، وزهّدَكَ فيما يَفْنَى، وهبْ لك اليقينَ الذي لا تسكُن النفس إلا إليه، ولا يُعوّل في الدين إلا عليه. ولما ثَقُلَ عبد الملك بن مروان رأى غَسَّالاً يلوي بيده ثوباً. فقال: وددت أنّي كنت غَسَّالاً لا أعيش إلا بما أكتسبه يوماً فيوماً، فبلغ ذلك أبا حازم. فقال: الحمد لله الذي جعلهم يَتَمَنُّونَ عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول ابنُ آدم ما لي! مالي! وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت». وقال خالد بن صفوان: بتّ ليلتي أتمنّى، فكسبت البحر الأخضر، والذهب الأحمر، فإذا يكفيني من ذلك رَغِيفان وكُوزان وطِمران. وقال مُورِّف العِجْلِيّ: يا بن آدم تُؤْتَى كل يوم برزقك وأنت تحزن، ويُنْقَصُ عُمرُك وأنت لا تحزن، تطلب ما يُطغّيك وعندك ما يكفّيك! وقال أبو حازم: إنّا بيننا وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فقد مضى، فلا يجدون لذته، وإنّا وهم من غدٍ على وجل، وإنّا هو اليوم، فما عسى أن يكون؟ وقال بعض السلف: تعزّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه، لقلة ما يَصُحُّبك إذا أُعْطِيَتْه. وقال بعض الحكماء: من ترك نصيبه من الدنيا، استوفى حظه من الآخرة وقال آخر: ترك التلبّس بالدنيا قبل التشبّث بها، أهون من رفضها بعد ملابتها. وقال آخر: ليكن طلبك الدنيا اضطراراً، وتذكّرك في الأمور اعتباراً، وسعيك لمعادك ابتداراً. وقال آخر: الزاهد لا يطلبُ المفقود، حتى يفقد الموجود. وقال آخر: من آمن بالآخرة، لم يَحْرِصْ على الدنيا، ومن أيقن بالمجازاة، لم يُؤثِرْ على الحُسنى. وقال آخر: من حاسب نفسه ربح، ومن غفَلَ عنها خسر. وقال أبو العتاهية:

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ	عَذَاباً كَلِمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِصُغُرٍ	وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُهُ	وَاخْذْ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

وحكى الأصمعي رحمه الله، قال: دخلت على الرشيد رحمه الله عليه يوماً وهو ينظر

في كتاب، ودموعه تسيل على خده، فلما أبصرني قال: أرأيت ما كان مني؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا، ثم رمى إليّ بالقرطاس، فإذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله تعالى:

هل أنت معتبرٌ بمن خربتُ منه غداةً قضى دساكره
وبمن أذلّ الدهرُ مصرعَه فتبرأت منه عساكره
وبمن خلّت منه أسرته وتعطلت منه منابره
أين الملوكُ وأين عزّهم؟ صاروا مصيراً أنت صائره!
يا مؤثر الدنيا للذّية والمستعدّ لمن يفاخره
نلّ ما بدا لك أن تنال من الدُّ نيا فإن الموت آخره

فقال الرشيد رحمه الله عليه: والله لكأنّي أخاطبُ بهذا الشعر دون الناس، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً، حتى مات رحمه الله.

ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها: أن تكشف لنفسك حال أجلك، وتصرفها عن غرور أمّلك، حتى لا يطيل لك الأمل أجلاً قصيراً، ولا يُنسيك موتاً ولا نُشوراً.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن الأيام تُطوى والأعمارُ تَفْنَى، والأبدانُ تَبْلَى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله، ما ألهى عن الشهوات، ورغب في الباقيات الصالحات» وقال مسعر: كم من مستقبل يوماً وليس يستكملها، ومنتظر غداً وليس من أجله، ولو رأيتم الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره. وقال رجل من الأنصار للنبي ﷺ: مَنْ أكيسُ الناس؟ قال: أكثرهم ذكر للموت، وأشدّهم استعداداً له، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: كما تنامون، كذلك تموتون؛ وكما تستيقظون، كذلك تبعثون. وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علّم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدر ككم، وإن أقمتم أخذكم. وقال العلاء ابن المسيّب: ليس قبل الموت شيء إلا والموت أشدّ منه، وليس بعد الموت شيء إلا والموت أيسر منه وقال بعض الحكماء: إن للباقي بالماضي معتبراً، وللآخر بالأول

مُزْدَجَرًا ، والسعيد لا يَرْكُن إلى الخُدَع ، ولا يَفْتَرُّ بِالطَّمَع . وقال بعض الصلحاء : إن بقاءك إلى فناء ، وفناءك إلى بقاء ، فخذ من فنائك الذي لا يبقى ، لبقائك الذي لا يفنى . وقال بعض العلماء : أيُّ عيش يطيب . وليس للموت طيب ؟ وقال بعض البلغاء : كل امرئ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله ، وتنطوي عليها صحيفة عمله ، فخذ من نفسك لنفسك ، وقس يومك بأمسك ، وكُفَّ عن سيئاتك ، وزد في حسناتك ، قبل أن تستوفي مدة الأجل ، وتَقْصُرَ عن الزيادة في السعي والعمل . وقيل في منشور الحكم : من لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال أبو العتاهية :

ما للمقابر لا تُجيب	ب إذا دَعَاهُن الكئيبُ .
حَقَرُ مُسَقَّةً عليه	هن الجنادل والكئيبُ
فيهن وِلْدَانٌ وَأَطْف	ال وشُبَّان وشيبُ
كم من حبيب لم تكن	نفسى بفرَّقته تطيبُ
غادرته في بعضهن مجنـ	دلاً وهو الحبيبُ
وسَلَوْتُ عنه وإنما	عهدي برؤيته قريبُ

وَوَعظَ النَّبِيُّ ﷺ رجلاً ، فقال : « أَقِلَّ من الدنيا تعيش حرّاً ، وأقلل من الذنوب يَهْنُ عليك الموت ، وانظر حيث تضع ولدك ، فإن العرق دَسَّاس » وقال الرشيد لابن السماك رحمها الله تعالى : عِظْني وأوجز . فقال : اعلم أنك أول خليفة يموت . وعَزَى أعرابي رجلاً عن ابن صغير له . فقال : الحمد لله الذي نَجَّاه مما هنا من الكدر ، وخلَّصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف : من عَمِلَ لِلآخِرَةِ أَحْرَزَهَا والدنيا ، ومن آثَر الدنيا حُرِمَهَا والآخرة . وقال بعض الصلحاء : استغنم تَنْفَسَ الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذكر المعاذير والعلل ، فإنك في أجل محدود ، ونفس معدود ، وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء الطبيب معذور إذا لم يقدر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء : اعمل عمل المرتحل ، فإن حادي الموت يحدوك ، ليوم يَغْدُوك . ورُوِيَ عن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله ﷺ :

غَرَّ جَهْلُونا أَمَلُنا يموت مَنْ جا أَجَلُنا
ومن دنا مِنْ حَتْفِهِ لم تُغْنِ عَنْهُ حِيلُنا

وما بقاء آخرٍ قد غاب عنه أوله ؟
والبرء لا يصحبُه في القبر إلا عملُه

وقال أبو العتاهية :

لا تأمنِ الموتَ في لحظٍ ولا نفسٍ وإن تمنعت بالحجاب والحرسِ
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرعٍ منها ومتّرسِ
ترجو النجاة ولم تسلك مبالكها إن السفينة لا تجري على اليبسِ

فإذا رُضتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفت ، اعتضت منها ثلاث خلال :

إحداها : أن تُكفَى تسويف أمل يُرْديك ، وتَسوِيلَ محال يُؤْديك ، فإن تسويف الأمل
غرّار ، وتسوِيلَ المحال ضرّار .

والثانية : أن تستيقظ لعملٍ آخرتك ، وتغتني بقية أجلك . بخير عملك ، فإن من قصر
أمله ، واستقل أجله ، حسن عمله .

والثالثة : أن يَهْونَ عليك نزولُ ما ليس عنه محيص ، ويسهل عليك حلول ما ليس
إلى دفعه سبيل ، فإن من تحقّقَ أمراً توطّأ لحلوله ، فهان عليه عند نزوله . وروى عن
النبيّ أنه قال لأبي ذرٍّ : نَبّه بالتفكر قلبك ، وجاف عن النوم جنبك ، واثق الله ربك .
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي ذرٍّ رضي الله عنه : عِظْني ، فقال : ارضَ
بالقوت ، وخَفْ من البَقوت ، واجعل صومك الدنيا ، وفطرك الموت . وقال عمر بن
عبد العزيز رضي الله عنه : ما رأيت يقينا لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من
يقين نحن فيه ، فلئن كنا مقرّين ، إنا لحمقى ، ولئن كنا جاحدين ، إنا لهلكى . وقال
الحسن البصريّ رحمة الله عليه : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه
ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بدمك ، وكذلك ليلك . وقال الجاحظ في كتاب
« البيان » وجد مكتوبا في حجرٍ : يا بن آدم لو رأيتَ يسير ما بقي من أجلك لزهدت
في طويل ما ترجو من أمّلك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك
وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندمك ، لو قد زلت بك قدمك ، أسلمك أهلك وحشمك ،
وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب . ولما حضّر بشر بن منصور الموت فرح ،
ف قيل له : أتفرح بالموت ؟ فقال أتجعلون قدومي على خالق أرجوه ، كمقامي مع مخلوق

أخافه . وقيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه : لو أرسلت إلى الطبيب ؟ فقال : قد رأي قالوا فما قال لك ؟ قال : قال إني فعّال لما أريد . وقيل للربيع ابن خنيّم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟ قال : قد أردتُ ذلك ، فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرسّ ، وقروناً بين ذلك كثيراً ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوي ، فهلكوا جميعاً . وسئل أنوشروان : متى يكون عيش الدنيا ألدّ ؟ قال : إذا كان الذي ينبغي أن يعمل في حياته معمولاً . وقال بعض الحكماء : من ذكر المنية ، نسي الأُمنية . وقال بعض الأدباء : عن الموت تُنسلّ ، وهو كريشة تُسلّ . وقال بعض البلغاء : الأمل حجاب الأجل .

وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعليّ رضي الله عنه :

فلو كنّا إذا مُتْنَا تُركنّا لكان الموت راحةً كلّ حيٍّ
ولكنّا إذا مُتْنَا بُعِثْنَا ونُسألُ كلّنا عن كلّ شيءٍ

وقال بعض الشعراء :

ألا إنّما الدنيا مَقِيلٌ لراكِبٍ قَضَى وَطَرًا من مَنْزِلٍ ثم هَجَرَا
فراحَ ولا يذري علامَ قُدُومِهِ ؟ ألا كلّ ما قَدَمْتَ يَبْقَى مُوقَرَا

ورَوَى سعيدُ بن مسعود رضي الله عنه : أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال : يا رسول الله : أوصني ؛ فقال ﷺ : « اكسِبْ طَيِّبًا ، واعمل صالحًا ، واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم ، واعُدْ نفسك من الموتى » . وكتبَ الربيعُ بن خنيّم إلى أخ له : قدّم جَهَازَكَ ، وافرُغْ من زَادِكَ ، وكن وصيّ نفسك ، والسلام . وقال بعض السلف : أصاب الدنيا من خذرها ، وأصابت الدنيا من أمنها . ومرّ محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم ، فقيل : هؤلاء زُهّاد ، فقال ما قَدَّر الدنيا حتى يُجَمَدَ من زَهْدَ فيها ؟

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمسه ، واستظهر لنفسه ، والشقي من جمع غيره ، وبخل على نفسه . وقال بعض البلغاء : لا تَبِتْ من غير وَصِيَّةٍ ، وإن كنت من جسمك في صحة ، ومن عُمرِكَ في فُسْحَةٍ ، فإن الدهر خائن ، وكلّ ما هو كائن كائن . وقال بعض الشعراء :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ مُدْرِكُهُ وَالْقَبْرَ مَسْكَنُهُ وَالْبَعْثَ مُخْرِجُهُ
وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَّاتٍ سَتُبْهِجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ نَارٍ سَتُنْضِجُهُ
فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى بِهِ سَمِجٌ وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ أَسْمَجُهُ
تَرَى الَّذِي اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ وَطَنًا لَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَنَايَا سَوْفَ تَزْعِجُهُ
وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّهُ
قَالَ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ لَكُمْ نَهَايَةٌ فَانْتَهَوْا إِلَى نَهَايَتِكُمْ ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَالِمٌ فَانْتَهَوْا إِلَى
مَعَالِمِكُمْ ، وَإِنْ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَافَتَيْنِ : أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ ، وَأَجَلٍ قَدْ
بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ ، فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ،
وَمِنْ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ
مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ : مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ ، وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ ، إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ » . وَقَالَ
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . أَمْسِ أَجَلَ ، وَالْيَوْمَ عَمَلٌ ، وَغَدَا أَمَلٌ . فَأَخَذَ أَبُو
الْعَتَاهِيَةِ هَذَا الْمَعْنَى ، فَنَظَّمَهُ شَعْرًا :

لَيْسَ فِيهَا مَضَى وَلَا فِي الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ لَذَّةٍ لِمَسْتَحْلِيهَا
إِنَّمَا أَنْتَ طُولُ عُمْرِكَ مَا عُمِّرَ تَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا
قَنَّعَ النَّفْسَ الْكَفَافَ وَإِلَّا طَلَبْتَ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَكْفِيهَا

وَقِيلَ لِرَازِحٍ : مَا بِالْكُ تَمْشِي عَلَى الْعَصَا ، وَلَسْتَ بِكَبِيرٍ وَلَا مَرِيضٍ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ
أَنِّي مُسَافِرٌ ، وَأَنَّهَا دَارُ بُلْغَةٍ ، وَأَنَّ الْعَصَا مِنْ آلَةِ السَّفَرِ . فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَنِي تَحَنَّنْتُ مِنْ كِبَرُ
وَلَكِنِّي أَلْزَمْتُ نَفْسِي حَمْلَهَا لِأَعْلَمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَى سَفَرُ

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ : الدُّنْيَا سَاعَةٌ ، فَاجْعَلْهَا طَاعَةً . وَقَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
رَتَعْنَا فِي الدُّنْيَا جَاهِلِينَ ، وَعِشْنَا فِيهَا غَافِلِينَ ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا كَارِهِينَ . وَقَالَ عَبْدُ
الْحَمِيدِ : الْمَرْءُ أَسِيرُ عُمْرٍ يَسِيرُ . وَقِيلَ فِي بَعْضِ الْمَوَاعِظِ : عَجَبًا لِمَنْ يَخَافُ الْعِقَابَ ، كَيْفَ
لَا يَكْفُ عَنْ الْمَعَاصِي ۱؟ وَعَجَبًا لِمَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ كَيْفَ لَا يَعْمَلُ ۱؟ وَقَالَ بَعْضُ

الحكماء : المسيء ميت وإن كان في دار الحياة، والمحسن حي وإن كان في دار
الأموات. وقال بعض السلف: الله المستعان على السنة تصيف وقلوب تعرف، وأعمال
تخالف. وقال آخر: الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيها. وقال آخر: اجعلوا
لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير. وقال آخر: الموت قُصَّارَك، فخذ من
دنياك لأُخْرَاك. وقال آخر: عباد الله، الحذر الحذر، فوالله لقد ستر، حتى كأنه قد
غفر، ولقد أمهل، حتى كأنه قد أهمل. وقال آخر: الأيام صحائف أعمالكم،
فخلدوها أجل أفعالكم: وقيل في منثور الحكم: اقْبَلْ نُصْحَ الْمَشِيبِ وَإِنْ عَجِلَ.
وقيل: ما طَلَعَتْ شمس، إلا وَعَظَتْ بأمْس.

وقال محمد بن بشر رحمه الله :

مَضَى أَمْسُكَ الْأَدْنَى شَهِيداً مَعْدَلاً وَيَوْمُكَ هَذَا بِالْفِعَالِ شَهِيدُ
فَبِإِنْ تَكُ بِالْأَمْسِ إِسَاءَةً فَتَنْ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
وَلَا تَرْجُ فَعْلَ الْخَيْرِ مِنْكَ إِلَى غَدٍ لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: « ما رأيت مثل الجنة
نام طالبها؟ وما رأيت مثل النار نام هاربها! » وقال عيسى بن مريم عليها السلام: ألا
إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا،
حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى أجل الدنيا، حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا
منها ما خَشُوا أن يميت قلوبهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيمتركهم. وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: الناس -طالِبَانِ يَطْلُبَانِ، فطالب يطلب الدنيا، فافرضوها في
نحره، فإنه ربما أدرك الذي يطلبه منها، فهلك بما أصاب منها، وطالب يطلب
الآخرة، فإذا رأيتم طالباً يطلب الآخرة فنافسوه فيها. ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه
الشام فقال: يا أهل الشام، اسمعوا قول أخ ناصح، فاجتمعوا عليه. فقال: ما لي أراكم
تَبْنُونَ ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟ إن الذين كانوا قبلكم بنوا مَشِيداً
وَأَمَلُوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فأصبح أَمْلَهُمْ غُرُوراً، وَجَمَعَهُمْ ثُبُوراً، ومساكنهم
قُبُوراً.

وقال أبو حازم: إن الدنيا غرَّت أقواماً، فعملوا فيها بغير الحق، ففاجأهم الموت،

فَحَلَفُوا مَا لَهُمْ لِمَنْ لَا يَحْمَدُهُمْ ، وَصَارُوا لِمَنْ لَا يَعْذِرُهُمْ ، وَقَدْ خَلَقْنَا بَعْدَهُمْ ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَنْظُرَ لِلَّذِي كَرِهْنَاهُ مِنْهُمْ فَنَجْتَنِيهِ ، وَالَّذِي غَبَطْنَاهُمْ بِهِ فَنَسْتَعْمَلَهُ .

وَمَرَّ بَعْضُ الزَّهَادِ بِبَابِ مَلِكٍ ، فَقَالَ : بَابٌ جَدِيدٌ ، وَمَوْتَ عَتِيدٌ ، وَنَزْعٌ شَدِيدٌ وَسَقَرٌ بَعِيدٌ . وَمَرَّ بَعْضُ الزَّهَادِ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : مِسْكِينٌ سَرَقَ مِنْهُ رَجُلٌ جُبَّةً ، وَمَرَّ بِهِ آخَرٌ فَأَعْطَاهُ جُبَّةً ، فَقَالَ . صَدَقَ اللَّهُ ، ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : ٤] . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . مَا أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ أَيْقَنَ بِالْحُشْرِ وَالْحِسَابِ ، وَزَهَدَ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ . وَقَالَ آخَرٌ : بِطُولِ الْأَمَلِ تَقْسُو الْقُلُوبُ ، وَيَاخِلَاصِ النِّيَّةِ تَقِيلُ الذُّنُوبُ .

وَقَالَ آخَرٌ : إِيَّاكَ وَالْمُنَى ، فَإِنَّهَا مِنْ بَضَائِعِ النَّوْكَى ، وَتُبْطُ عَنْ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . وَقَالَ آخَرٌ : قَصَّرَ أَمَلُكَ ، فَإِنَّ الْعُمَرَ قَصِيرٌ ، وَأَحْسَنُ سِيرَتِكَ ، فَالْبَرَّ يَسِيرُ : وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُعْتَزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

نَسِيرُ إِلَى الْأَجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ	وَأَيَّامُنَا تُطَوِّى وَهْنٌ مَرَّاحِلُ
وَلَمْ نَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ	إِذَا مَا تَخَطَّطَهُ الْأَمَانِيُّ بِاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الصَّبَا	فَكَيْفَ بِهِ وَالشَيْبُ فِي الرَّأْسِ نَازِلُ
تَرَحَّلَ عَنِ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التَّقَى	فَعُمُرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلَائِلُ

وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يَتِمَثَّلُ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

فَاعْمَلْ عَلَى مَهَلٍ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ	وَإِكَدْخْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
فَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضَى	وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ قَدْ كَانَ

وَنَظَرَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمًا فِي الْمِرْآةِ فَقَالَ : أَنَا الْمَلِكُ الشَّابُّ ، فَقَالَتْ لَهُ جَارِيَةٌ لَهُ :

أَنْتَ نَعْمَ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى	يَرَّ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ	كَانَ فِي النَّاسِ غَيْرَ أَنَّكَ فَاِنِي

وَرَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ عَنْ أَبَانَ ، عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : خُطِبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ الْجَدْعَاءِ ، فَقَالَ :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا وَجَبَ . وَكَأَنَّ الَّذِينَ تُشَيِّعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نَبُوتُهُمْ أَجْدَانُهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَائِهِمْ ، كَأَنَّا مَخْلُدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِينًا كُلَّ جَانِحَةٍ ، طَوْبِي لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ كَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَجِمَ أَهْلَ الذَّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ ! طَوْبِي لِمَنْ أَذَبَ نَفْسَهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ؛ طَوْبِي لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا إِلَى الْبِدْعَةِ » . وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « زُورُوا الْقُبُورَ تَذَكُّرُوا بِهَا الْآخِرَةَ ، وَغَسِّلُوا الْمَوْتَى ، فَإِنَّ مَعَالَجَةَ الْأَجْسَادِ الْخَاوِيَةِ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ » وَحَفَرِ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ فِي دَارِهِ قَبْرًا ، فَكَانَ إِذَا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ قَسْوَةً ، جَاءَ فَاضْطَجَعَ فِي الْقَبْرِ ، فَمَكَثَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : رَبِّ أَرْجِعْ عَنِّي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ : قَدْ أَرْجَعْتُكَ فِجْدِي . فَمَكَثَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ . وَقَالَ أَبُو مُحَرَّرٍ الطَّفَاوِيُّ : كَفَتْكَ الْقُبُورُ مَوَاعِظَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ الزَّهَادِ : مَا أَبْلَغَ الْعِظَاتِ ؟ قَالَ : النَّظَرُ إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ ، فَأَخَذَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَقَالَ :

وَعَظَّتْكَ أَجْدَاثُ صُمْتُ	وَنَعَتْكَ أَرْمِيَّةٌ خُفْتُ
وَتَكَلَّمْتُ عَنْ أَوْجِهِ	تَبَلَّى وَعَنْ صُورٍ سُبْتُ
وَأَرْتُكَ قَبْرَكَ فِي الْحَيَاةِ	وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُنْ
يَا شَامِتًا بِمَيِّتِي	إِنَّ الْمَيِّتَ لَمْ تَفُتْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشَّامِتُ	تُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشَّمْتُ

وَوُجِدَ عَلَى قَبْرِ مَكْتُوبًا : قَهَرْنَا مَنْ قَهَرْنَا ، فَصَرْنَا لِلنَّاظِرِينَ عِبْرَةً . وَعَلَى آخَرٍ : مَنْ أَمَلَ الْبَقَاءَ وَقَدْ رَأَى مَصَارِعَنَا فَهُوَ مَغْرُورٌ . وَقِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحِكَمِ : مَا أَكْثَرَ مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَا يُعْطِيهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ لَمْ يَمُتْ لَمْ يَفُتْ . وَقَالَ بَعْضُ الصُّلَحَاءِ : لَنَا مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ عِظَةٌ بِحَالِهِ ، وَعِبْرَةٌ بِمَالِهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِمَوْتِ وَلَدٍ ، لَمْ يَتَّعِظْ بِقَوْلِ أَحَدٍ . وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : مَا نَقَصَتْ سَاعَةٌ مِنْ أَمْسِكَ ، إِلَّا بِبَضْعَةٍ مِنْ نَفْسِكَ . فَأَخَذَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ ، فَقَالَ :

إِنْ مَعَ الدَّهْرِ فَاغْلَمَنَّ غَدًا فَاَنْظُرْ بِمَا يَنْقُضِي عِجْزِي غَدِهِ

ما ارتدّ طرفُ امرئٍ بلدتهِ إلّا وشيئٌ يموت من جسدهِ
ولما مات الإسكندر قال بعض الحكماء : كان الملك أمسٍ أنطق منه اليوم ، وهو
اليوم أوعظُ منه أمسٍ . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى ، فقال :

كفّى حزننا بدفنك ثم إنّي نفضتُ ترابَ قبرك عن يديّنا
وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حيّا

وقال بعض الحكماء : لو كان للخطايا ريح لا فتضح الناس ، ولم يتجالسوا . فأخذ هذا
المعنى أبو العتاهية ، فقال :

أَحْسَنَ الله نبأ أن الخطايا لا تَفُوحُ
فإذا المستورُ مِنّا يئنّ ثوبيه فُضُوحُ

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي ﷺ : « لو تكاشفت ما تدافتم » . وكتب رجل
إلى أبي العتاهية رحمه الله :

يا أبا إسحاق إنّي واثقٌ منك بوَدِّك
فأعني بأيّ أنت على عيني برُشدِك
فأجابه بقوله :

أطع الله بجهْدِك راغباً أو دونَ جهْدِك
أعطِ مولاك الذي تط لبُ من طاعة عبدِك

وقال بعض الحكماء : من سره بنوه ، ساءته نفسه . فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية
فقال :

ابنُ ذي الابن كلّما زاد منه مشرُوعٌ زادَ في فناء أبيه
ما بقاء الأب المُلِحّ عليه بدبيب اليلَى شابُ بتيه

وفي معناه ما حكى عن زِرّ بن حبّيش أنه قال وقد حضرته الوفاة ، وكان قد عاش
مئة وعشرين سنة :

إذا الرجالُ ولدت أولادها وارتعشت من كثر أجسادها

وجعلتُ أسقامُها تعتادُها تلكَ زُروعَ قد دنا حصادُها

وكتبَ رجلٌ إلى صالح بن عبد القدوس:

الموتُ بابٌ وكلُ الناسِ داخلُه فليتَ شِعْريَ بعدَ البابِ ما الدارُ؟

فأجابه بقوله:

الدارُ جَنَّةُ عدنٍ إن عملتَ بها يُرضي الإلهَ وإن فرَّطتَ فالنارُ

هما محلان ما للناسِ غيرُهما فانظرْ لنفسِكَ ماذا أنتَ مختارُ

باب ادب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته، وبالغ حكمته، خلق الخلق بتدبيره، وفطرهم بتقديره، فكان من لطيف ما دبّر: وبديع ما قدّر، أن خلّقه محتاجين، وفطرهم عاجزين، ليكون بالغنى منفرداً، وبالقدرة مختصّاً، حتى يُشعرنا بقدرته أنه خالق، ويُعلمنا بغيته أنه رازق، فنُدعِين بطاعته رغبة ورهبة، ونقرّ بنقصنا عجزاً وحاجة.

ثم جعل الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان، لأن من الحيوان ما يستقلّ بنفسه عن جنسه، والإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانتة صفة لازمة لطبعه، وخلقته قائمة في جَوْهره، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وخلّق الإنسانُ ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٨]، يعني: عن الصبر عما هو إليه مفتقر، واحتمال ما هو عنه عاجز. ولما كان الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان، كان أظهر عجزاً، لأن الحاجة إلى الشيء افتقار إليه، والمفتقر إلى الشيء عاجز عنه. وقال بعض الحكماء المتقدمين: استغناؤك عن الشيء، خير من استغنائك به.

وإنما خصّ الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة. وظهور العجز، نعمة عليه، ولطفاً به، ليكون ذلّ الحاجة، ومهانة العجز، يمنعانه من طغيان الغنى، وبغي القدرة، لأن الطغيان مَرَكُوز في طبعه إذا استغنى، والبغي مُسْتَوِل عليه إذا قدّر، وقد أنبأنا الله تعالى بذلك عنه، فقال: ﴿كلا إن الإنسانَ ليطغى، أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦]، ثم ليكون أقوى الأمور شاهداً على نقصه، وأوضحها دليلاً على عجزه.

وأشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي رحمه الله:

أَعْيَرْتَنِي بِالنَّقْصِ وَالنَّقْصُ شَامِلٌ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطَى الْكَمَالَ فَيَكْمُلُ؟
وَأَشْهَدُ أَنِّي نَاقِصٌ غَيْرَ أَنِّي إِذَا قِيسَ لِي قَوْمٌ كَثِيرٌ تَقَلَّلُوا

تفاضلَ هذا الخلق بالفضل والحجا ففي أيها هذين أنت مفضل؟
ولبو منح الله الكمال ابن آدم خلّده، والله ما شاء يفعل
ولما خلق الله الإنسان ماساً الحاجة، ظاهر العجز، جعل لنيل حاجته أسباباً، ولدفع
عجزه حيلاً، دله عليها بالعقل، وأرشده إليها بالفطنة. قال الله تعالى: ﴿والذي قدر
فهدي﴾. قال مجاهد: قدر أحوال خلقه، فهدي إلى سبيل الخير والشر. وقال ابن
مسعود في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾: يعني الطريقين: طريق الخير، وطريق
الشر.

ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو إليه الحاجة، جعل الله تعالى الإدراك
والضفر موقوفاً على ما قسم وقدر، كيلا يعتمدوا في الأرزاق على عقولهم، وفي العجز
على فطنهم، لتدوم له الرغبة والرغبة، ويظهر منه الغنى والقُدرة، وربما عزب هذا
المعنى على من ساء ظنه بخالقه، حتى صار سبيلاً لضلّاله، كما قال الشاعر [ابن
الراوندي]:

سُبْحَانَ مَنْ أَنْزَلَ الْأَيَّامَ مِنْزِلَهَا وَصَيَّرَ النَّاسَ مَرْفُوضاً وَمَرْمُوقاً
فَعَاقِلٌ فِطْنٍ أَعَيْتَ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٌ خَرِقٌ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقاً
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَبَابَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَاقِلَ النَّحْرِيرَ زِنْدِيقاً
ولو حسنَ ظنَّ العاقل في صحة نظره، لعلم من علل المصالح، ما صار به صديقاً أو
زنديقاً، لأن من علل المصالح ما هو ظاهر، ومنها ما هو غامض، ومنها ما هو
مُغَيَّب، حكمة استأثر الله بها. ولذلك قال النبي ﷺ: «حسنُ الظنِّ بالله، من عبادة
الله».

ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجاته، وحيل عجزه، في الدنيا التي جعلها دار
تكليف وعمل، كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء، فلزم لذلك أن يصرف الإنسان
إلى دنيا حظاً من عنايته، لأنه لا غنى له عن التزوّد منها لآخرته. ولا له بدّ من سدّ
الحلّة فيها عند حاجته، وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا قبل: من ترك فضولها،
وزجر النفس عن الرغبة فيها، بل الراغب فيها ملوم، وطالب فضولها مذموم،
والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة، والفضول إنما ينطلق على ما زاد على قدر

الكفاية. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَعْتَ فَانْصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب﴾. قال أهل التأويل: فإذا قرعْتَ من أمور دنياك، فانصب في عبادة ربك، وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيه ﷺ فيها، ولكن نذبه إلى أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه». وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «نعم المطية الدنيا، فارتحلوها تبلغكم الآخرة» وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فقال رضي الله عنه: الدنيا دار صديق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها.

وحكى مقاتل: إن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ حتى متى أتردد في طلب الدنيا؟ فقل له: أمسك عن هذا، فليس طلب المعاش من طلب الدنيا. وقال سفیان الثوريّ رحمة الله عليه، مكتوب في التوراة: إذا كان في البيت بُرٌ فتعبّد. وإذا لم يكن فاطلب، يا بن آدم جرّك يدك، يُسبّب لك رزقك. وقال بعض الحكماء: ليس من الرّغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العِرض فيها. وقال بعض الأدباء: ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن. وقال محمود الوراق:

لا تُتْبِعِ الدُّنْيَا وَأَيَّامَهَا ذَمًّا وَإِنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَةُ
مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا أَنَّهَا تُسْتَدْرِكُ الْآخِرَةَ

فإذن قد لزم لما بيناه النظر في أمور الدنيا، فواجب سبر أحوالها، والكشف عن جهة انتظامها واختلالها، لنعلم أسباب صلاحها وفسادها، ومواد عمارتها وخرابها، لتنتفي عن أهلها شبه الخيرة، وتنجلي لهم أسباب الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها، ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها.

واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما ما ينتظم به أمور جللتها. والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلّحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدّى إليه فسادها، ويقدر فيه اختلالها، لأنه منها يستمد، ولها يستعدّ، ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا، وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثراً، لأن الإنسان دنيا

نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صَلَّحَتْ له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمس، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفاً، وفكره على ما يمسه موقوفاً.

واعلم أن الدنيا لم تكن قطّ لجميع أهلها مُسعدة، ولا عن كافة ذويها مُعرِضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد، لا تلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذ جميعهم، لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا ضيعة: ويهلكوا عجزاً. وأما إذا تباينوا واختلفوا، صاروا مُؤتلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة، لأن ذا الحاجة وَصُول، والمحتاج إليه موصول. وقد قال الله تعالى: ﴿ولا يزلون مختلفين إلاّ مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ، ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨]. قال الحسن: مختلفين في الرزق، فهذا غنيّ وهذا فقير، ولذلك خلقهم، يعني للاختلاف بالغنى والفقر. وقال الله تعالى: ﴿والله فضلّ بعضكم على بعض في الرزق﴾ [النحل: ٧١]. غير أن الدنيا إذا صَلَّحَتْ كان إسعادها موفوراً، وإعراضها ميسوراً، لأنها إذا مَنَحَتْ هَتَأَتْ وَأودَعَتْ، وإذا استردّت رَفَقَتْ وأَبَقَتْ؛ وإذا فسدت الدنيا كان إسعادها مكرراً، وإعراضها غدراً، لأنها إذا مَنَحَتْ كَدَّتْ وأتَعَبَتْ، وإذا استردّت، استأصلت وأجَحَفَتْ، ومع هذا فصالح الدنيا مُصلح لسائر أهلها، لوفور أماناتهم، وظهور دياناتهم، وفسادها مفسد لسائر أهلها، لقلّة أماناتهم، وضعف دياناتهم، وقد وُجد ذلك في مَشَاهِدِ الحال: تجربة، وعُرفاً، كما يقتضيه دليل الحال: تعليلاً وكشفاً، فلا شيء أنفع من صلاحها، كما لا شيء أضرّ من فسادها، لأن ما تقوى به ديانات الناس، وتتوقّر أماناتهم، فلا شيء أحقّ به نفعاً، كما أن ما به تضعف دياناتهم، وتذهب أماناتهم، فلا شيء أجدر به ضرراً.

وأنشدت لأبي بكر بن دُرَيْد:

الناسُ مِثْلُ زَمَانِهِمْ	قَدْ الحذاءُ على مِثَالِهِ
ورجالُ دهرِكَ مِثْلُ دَهْرٍ	رِكَ في تَقْلِبِهِ وَحَالِهِ
وكذا إذا فسدَ الزمانُ	نُ جَرَى الفسادُ عَلَى رِجَالِهِ

وإذا قد بلغ بنا القولُ إلى ذلك ، فسنبداً بذكر ما تصلح به الدنيا ، ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها .

اعلم أن ما به تصلح الدنيا ، حتى تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتزمة ، ستة أشياء ، في قواعدها وإن تفرعت ، وهي : دينٌ مُتبع ، وسُلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عامٌّ ، وخصب دائم ، وأمل فسيح .

فأما القاعدة الأولى : وهي الدين المتبع : فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ، ويعطف القلوب عن إراداتها ، حتى يصير قاهراً للسرائر ، زاجراً للضمائر ، رقيباً على النفوس في خلواتها : نصوحاً لها في ملأها ، وهذه الأمور لا يُوصل بغير الدين إليها ، ولا يصلح الناس إلا عليها ، فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها ، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ، ولذلك لم يُخلِ الله تعالى خلقة مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي ، واعتقاد ديني ، ينقادون لحكمه ، فلا تختلف بهم الآراء ، ويستسلمون لأمره ، فلا تتصرف بهم الأهواء .

وإنما اختلف العلماء رضي الله عنهم في العقل والشرع : هل جاء مجيئاً واحداً ، أم سبق العقل ، ثم تعقبه الشرع ؟ فقالت طائفة : جاء العقل والشرع معاً مجيئاً واحداً ، لم يسبق أحدهما صاحبه .

وقالت طائفة أخرى : بل سبق العقل ، ثم تعقبه الشرع ، لأنه بكمال العقل يُستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : ﴿ أَيُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله . فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا ، وهو الفرد الأوحد في صلاح الآخرة ، وما كان به صلاح الدنيا والآخرة ، فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكاً ، وعليه محافظاً ، وقال بعض الحكماء : الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ، فأدب الشريعة : ما أدى الفرض ، وأدب السياسة : ما عمّر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرّب الأرض فقد ظلم غيره .
وقال سعد بن حمّيد :

ما صِحَّةٌ أبداً بنافعةٍ حتى يصحَّ الدينُ والخلقُ

وأما القاعدة الثانية : فهي سلطان قاهر ، تتألف برهنته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة ، وتنكف بسطوته الأيدي المتغلبة ، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لأن في طباع الناس من حُب المغالبة والمنافسة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ، ما لا ينكفون عنه ، إلا بمانع قوي ، ورادع مَلِيّ . وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول :
لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَفِيعُ مِنَ الْأَذَى - حَتَّى يُرَاقُ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وَالظُّلْمُ مِنَ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجَدَّ ذَا عِقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وهذه العلة المانعة من الظلم ، لا تخلو من أحد أربعة أشياء : إما عقل زاجر ، أو دين حاجز ، أو سلطان رادع ، أو عجز صَادٍ ؛ فإذا تأملتَها لم تجد خامساً يقترب منها ، ورهبة السلطان أبلغها ؛ لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين ، أو بداعي الهوى مغلوبين ، فتكون رهبة السلطان أشدَّ زَجْراً ، وأقوى رَدْعاً . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله ليزعُ بالسلطان ، أكثرَ مما يزعُ بالقرآن » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله حُرَّاساً في السماء ، وحُرَّاساً في الأرض ، فحُرَّاسه في السماء الملائكة ، وحُرَّاسه في الأرض الذين يقبضون أرزاقهم ، ويذبُّون عن الناس » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « الإمام الجائر خير من الفتنة ، وكلٌّ لا خير فيه ، وفي بعس الشر خيار » . وقال عبد الله ابن مسعود : « السلطان يفسد ، وما يصلح الله به أكثر ، فإن عدل فله الأجر ، وعليكم الشكر ، وإن جار فعليه الوزر ، وعليكم الصبر » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : سبَّت العجم بين يدي رسول الله ﷺ ، فنهى عن ذلك ، وقال : « لا تسبوها ، فإنها عمرة بلاد الله تعالى ، فعاش فيها عباد الله تعالى » . وقال بعض البلغاء : السلطان في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مشروع ، فإن ظلم لم يعدل أحد في حكمه ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلمه . وقال بعض الأدباء : إن أقرب الدعوات من الإجابة : دعوة السلطان الصالح ، وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا ، وما ينتظم به أمورها ؛ ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذِّب عنه ، ودفع الأهواء منه ، وحراسة التبديل فيه ، وزجر من شدَّ عنه بارتداد ، أو بغى فيه بعناد ، أو سعى فيه بفساد . وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ،

ورعاية وافية ، أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء ، وتحريف ذوي الآراء ، فليس دين زال سلطانه ، إلا بدلت أحكامه ، وطمست أعلامه ، وكان لكل زعيم فيه بدعة ، ولكل عصر في وْهيه أثر ، كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب ، حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا ، والتناصر عليه حتما ، لم يكن للسلطان بُثْث ، ولا لأيامه صفو ، وكان سلطان قهر ، ومفسد دهر ؛ ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت ، زعيم الأمة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبدالله بن المعتز :

الملك بالدين يبقَى والدين بالملك يَفْوَى

واختلف الناس : هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع ؟ فقالت طائفة : وجب بالعقل ، لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم ، الفزع إلى زعيم مندوب ، للنظر في مصالحهم . وذهب آخرون إلى وجوبه بالشرع ، لأن المقصود بالإمام القيام بأمر شرعية ، كإقامة الحدود ، واستيفاء الحقوق ، وقد كان يجوز الاستغناء عنها ، بأن لا يراد التعبد بها ، فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد إلا لها أولى . وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الأنبياء ، فمن قال بوجوب ذلك بالعقل ، قال بوجوب بعثة الأنبياء ، ومن قال بوجوب ذلك بالشرع ، منع وجوب بعثة الأنبياء ، لأنه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية ، وكان يجوز من المكلفين أو لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم ، لم يجب بعثة الأنبياء إليهم .

فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد ، وبلد واحد ، فلا يجوز إجماعا ، فأما في بُلدان شتى ، وأمصار متباعدة ، فقد ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك ، لأن الإمام مندوب للمصالح ، وإذا كان اثنان في بلدين أو ناحيتين ، كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه ، وأضبط لما يليه ، ولأنه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد ، ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة ، كانت الإمامة أولى ، ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة .

وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين في عصر واحد لا يجوز شرعا ، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا بويع أميران ، فولوا أحدهما » . وروي : « فاقتلوا الأخير منها » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا في دين الله عز

وجل ضعيفا في بدنه . وإذا وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله عز وجل قويا في بدنه . وإن وليتم عليا، تجدوه هاديا مهديا . فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم في عصر واحد لا يصح ، ولو صح لأشار إليه ، ولنبه عليه . والذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء :

أحدها : حفظ الدين من تبديل فيه ، والحث على العمل به ، من غير إهمال له .

والثاني : حراسة البيضة ، والذب عن الأمة ، من عدو في الدين ، أو باغي نفس أو مال .

والثالث : عمارة البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها ومسالكها .

والرابع : تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين ، من غير تحريف في أخذها وإعطائها .

والخامس : معاناة المظالم والأحكام ، بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النصفة في فصلها .

والسادس : إقامة الحدود على مستحقها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنها .

والسابع : اختيار خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها ، والأمانة عليها . فإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الأشياء السبعة ، كان مؤدياً حق الله تعالى فيهم ، مستوجبا طاعتهم ومناصحتهم ، مستحقا صدق ميلهم ومحبتهم ؛ وإن قصر عنها ، ولم يقم بحقها وواجبها ، كان بها مؤاخذاً ، وعليها معاقبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها . وقد قال الله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ﴾ [الانعام : ٦٥] . وفي قوله تعالى : ﴿ عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ تأويلان :

أحدهما : أن العذاب الذي هو من فوقهم : أمراء السوء ، والذي من تحت أرجلهم : عبيد السوء . وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني: أن العذاب الذي هو من فوقهم: الرجم، والذي من تحت أرجلهم: الخسف. وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا﴾ تأويلان:

أحدهما: أنه الأهواء المختلفة، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أنه الفتن والاختلاط، وهذا قول مجاهد. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من أمير على عشرة إلاّ وهو ينجي يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه، حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يؤبّقه ». ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم. وشرّ أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم » وهذا صحيح، لأنه إذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه، وإذا كان ذا شرّ أبغضهم وأبغضوه. وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: « إن الله تعالى إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه، فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله، مثل ما لله عندك »، فكان هذا موضحاً لمعنى ما ذكرنا.

وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه، وطاعته في خلقه تبعث على محبته؛ فلذلك كانت محبتهم دليلاً على خيره وخشيته، وبغضهم دليلاً على شرّه وقلة مراقبته. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه: أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: إني أخاف الله فيما تقلدت. فقال له: لست أخاف عليك أن تخاف الله، وإنما أخاف عليك أن لا تخاف الله، وهذا واضح، لأن الخائف من الله تعالى مأمون الخيف، كالذي رؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأبي مرثم السلولي، وكان هو الذي قتل أخاه زيد بن الخطاب: والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم. قال: أفيمنعني ذلك حقاً؟ قال: لا. قال: فلا ضير، إنما يأسى على الحب النساء.

ورؤي عبد الرحمن بن محمد قال: أصدق طلحة بن عبيد الله أم كلثوم بنت أبي بكر مئة ألف درهم، وهو أول من أصدق هذا القدر، فمرّ بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: ما هذا؟ قالوا: صدّاق أم كلثوم ابنة أبي بكر. فقال: أدخلوه

بيت المال، فأخبر بذلك طلحة، وقيل له: كلّمه في ذلك، فقال: ما أنا بفاعل: لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامي، وإن كان لا يرى فيه حقا ليردّه. قال: فلما أصبح عمر، أمر بالمال فدفع إلى أم كلثوم.

وحكي أن الرشيد حبس أبا العتاهية، فكتب على حائط الحبس:

أما والله إن الظلم لـوَمٌ وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى ديان يوم الدين تمضي وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد إذا التقينا غدا عند المليك من الظلومُ

فأخبر الرشيد بذلك، فبكى بكاء شديدا، ودعا أبا العتاهية فاستحله، ووهب له ألف دينار، وأطلقه.

وأما القاعدة الثالثة: فهي عدل شامل، يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان؛ فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا: عدلت فأمنت فيمت.

وليس سيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضائر الخلق، من الجور، لأنه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد». وقال ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات: فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا، وخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وحكي أن الاسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع بها: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا. فقال لهم: أيّما أفضل؟ العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة. وقال بعض الحكماء: بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف. وقال بعض البلغاء: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع، وكثرة الورع. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا، التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن

يُبْدَأُ بِعَدْلِ الْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ ، ثُمَّ بِعَدْلِهِ فِي غَيْرِهِ .

فَأَمَّا عَدْلُهُ فِي نَفْسِهِ ، فَيَكُونُ بِجَمْلِهَا عَلَى الْمَصَالِحِ ، وَكَفْهَا عَنِ الْقَبَائِحِ ، ثُمَّ بِالْوُقُوفِ فِي أَحْوَالِهَا عَلَى أَعْدِلِ الْأَمْرَيْنِ : مَنْ تَجَاوَزَ أَوْ تَقَصَّرَ ، فَإِنْ تَجَاوَزَ فِيهَا جَوْرٌ ، وَالتَّقْصِيرُ فِيهَا ظُلْمٌ ، وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ فَهُوَ لَغَيْرِهِ أَظْلَمُ ، وَمَنْ جَارَ عَلَيْهَا فَهُوَ عَلَى غَيْرِهِ أَجْوَرُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ تَوَانَى فِي نَفْسِهِ ضَاعَ .

وَأَمَّا عَدْلُهُ مَعَ غَيْرِهِ ، فَقَدْ يَنْقَسِمُ حَالُ الْإِنْسَانِ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ : عَدْلُ الْإِنْسَانِ فِيْمَنْ دُونَهُ ، كَالسُّلْطَانِ فِي رِعْيَتِهِ ، وَالرَّئِيسِ مَعَ صَحَابَتِهِ ، فَعَدْلُهُ فِيهِمْ يَكُونُ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ ، بِاتِّبَاعِ الْمِيسُورِ ، وَحَذْفِ الْمَعْسُورِ ، وَتَرْكِ التَّسْلُطِ بِالْقُوَّةِ ، وَابْتِغَاءِ الْحَقِّ فِي السَّيْرِ ؛ فَإِنْ اتَّبَعَ الْمِيسُورَ أَذْوَمَ ، وَحَذَفَ الْمَعْسُورَ أَسْلَمَ ، وَتَرَكَ التَّسْلُطَ أَعْطَفَ عَلَى الْمَحَبَّةِ ، وَابْتِغَاءُ الْحَقِّ أُبْعَثَ عَلَى النَّصْرَةِ . وَهَذِهِ أُمُورٌ إِنْ لَمْ تَسْلَمْ لِلزَّعِيمِ الْمُدَبِّرِ ، كَانَ الْفَسَادُ بِنَظَرِهِ أَكْثَرَ ، وَالِاخْتِلَافُ بِتَدْبِيرِهِ أَظْهَرَ . رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَ اللَّهَ فِي سُلْطَانِهِ ، فَجَارَ فِي حُكْمِهِ » . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْمَلِكُ يَبْقَى عَلَى الْكُفْرِ ، وَلَا يَبْقَى عَلَى الظُّلْمِ . وَقَالَ بَعْضُ الْأُدْبَاءِ : لَيْسَ لِلجَائِرِ جَارٌ ، وَلَا تَعْمُرُ لَهُ دَارٌ . وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ صَرْعَةَ الظُّلْمِ ، وَأَنْفَذُ السَّهَامِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ . وَقَالَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْمُلُوكِ : الْعَجَبُ مِنْ مَلِكٍ اسْتَفْسَدَ رِعْيَتَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عِزَّهُ بِطَاعَتِهِمْ . وَقَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ : إِذَا رَغِبَ الْمَلِكُ عَنِ الْعَدْلِ ، رَغِبَتِ الرَّعِيَّةُ عَنْ طَاعَتِهِ . وَعَوْتُبُ أَنْوَشِرْوَانَ عَلَى تَرْكِ عِقَابِ الْمَذْنُبِينَ ، فَقَالَ : هُمُ الْمَرْضَى ، وَلْنَحْنُ الْأَطْبَاءُ ، فَإِذَا لَمْ نَدَاوَهُمْ بِالْعَفْوِ فَمَنْ لَهُمْ ؟

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : عَدْلُ الْإِنْسَانِ مَعَ مَنْ فَوْقَهُ ، كَالرَّعِيَّةِ مَعَ سُلْطَانِهَا ، وَالصَّحَابَةِ مَعَ رَأْسِهَا فَقَدْ يَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : بِإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ ، وَبِذَلِّ النَّصْرَةِ ، وَبِصِدْقِ الْوَلَاءِ ، فَإِنْ إِخْلَاصُ الطَّاعَةِ أَجْمَعَ لِلشَّمْلِ ، وَبِذَلُّ النَّصْرَةِ أَدْفَعُ لِلْوَهْنِ ، وَبِصِدْقِ الْوَلَاءِ أَنْفَى لِسُوءِ الظَّنِّ . وَهَذَا أُمُورٌ إِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ فِي الْمَرْءِ تَسْلُطَ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُ ، وَاضْطَرَّ إِلَى اتِّقَاءِ مَنْ كَانَ يَقِيهِ ، كَمَا قَالَ الْبُخْتَرِيُّ :

مَتَى أَحْوَجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطِئِي إِلَيْكَ بِبَعْضِ أَخْلَاقِ اللَّثَامِ

وفي استمرار هذا حَلّ نظامٍ جامع، وفساد صلاحٍ شامل. وقال أبرويز^(١) : أطلع من فوقك، يُطعك من دُونك. وقال بعض الحكماء: الظلم مسلبة النعم، والبغي مجلبة للنقم. وقال بعض الحكماء: إن الله تعالى لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه، وحقه شكر النعمة، ونصح الأمة، وحسن الصنعة، ولزوم الشريعة.

والقسم الثالث: عدل الإنسان مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكفّ الأذى، لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكف الأذى أنصف. وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء، أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأفسدوا. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بشرار الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أكلَ وحده، ومنع رقبه، وجلد عبده. ثم قال: أفلا أنبئكم بشرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شرّه، ثم قال: ألا أنبئكم بشرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه». وروي أن عيسى ابن مريم عليهما السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم.

يا بني إسرائيل: الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلفتم فيه فردّوه إلى الله تعالى، وهذا الحديث جامع لآداب العدل في الأحوال كلها. وقال بعض الحكماء: كل عقل لا يُدارى به الكل فليس بعقل تام.

وقال بعض الشعراء:

ما دمت حيّاً فدارِ الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يُرى عما قليل ندينا للندامات
وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة، يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل.

(١) أبرويز بن هرمز: كان من حكماء ملوك الفرس.

وقد قالت الحكماء : الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين . وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين . فالحكمة : واسطة بين الشرّ والجهالة . والشجاعة : واسطة بين التقهّم والجن . والعفة : واسطة بين الشرّ وضعف الشهوة . والسكينة : واسطة بين السخط وضعف الغضب . والغيرة : واسطة بين الحسد وسوء العادة . والظرف : واسطة بين الخلاعة والفدامة . والتواضع : واسطة بين الكبر ودناءة النفس . والسخاء : واسطة بين التبذير والتقتير . والحلم : واسطة بين إفراط الغضب وعدمه . والمودة : واسطة بين الخِلافة وحسن الخلق . والحياء : واسطة بين القحّة والحصر . والوقار : واسطة بين الهُزء والسخافة .

وإذا كان ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال خروجاً عن العدل ، إلى ما ليس بعدل ، كان ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى ، خروجاً عن العدل ، إلى ما ليس بعدل . وقد قال بعض البلغاء : السلطان السوء يخيف البريء ، ويصطنع الديء ؛ والبلد السوء يجمع السّقل ، ويورث العِلل ؛ والولد السوء يشين السلف ، ويهدم الشرف ؛ والجار السوء يفشي السرّ ، ويهتك السّتر ؛ فجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولى إلى ما ليس بأولى ، خروجاً عن العدل ، إلى ما ليس بعدل .

ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل ، إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان ، فإذا لاشي أنقَع من العدل ، كما أنه لاشيء أضرّ مما ليس بعدل .

وأما القاعدة الرابعة : فهي أمنّ عامّ تطمئن إليه النفوس ، وتنتشر فيه الميم ، ويسكن فيه البريء ، ويأنس به الضعيف ، فليس لخائف راحة ، ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء : الأمن أهنا عيش ، والعدل أقوى جيش ؛ لأنّ الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم عن تصرفهم ، ويكفهم عن أسباب الموادّ التي بها قوام أودهم ، وانتظام جلتهم ؛ ولئن كان الأمن من نتائج العدل ، والجور من نتائج ما ليس بعدل ، فقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل ، وتارة يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين ، فلا تكون خارجة عن حال العدل ؛ فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل ، مقنعا عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل ، فإذا كان ذلك كذلك ، فالأمن المطلق : ما عمّ ؛ والخوف قد يتنوع تارة

ويعم، فتتوَّعه بأن يكون تارة على النفس، وتارة على الأهل، وتارة على المال؛ وعمومه: أن يستوعب جميع الأحوال، ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن، ونصيب من الحزن. وقد يختلف باختلاف أسبابه، ويتفاضل بتباين جهاته، ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه. فمن أجل ذلك لم يجز أن يتصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن، ونصيب من الحزن، لا سيما والخائف على الشيء مختص بهم به، منصرف الفكر عن غيره، فهو يظن أن لا خوف له إلا إياه، فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه، فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل، وعما سواه غافل، ولعل ما صُرف عنه، أعظم مما ابتلي به.

عَلَى أَنهَا تَعْفُو الْكَلُومَ وَإِنَّمَا يُؤَكَّلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي وَحَكِي أَنْ رَجُلًا قَالَ - وَأَعْرَائِي حَاضِرٌ - مَا أَشَدَّ وَجَعَ الضَّرْسِ! فَقَالَ الْأَعْرَائِي: كُلُّ دَاءٍ أَشَدُّ دَاءً. كَذَلِكَ مِنْ عَمِهِ الْأَمْنُ كَمَنْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْعَافِيَةُ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِأَمْنِهِ حَتَّى يَخَافُ، كَمَا لَا يَعْرِفُ الْمُعَافَى قَدْرَ النِّعْمَةِ بِعَافِيَتِهِ حَتَّى يُصَابَ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّمَا يُعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِمُقَاسَاةِ ضِدِّهَا، فَأَخَذَ ذَلِكَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي، فَقَالَ:

وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بِؤْسُهَا فَهُوَ الَّذِي أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا

فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه، قدر النعمة فيما سوى ذلك، من عافيته وأمنه، وما إنصرف عنه، مما هو أشد من مرضه وخوفه، فيستبدل بالشكوى شكرًا، وبالجزع صبرًا، فيكون فرحًا مسرورًا.

حُكِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِيُوسُفَ عَلَيْهَا السَّلَامُ حِينَ لَقِيَهُ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ خَبْرَكَ بَعْدِي؟ قَالَ: لَا تَسْأَلُ عَمَّا فَعَلَهُ بِي إِخْوَتِي، سَلْنِي عَمَّا صَنَعَهُ بِي رَبِّي. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَنْسَ فِي الصَّحَةِ أَيَّامَ السَّقَمِ فَإِنْ عُقِبَى تَارَكَ الْحَزَمَ نَدَمٌ

وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: فَهِيَ خِصْبُ دَارٍ، تَتَسَّعُ النُّفُوسُ بِهِ فِي الْأَحْوَالِ، وَيَشْتَرِكُ فِيهِ ذُووُ الْإِكْثَارِ وَالْإِقْلَالِ، فَيَقْلُ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ تَبَاغُضُ الْعَدَمِ، وَتَتَسَّعُ النُّفُوسُ فِي التَّوَسُّعِ، وَتَكْثُرُ الْمُؤَاسَاةُ وَالتَّوَاصُلُ، وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي لِصَلَاحِ

الدنيا، وانتظام احوالها؛ ولأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يُورث الأمانة والسخاء. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: لا تستقضيّن إلا ذا حَسَب أو مال، فإن ذا الحَسَب يخاف العواقب، وذا المال لا يرغب في مال غيره. وقال بعض السلف: إني وجدت خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الفُجُور والفقر.

وقال بعض الشعراء:

ولم أرَ بعد الدين خيراً من الغنى ولم أرَ بعد الكفر شراً من الفقرِ
وبَحَسَب الغنى يكون اقلال البخل وإعطاؤه، وإكثار الجواد وسخاؤه، كما قال دِعْبِل:

لئن كنت لا توالي ندىً دون إمرة فلست بمول نائلاً آخر الدهر
وأَيّ إناء لم يفيض عند ملئهِ وأَيّ بخل لم يُنل ساعة الوفرِ

وإذا كان الخصب لم يُحدث من أسباب الصلاح ما وصفت، كان الجذب يحدث من أسباب الفساد ما ضاهاها؛ وكما أن صلاح الخصب عام، فكذلك فساد الجذب عام، وما عمَّ به الصلاح إن وُجد، عمَّ به الفساد إن قُيد، فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح، ودواعي الاستقامة.

والخِصْب يكون من وجهين: خِصْب في المكاسب، وخِصْب في المواد. فأما خِصْب المكاسب، فقد يتفرع من خِصْب المواد، وهو من نتائج الأمن المقترن بها. وأما خِصْب المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية، وهو من نتائج العذل المقترن بها.

وأما القاعدة السادسة: فهي أمل فسيح، يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه، ويبعث على اقتناء ما ليس يُؤمَّل في دركه بحياة أربابه، ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول، حتى يصير به مستغنياً، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى، وأراضي الحرث، وفي ذلك من الإعواز وتعذر الإمكان، ما لا خفاء به، فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال، حتى عمَّر به الدنيا، فتم صلاحها، وصارت تنتقل به مراتها إلى قرن بعد قرن، فيتم الثاني ما أبقاه الأول من

عمارتهما، ويرمّ الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها، لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة، وأمورها على ممرّ الدهور منتظمة، ولو قصّرت الآمال، ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته؛ ولكانت تنتقل إلى من بعده خراباً، لا يجد فيها بلغة، ولا يدرك منها حاجة، ثم تنتقل إلى من بعد بأسوأ من ذلك حالا، حتى لا ينمي بها نبت، ولا يمكن فيها لبث. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأمل رحمة من الله لأمتي، ولولاه ما غرس غارس شجراً، ولا أرضعت أمّ ولدا» وقال الشاعر:

[سابق البربري]

وللنفوس وإن كانت على وجل من المنيّة آمال تقوّيها
فالصبر يسطّها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الأمل في أمر الآخرة، فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها، وقلة الاستعداد لها، وقد أفصح ليبد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الآمل في الأمرين، فقال:

واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يُزري بالآمل
غير أن لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر، لله الأجل
وفرق ما بين الآمال والأمانى: أن الآمال ما تقيدت بأسباب، والأمانى ما تجردت عنها.

فهذه القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا، وتتنظم أمور جللتها، فإن كملت فيها كمل صلاحها. بعيد أن يكون أمر الدنيا تاماً كاملاً وأن يكون صلاحها عاماً شاملاً، لأنها موضوعة على التغيّر والفناء، منشأة على التصرّم والانقضاء. وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: قلب الله الدنيا، قال: فإذا تستوي، لأنها مقلوبة.

وقال بعض الشعراء:

ومن عادة الأيام أن خطوبها إذا سرّ منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام إلا ذميمة ولا الدهر إلا وهو للشار طالب
وبحسب ما اختل من قواعدها، يكون اختلالها وفسادها.

فصل: وأما ما يصلح به حال الإنسان فيها فثلاثة أشياء ، وهي قواعد أمره ، ونظام حاله ، وهي : نفس مطيعة إلى رشدها ، منتهية عن غيها . وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها . ومادة كافية تسكن نفس الإنسان إليها ، ويستقيم أودّه بها .

فأما القاعدة الأولى: التي هي نفس مطيعة ، فلأنها إذا أطاعته ملكها ، وإذا عصته ملكته ولم يملكها ، ومن لم يملك نفسه ، فهو بأن لا يملك غيرها أخرى ، ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء : لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ، ونفسه ممتنعة عليه . وقد قال الشاعر :

أَتَطْمَعُ أَنْ يُطِيعَكَ قَلْبُ سَعْدَى وَتَزْعَمُ أَنْ قَلْبَكَ قَدْ عَصَاكَ ؟

وطاعة نفسه تكون من وجهين : أحدهما نصح ، والثاني انقياد . فأما النصح فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها ، فيرى الرُّشد رُشداً ويستحسنه ، ويرى الغي غياً ويستقبحه ، وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعي الهوى ، ولذلك قيل : من تفكر أبصر . فأما الانقياد فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها ، وتنتهي عن الغي إذا زجرها ، وهذا يكون من قبول النفس إذا كُفيت منازعة الشهوات ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ ثَمِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٧] .

وللنفس آداب هي تمام طاعتها ، وكمال مصلحتها ، وقد أفردنا لها من هذا الكتاب باباً ، واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب ، واستدعاه التقريب .

وأما القاعدة الثانية: التي هي الألفة الجامعة ، فلأن الإنسان مقصود بالأذية ، محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن ألفاً مألوفاً ، تخطفته أيدي حاسديه ، وتحكمت فيه أهواء أعاديته ، فلم تسلم له نعمة ، ولم تصف له مدة ، فإذا كان ألفاً مألوفاً ، انتصر بالألفة على أعاديته ، وامتنع من حاسديه ، فسلمت نعمته منهم ، وصفت مدته عنهم ، وإن كان صفو الزمان عسيراً ، وسلّمه خطراً . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحهما الله ، عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « المؤمن ألف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم ،

ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، وكل ذلك حث منه ﷺ على الألفة ، والعرب تقول : مَنْ قَلَّ ذَلَّ . وقال قيس بن عاصم :

إِن القِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا بِالْكَسْرِ ذُو جَنْقٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ
عَزَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وَإِذَا كَانَتِ الْأَلْفَةُ بِمَا أَثْبَتَ تَجْمَعُ الشَّمْلُ ، وَتَمْنَعُ الذَّلَّ ، اقْتَضَتْ الْحَالُ ذِكْرَ أَسْبَابِهَا .
وَأَسْبَابُ الْأَلْفَةِ خَمْسَةٌ ، وَهِيَ : الدِّينُ ، وَالنَّسَبُ ، وَالْمَصَاهِرَةُ ، وَالْمَوَدَّةُ ، وَالْبِرُّ .

فأما الدين : وهو الأول من أسباب الألفة ، فلأنه يبعث على التناصر ، ويمنع من التقاطع والتدابير . وبمثل ذلك وصَّى رسول الله ﷺ أصحابه ، فروى سُفْيَانُ عَنْ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَحَاسَدُوا . وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » . هَذَا وَإِنْ كَانَ اجْتِمَاعُهُمْ فِي الدِّينِ يَقْتَضِيهِ ، فَهُوَ عَلَى وَجْهِ التَّحْذِيرِ مِنْ تَذَكُّرِ تَرَاثِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِخْنِ الضَّلَالَةِ ، فَقَدْ بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْعَرَبُ أَشَدَّ تَقَاطَعًا وَتَعَادِيًا ، وَأَكْثَرَ اخْتِلَافًا وَتَمَادِيًا ، حَتَّى إِنْ بَنَى الْأَبُ الْوَاحِدَ كَانُوا يَتَفَرَّقُونَ أَحْزَابًا ، فَتَثُورُ بَيْنَهُمْ بِالتَّحْزَبِ وَالْإِفْتِرَاقِ أَحْقَادَ الْأَعْدَاءِ ، وَإِخْنِ الْبُعْدَاءِ ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَشَدَّهُمْ تَقَاطَعًا وَتَعَادِيًا ، وَكَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ ، أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَسْلَمُوا ، فَذَهَبَتْ إِحْنُهُمْ ، وَانْقَطَعَتْ عداوتهم ، وَصَارُوا بِالْإِسْلَامِ إِخْوَانًا مُتَوَاصِلِينَ ، وَبِأَلْفَةِ الدِّينِ أَعْوَانًا مُتَنَاصِرِينَ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] يَعْنِي أَعْدَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِالْإِسْلَامِ ؛ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] ، يَعْنِي : حَبًّا . وَعَلَى حَسَبِ التَّأَلُّفِ عَلَى الدِّينِ تَكُونُ الْعِدَاوَةُ فِيهِ ، وَإِذَا اخْتَلَفَ أَهْلُهُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقْطَعُ فِي الدِّينِ مَنْ كَانَ بِهِ بَارًّا ، وَعَلَيْهِ مُشْفِقًا . هَذَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ^(١) وَقَدْ كَانَتْ لَهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ فِي الْفَضْلِ ، وَالْأَثَرُ الْمَشْهُورُ فِي الْإِسْلَامِ ، قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَتَى بِرَأْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، حِينَ بَقِيَ عَلَى ضَلَالِهِ ، وَانْهَمَكَ فِي طُغْيَانِهِ ، فَلَمْ تَعْطِفْهُ

(١) توفى سنة ثمانٍ عشرة في طاعون عمواس . وهو الذي لقبه رسول الله « أمين هذه الأمة » .

عليه رحمة ، ولا كَفَّه عنه شفقة ، وهو من أبرّ الأبناء ، تغليباً للدين على النسب ، ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب . وفيه أنزل الله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] . وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى ، وآراء مختلفة ، فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين ، مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان ، وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقْد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة ، كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة ، وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة ، والمذاهب المتباينة ، ولم يكن أحد الفريقين أعلى يداً ، وأكثر عدداً ، كانت العداوة بينهم أقوى ، والإحْن فيهم أعظم ، لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف ، تحاسد الأكفاء ، وتنافس النضراء .

وأما النسب : وهو الثاني من أسباب الألفة ، فلأن تعاطف الأرحام ، وحمية القرابة ، يبعثان على التناصر والألفة ، ويمنعان من التخاذل والفرقة ، أنفة من استعلاء الأبعد على الأقارب ، وتوقياً من تسلط الغرباء الأجانب ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الرّحِم إذا تماسّت تعاطفت » ولذلك حفظت العرب أنسابها ، لَمَّا امتنعت عن سلطان يقهرها ، ويكف الأذى عنها ، لتكون به متظافرة على ما ناوها ، متناصرة على من شاقها وعادها ، حتى بلغت بألفة الأنساب ، تناصرَها على القوي الأتيد . وتحكمت فيه تحكّم المتسلط المتشطّط ، وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره . فقال لمن بُعث إليهم : « لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد ، يعني : عشيرة مانعة . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » يعني الله عز وجل . وقال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله تعالى من نبيّ بعده إلا في ثروة من قومه » . وقال وهب : لقد ردّت الرسل على لوط وقالوا : إن ركنك لشديد . وروى عن رسول الله ﷺ أنه كان لا يترك المراء مُفرجاً حتى يضمه إلى قبيلة يكون إليها . قال الرّياشي : المُفرج : الذي لا ينتمي إلى قبيلة يكون منها ، وكل ذلك حثّ منه ﷺ على الألفة ، وكف عن الفرقة ، ولذلك قال ﷺ : « من كثر سواد قوم فهو منهم » . وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة ، فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها . فإذن قد لزم أن

نصف حال الأنساب، وما يعرض لها من الأسباب.

فجملة الأنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم والدون، وقسم مولودون، وقسم مناسيون. ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة، وعارض يطرأ، فيبحث على العقوق والقطيعة. فأما والدون فهم الآباء والأمهات، والأجداد والجَدات، وهو موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم بالطبع، والثاني حادث باكتساب. فأما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والإشفاق، وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لكل شيء ثمرة، وثمررة القلب الولد ». وروي عنه أنه قال: « الولد مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ، مَجْبِيئةٌ مَحْزَنَةٌ »، فأخبر أن الحذر عليه يُكسب هذه الأوصاف، ويحدث هذه الأخلاق. وقد كره قوم طلب الولد، كراهة لهذه الحالة التي لا يُقدَّر على دفعها عن نفسه، للزومها طبعاً، وحدوثها حتماً. وقيل ليحيى بن زكريا عليها السلام: ما بالك تكره الولد؟ فقال: ما لي وللولد؟ إن عاش كدني، وإن مات هدني. وقيل لعيسى بن مريم عليها السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما يُحِبُّ التكاثر في دار البقاء.

وأما ما كان حادثاً بالاكتساب فهي المحبة، التي تنمي مع الأوقات، وتتغير مع تغير الحالات. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « الولد أنوط »، يعني أن حبه ملصق بنياط القلب، فإن انصرف الوالد عن حب الولد، فليس ذلك لبغض منه، ولكن لسُلوَة حدثت من عقوق أو تقصير، مع بقاء الحذر والإشفاق الذي لا يزول عنه، ولا ينتقل منه. فقد قال محمد بن علي رضي الله عنه: إن الله تعالى رضي الآباء للأبناء، فحذرهم فتنهم، ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء، فأوصاهم بهم، وإن شر الأبناء من دعاهم التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاهم البر إلى الإفراط.

والأمهات أكثر إشفاقاً، وأوفر حباً، لما باشرن من الولادة، وعانين من التربية، فإنهن أرقّ قلوباً، وألين نفوساً، وبحسب ذلك، وجب أن يكون التعطف عليهم أوفر، جزاء لفعلهن، وكِفَاءً لحَقهن، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما في البر، وجمع بينهما في الوصية. فقال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ [العنكبوت: ٨]. وقد روي أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: « إن لي أماً أنا مطيئها، أقعدها على ظهري، ولا أصرف عنها وجهي، وأردت إليها كسبي، فهل جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة.

واحدة. قال: ولم؟ قال: لأنها كانت تخدمك، وهي تحب حياتك، وأنت تخدمها وتحب موتها. وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم، وبر الوالدة ألزم. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أنها كم عن عقوق الأمهات، وواد البنات، ومنع وهات». وروى خالد بن معدان عن المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

وأما المولودون: فهم الأولاد وأولاد الأولاد، والعرب تسمي ولد الولد الصفة، وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم، والآخر منتقل. فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو حول، والأنفة في الأبناء، في مقابلة الإشفاق في الآباء، وقد لحظ أبو تمام الطائي هذا المعنى في شعره، فقال:

فأصبحتُ يلقياني الزمان لأجله بإعظام مولود وإشفاق والد

وأما المنتقل فهو الإدلال، وهو أول حال الولد، والإدلال في الأبناء، في مقابلة المحبة في الآباء، لأن المحبة بالآباء أخص، والإدلال بالأبناء أعم. وقد روي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال: «قلت يا رسول الله، ما بالنا نرق على أولادنا، ولا يرقون علينا؟ قال: لأننا ولدناهم ولم يلدونا».

ثم الإدلال في الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أجد أمرين، إما إلى البر والإعظام، وإما إلى الجفاء والعقوق، فإن كان الولد رشيداً، وكان الأب برّاً عطوفاً، صار الإدلال برّاً وإعظاماً. وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل: أن النبي ﷺ قال لجرير بن عبد الله: «إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب، ويؤثره على نفسه عند النصب والسقب، فإن المكافئ ليس بالواصل، ولكن الواصل من إذا قُطعت راحته وصلها». وإن كان الولد غاوياً، أو كان الوالد جافياً، صار الإدلال قطيعة وعقوقاً. ولذلك قال النبي ﷺ: «رحم الله امرأ أعان ولده على بره». وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود. فقال: ريحانة أشمتها، ثم هو عن قريب ولد باراً، أو عدو ضاراً. وقد قيل في منشور الحكم: العقوق ثكل من لم يتكل. وقال بعض الحكماء: ابنك ريحانك سبعاً، وخادمك سبعاً، ووزيرك سبعاً، ثم هو صديق أو عدو.

وأما المناسيون: فهم من عدا الأباء والأبناء، ممن يرجع بتعصيب أو رحم، والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصر، وهي أدنى رتبة الألفة، لأن الألفة تمنع من التهضم والخمول معاً، والحمية تمنع من التهضم، وليس لها في كراهة الخمول نصيب، إلا أن يقترن بها ما يبعث على الألفة. وحمية المناسيين إنما تدعو إلى النصر على البعداء والأجانب، وهي معرضة لحسد الأذاني والأقارب، موكولة إلى منافسة صاحب بالصاحب، فإن حرست بالتواصل والتلاطف، تأكدت أسبابها، واقترن بحمية النسب مضافة المودة، وذلك أوكد أسباب الألفة. وقد قيل لبعض قريش: أيها أحب إليك: أخوك أو صديقك؟ قال: أخي إذا كان صديقاً. وقال مسلمة بن عبد الملك: العيش في ثلاث: سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل. وقال بعض الحكماء: البعيد قريب بمودته، والقريب بعيد بعداوته. وإن أهملت الحال بين المناسيين، ثقة بلحمة النسب، واعتماداً على حمية القرابة، غلب عليها مقت الحسد، أو منازعة التنافس، فصارت المناسبة عداوة، والقرابة بعداً. وقال الكندي في بعض رسائله: الأب رب، والولد كمد، والأخ فخ، والعم غم، والإخال وبال، والأقارب عقارب.

وقال عبد الله بن المعتز:

لُحُومُهُمْ لَحِمِّي وَهُمْ يَأْكُلُونَهُ وما داهيات المرء إلا أقاربُهُ

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام، وأثنى على واصلها. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] قال المفسرون: هي الرِّحِم التي أمر الله بوصلها، ويخشون ربهم، في قطعها، ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها. وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: أنا الرحمن، وهي الرِّحِم، اشتقت اسمها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته». وروى عنه ﷺ أنه قال: «صلة الرِّحِم مناة للعدد، مثرة للمال، محبة في الأهل، مناسة في الأجل». وقال بعض الحكماء: بلُّوا أرحامكم بالحقوق، ولا تحفوها بالعقوق. وقال بعض البلغاء: صلوا أرحامكم، فإنها لا تبلى: عليها أصولكم، ولا تهضم عليها فروعكم. وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك، ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك. وقال

بعض الفصحاء : من وصل رحمه وصله الله ورحمه ، ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره .
وقال محمد بن عبد الله الأزدي :

وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مُنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ
وَلَكِنْ أَوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِيُرجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَلَا يَسْتَوِي فِي الْحُكْمِ عَبْدَانِ : وَاصِلٌ وَعَبْدٌ لِأَرْحَامِ الْقَرَابَةِ قَاطِعُ

وأما المصاهرة : وهي الثالث من أسباب الألفة ، فلأنها استحداث مواصله ، وتمازج مناسبة ، صدرًا عن رغبة واختيار ، وانعقادا عن خيرة وإيثار ، فاجتمع فيها أسباب الألفة ، ومواد المصاهرة قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] ، يعني بالمودة المحبة ، وبالرحمة الحنو والشفقة ، وهما من أوكد أسباب الألفة . وفيها تأويل آخر ، قاله الحسن البصري رحمه الله : إن المودة النكاح ، والرحمة الولد . وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] . اختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود : هم أختان الرجل على بناته . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : هم ولد الرجل ، وولد ولده . ورؤي عنه : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، وسُموا حفدة : لحفديهم في الخدمة ، وسرعته في العمل . ومنه قولهم في القنوت : وإليك نسعى ونحفد : أي نسرع إلى العمل بطاعتك .

ولم تزل العرب تجتذب البعداء ، وتتألف الأعداء بالمصاهرة ، حتى يرجع النافر مؤانسًا ، ويصير العدو موليًا ، وقد يصير للصهر بين الاثنين ، ألفة بين القبيلتين ، وموالاتة بين العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية : أنه قال : كان أبغض خلق الله عز وجل إليّ آل الزبير ، حتى تزوجت منهم « رَمْلَةً » ، فصاروا أحب خلق الله عز وجل إليّ ، وفيها يقول :

أَحَبُّ بَنِي الْعَوَّامِ طُرًّا لِأَجْلِهَا وَمِنْ أَجْلِهَا أَحَبَّتْ أَخْوَالَهَا كُلِّهَا
فَإِنْ تُسَلِّمِي نُسَلِّمُ وَإِنْ تَتَنَصَّرِي يَخْطُ رَجَالٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ صُلْبًا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته ، لما يستنزله الميل إليها من المتابعة ، ويجتذبه الحب لها من الموافقة ، فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً ، ولا إلى المباعدة والمشاقة طريقاً .

وإذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة، فقد ينبغي لعقدها أحد خمسة أوجه، وهي: المال، والجمال، والدين، والألفة، والتعفف. وقد روى سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها؛ فعليك بذات الدين، ترَبَّتْ يداك». فإن كان عَقْدُ النكاح لأجل المال، وكان أقوى الدواعي إليه، فالمال إذن هو المنكوح، فإن اقترن بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف، جاز أن يلبث العقد، وتدوم الألفة، فإن تجرّد عن غيره من الأسباب، وعَرِيَ عما سواه من المواد، فأخلق بالعقد أن ينحل، وبالألفة أن تزول، ولا سيما إذا غلب الطمع، وقلّ الوفاء، لأن المال إن وُصِلَ إليه، فقد ينقضِي سببُ الألفة به، فقد قيل: مَنْ وَدَّكَ لشيءٍ وَلَّى مع انقضائه، وإن أعوز الوصول إليه، وتعدرت القدرة عليه، أعقب ذلك استهانة الآيس، بعد شدّة الأمل، فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع، فصارت الوصلة فُرقة، والألفة عداوة. وقد قيل: من ودَّك طمعاً فيك، أبغضك إذا أيس منك. وقال عبد الحميد: من عظمك لإكثارك، استقلك عند إقلالك. فإن كان العقد رغبة في الجمال، فذلك أدوم للألفة من المال، لأن الجمال صفة لازمة، والمال صفة زائلة. ولذلك قيل: حُسْنُ الصورة أوّلُ السعادة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم النساء بركةً أحسنهنَّ وجهاً، وأقلهنَّ مهراً»، فإن سلمت الحال من الإدلال، المفضي إلى الملأل، استدامت الألفة، واستحكمت الوصلة. وقد كانوا يكرهون الجمال البارع: إما لما يحدث عنه من شدّة الإدلال، وقد قيل: مَنْ بَسَطَهُ الإدلال، قبضه الإدلال، وإما لما يخاف من مِحنة الرغبة، وبلوى المنازعة.

وقد حكى أن رجلاً شاور حكماً في التزوج، فقال له: افعل، وإياك والجمال البارع. فإنه مرعى أنيق. فقال الرجل: وكيف ذلك؟ قال: كما قال الأوّل:

وَلَنْ تُصَادَفَ مَرَعَى مُرْعَاً أَبَداً إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثَارَ مُنْتَجَعٍ

وإما لما يخافه اللبيب من شدّة الصبوة، ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة، وقد قال بعض الحكماء: إياك ومخالطة النساء، فإنّ لحظ المرأة سهم، ولفظها سم. ورأى بعض الحكماء صياداً يكلم امرأة. فقال: يا صياد، احذر أن تُصاد. وقال سليمان بن

داود عليها السلام لابنه : امش وراء الأسد ، ولا تمش وراء المرأة ؛ وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تقول هذا البيت :

إِنَّ النِّسَاءَ رِيَاحِينَ خُلِقْنَ لَكُمْ وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرِّيَاحِينَ
فقال رضي الله عنه :

إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينَ خُلِقْنَ لَنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيَاطِينِ
وإن كان العقد رغبة في الدين ، فهو أوثق العقود حالا ، وأدومها ألفة ، وأمدّها بدءاً وعاقبة ، لأن طالب الدين مُتَّبِعٌ له ، ومن اتَّبَعَ الدين انقاد له ، فاستقامت له حاله ، وأمين زكّله ، ولذلك قال النبي ﷺ : « فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبْتُ يَدَاكَ » ! وفيه تأويلان : أحدهما : تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين . والثاني : أنها كلمة تذكر للمبالغة ، ولا يراد بها سوء . كقولهم : ما أشجعهُ ، قاتله الله !

وإن كان العقد رغبة في الألفة ، فهذا يكون على أحد وجهين : إما أن يُقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين ، والمظاهرة بتناصر الفئتين ، وإما أن يُقصد به تألف أعداء متسلطين ، استكفاء لعاديتهم وتسكيناً لصولتهم . وهذان الوجهان قد يكونان في الأمائل ، وأهل المنازل ، وداعي الوجه الأول : هو الرغبة ، وداعي الوجه الثاني : هو الرهبة ، وهما سببان في غير المتناكحين ، فإن استدّام السبب ، دامت الألفة ، وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة ، خيف زوال الألفة ، إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها ، والمقرّبة لها .

وإن كان العقد رغبة في التعفّف ، فهو الوجه الحقيقيّ المبتغى بعقد النكاح ، وما سوى ذلك فأسباب مُعلّقة عليه ، ومضافة إليه . وروى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ ﴾ . قال النبي ﷺ : « خَلَقَ الرَّجُلَ مِنَ التُّرَابِ فَهَمَّهُ فِي التُّرَابِ ، وَخَلَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ فَهَمُّهَا فِي الرَّجُلِ » وروى عطية بن بشر ، عن عكّاف بن رفاعة الهلاليّ : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ : يَا عَكَّافُ ، أَلَيْكَ زَوْجَةٌ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَأَنْتَ إِذَنْ مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ ؛ إِنْ كُنْتَ مِنْ رُهْبَانِ النَّصَارَى فَأَلْحَقْ بِهِمْ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَمَنْ سُنَّتِنَا النَّكَاحَ » فكان هذا القول منه حثّاً على التعفّف عن الفساد ، وباعثاً على التكاثّر بالأولاد . ولهذا المعنى كان النبي ﷺ

يقول للْقُفَال من غَرَّوهم: « إذا أَفْضَيْتُمْ إلى نَسَائِكُمْ، فَالْكَيْسَ الْكَيْسَ »؛ يعني في طلب الولد. فلزم حينئذ في عَقْد التعفف، تحكُّم الاختيار فيه، والتَّماس الأَدْوَم من دواعيه، وهي نوعان: نوع يمكن حصر شروطه، ونوع لا يمكن، لاختلاف أسبابه، وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة فيه فتلاثة شروط:

أحدها: الدينُ المفضي إلى الستر، والعفاف المؤدِّي إلى القناعة والكفاف. قال أبو هريرة رضي الله عنه: لا يَفْرَكُ مؤْمَنٌ مُؤْمِنَةً، إن كره منها خُلُقًا، رضي منها خُلُقًا.

وخطب رجل من عبدالله بن عباس رضي الله عنها يتيمة كانت عنده فقال: لا أرضاها لك. قال: ولم وفي دارك نشأت؟ قال: إنها تَتَشَرَّف. قال: لا أبالي. فقال: الآن لا أرضاك لها. وفي معنى هذا قول بعض العلماء: من رَضِيَ بصحبة من لا خير فيه، لم يرض بصحبته من فيه خير.

والشرط الثاني: العقل الباعث عن حسن التقدير، والأمر بصواب التدبير. فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « العقل حيث كان أُلُوف ومألوف ». ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: عليكم بالودود الولود، ولا تنكحوا الحمقاء، فإن صحبتها بلاء وولدها ضاع ».

والشرط الثالث: الأكفاء الذين يَنْتَفِي بهم العار. ويحصل منهم الاستكثار. فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « تخيروا لِنُطْفِكُمْ، ولا تَضَعُوهَا إِلَّا فِي الْأَكْفَاء ». ورُوِيَ أن أَكْثَم بن صَيْفِي قال لولده: يا بني، لا يَحْمِلَنَّكُمْ جِمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مَدْرَجَةٌ للشرف. وقال أَبُو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ صغارا وكبارا، وقبل أن تُولِدُوا. قالوا: وكيف أَحْسَنْتَ إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخذت لكم من الأمهات من لا تُسَبُّون بها. وأنشد الرياشي:

فأول إحساني إليكم تَخْيِيرِي لماجدة الأعراق بادي عَفَافِهَا

وقد ينضم إلى هذه الشروط من صفات الذات، وأحوال النفس، ما يلزم التحرز منه. لبعد الخبر عنه، وقلة الرُّشْد فيه، فإن كوامن الاخلاق، بادية في الصُّور

والأشكال، كالذي رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال لزید بن حارثة^(١): «تَزَوَّجْتَ يا زید؟ قال: لا قال: تزَوِّجْ تَسْتَعْفِفْ مع عِفَّتِكَ، ولا تتزوج من النساء خسة. قال: وما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: لا تَزَوِّجَنَّ شَهْبَرَةَ، ولا لَهْبَرَةَ، ولا نَهْبَرَةَ، ولا هَيْذَرَةَ، ولا لَفُونًا». قال: يا رسول الله، ما أَعْرِفُ مما ذَكَرْتَ شيئاً. قال عليه الصلاة والسلام: أما الشهيرة: فالزرقاء البذية؛ وأما اللّهبة: فالطويلة المهزولة، وأما النّهرة: فالعجوز المدبرة، وأما الهيدرة: فالقصيرة الدميمة. وأما اللّفوت: فذات الولد من غيرك».

وقال شيخ من بني سليم لابنه: يا بُني، إياك والرّقوب الغضوب القطوب الرّقوب: التي تراقبه حتى يموت، فتأخذ ماله. وأوصى بعض الأعراب ابنه في التزويج. فقال: إياك والحنانة والمنانة والأثانة. فالحنانة التي تحنّ لزوجة كان لها، والمنانة: التي تثنّ على زوجها بمالها. والأثانة: التي تثنّ كسلًا وتمازضا.

وقال أوفي بن ذلهم: النساء أربع: فمنهنّ ممّمع، لها شيئها أجمع، ومنهنّ ممتنع: تُضّر ولا تنفع، ومنهنّ مصدّع: تفرّق ولا تجمع، ومنهنّ غيث وقع في بلد فأمرع. وقال الشاعر:

أَرَى صَاحِبَ النِّسْوَانِ يَحْسِبُ أَنَّهَا سَوَاءٌ، وَبَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدٌ
فَمِنْهُنَّ جَنَاتٌ تَفِيءُ ظِلَالُهَا وَمِنْهُنَّ نِيرَانٌ لَهْنٌ وَقُودٌ
وَأَنشَدَ أَبُو الْعِيْنَاءِ، عَنِ أَبِي زَيْدٍ:

إِنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبْتَنَ مَعًا مِنْهُنَّ مُرٌّ وَبَعْضُ الْمُرِّ مَأْكُولٌ
إِنَّ النِّسَاءَ وَلَوْ صَوَّرَنَ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِنَّ مِنْ هَفَوَاتِ الْجَهْلِ تَخْيِيلٌ
إِنَّ النِّسَاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ، لَا بَدَّ مَفْعُولٌ
وَمَا وَعَدْتِكَ مِنْ شَرٍّ وَقَيْنَ بِهِ وَمَا وَعَدْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَمَمْطُولٌ

فأما النوع الآخر، وهو الذي لا يمكن حصر شروطه، فلأنه قد يختلف باختلاف الأحوال، ويتنقل بتنقل الإنسان والأزمان، وإنه لا يستغنى فيه عن موافقة النفس، ومتابعة الشهوة، ليكون أدام لحال الألفة، وأمدّ لأسباب الوصلة، فإن الرأي المعلول

(١) هو مولى رسول الله ﷺ وخادمه «أصله من اليمن» وكان النبي يحبه بحبة الولد.

لا يَبْقَى على حاله ، والميل المدخول لا يدوم على دَخَله ، فلا بد أن ينتقل إلى إحدى حالتين . إمّا إلى الزيادة والكمال ، وإمّا إلى النقصان والزوال .

حُكِيَ أن رجلاً قال لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : إني أُحِبُّك وأُحِبُّ معاوية . فقال رضي الله عنه : أما الآن فأنت أعور . فإمّا أن تَبْرَأ ، وإمّا أن تَعْمَى .

فإذا كان كذلك ، فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع ، فإنه لا يخلو من ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يكون العقد لطلب الولد ؛ والأحدُ فيه التماس الحداثة والبَكَارة ، لأنها أخصُّ بالولادة ، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بالأبكار ، فإنهن أعذب أفواه ، وأنقى أرحاماً ، وأرضى باليسير » . ومعنى قوله : « أنتن أرحاماً » : أي أكثر أولاداً . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : عليكم بالأبكار ، فإنهن أكثر حبّاً ، وأقل خناً ، وهذه الحال هي أولى الأحوال الثلاث ، لأن النكاح موضوع لها ، والشرع وارد بها . وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « سَوَداءٌ ولود : خير من حسناء عاقر » . والعرب تقول في أمثالها : من لا يلد لا وُلِد . وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأجانب ، ويرون أن ذلك أنجب للولد ، وأبهى للخلقة ، ويحتنبون نكاح الأهل والأقارب ، ويرونه مُضِرّاً بخلق الولد ، بعيداً من نجابته . رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « اغتربوا لا تُضَوُّوا » ^(١) . ورُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : يا بني السائب ، قد ضَوَيْتَ ، فأنكحوا في الغرائب . وقال الشاعر :

تجاوزتُ بنتَ العمِّ وهِيَ حَبِيبَةٌ مخافةُ أن يَضُويَ عَلَيَّ سَلِيلِي

وكانت حكماء المتقدمين يَرَوْنَ أن أنجب الأولاد خُلُقاً وخُلُقاً من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين ، وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين . والعرب تقول : إن ولد العَيرَى لا ينجب ، وإن أنجب النساء الفَرُوك . وقالوا : إن الرجل إذا أكره المرأة وهي مدْعورة ، ثم أذكرت أنجبت .

والحالة الثانية : أن يكن المقصودُ به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل ، فهذا

(١) أي نزوجوا الغريبات ، لئلا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي مهازيل .

وإن كان مختصاً بمعاناة النساء ، فليس بألزم حالتي الزوجات ، لأنه قد يجوز أن يعانیه غيرهن من النساء ، ولذلك قيل : المرأة ریحانة ، وليست بقهرمانة . وليس في هذا القصد تأثير في دين ، ولا قدح في مروءة ، والأحد في مثل هذا التماس ذوات الأسنان والحنكة ، ممن قد خَبَرَن تدبير المنازل ، وعرفن عادات الرجال ، فإنهن أقوم بهذه الحال .

والحالة الثالثة : أن يكون المقصود به الاستمتاع ، وهي أذم الأحوال الثلاث ، وأوهنها للمروءة . لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ، ويتابع شهوته الذميمة ، وقد قال الحارث بن النضر الأزدي : شرُّ النكاح نكاح الغُلْمة ، إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها ، بالإضعاف لها عند الغلبة ، أو تسكين النفس عند المنازعة ، حتى لا تطمح له عين لربة ، ولا تنازعها نفس إلى فجور ، ولا يلحقه في ذلك ذم ، ولا يناله وصم ، وهو بالحمد أجدر ، وبالثناء أحق . ولو تنزه في مقل هذه الحال عن استبدال الحرائر إلى الإماء . كان أكمل لمروءته ، وأبلغ في صيانه . وهذه الحال تقفُو على شهوات النفوس : لا يمكن أن يرجح فيها أوْلَى الأمور ، وهي أخطر الأحوال بالمنكوحه ، لأن للشهوات غايات متناهية ، يزول بزوالها ما كان متعلقا بها ، فتصير الشهوة في الابتداء ، كراهية في الانتهاء ، ولذلك كَرِهت العرب البنات ووأدَّتْهن ، إشفاقا عليهن ، وحمية لهن من أن يتدنَّهن اللئام بهذه الحال ، وكان من تحوَّب من قتل البنات لرقه ومحبة ، كان موتهن أحب إليه ، وآثر عنده . ولما خُطِبَ إلى عقيل بن عُلْفَة ^(١) ابنته الجرباء قال :

إني وإن سيقَ إليّ المهرُ
ألفٌ وعيدانٌ ودَوْدٌ عَشْرُ
أحبُّ أصهارِي إليّ القَبْرُ

وقال عُبَيْدُ اللهِ بن عبد الله بن طاهر :

لكلّ أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حِمِدَ الصَّهْرُ
فبعلٍ يراعيها وخِذْرٌ يَكْنِها وقبرٌ يُوارِيها وأفضلها القَبْرُ

(١) ابن الحارث المري البربوعي ، من شعراء الدولة الأموية ، وهو من بيت شرف في قومه ، وكانت قریش ترغب في مصاهرته ، وتزوج يزيد بن عبد الملك ابنته الجرباء . [انظر منهاج اليقين] .

فصل: وأما المؤاخاة بالمودة: وهي الرابع من أسباب الألفة، فلأنها تكسب صادق المهر إخلاصاً ومُصافاة، وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومُحاماة، وهذا أعلى راتب الألفة، ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه؛ لتزيد ألفتهم، ويقوى ضافُهم وتناصرُهم. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بإخوان الصدق، فإنهم زينة في الرخاء، وعصمة في البلاء». ورُوي أبو الزبير عن سهل بن سعد: أن النبي ﷺ قال: «المرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الإخوان جلاء الأحزان. وقال خالد بن صفوان: إن أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجزَ منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال عليّ كرم الله وجهه لابنه الحسن: يا بنيّ، الغريب من ليس له حبيب. وقال ابن المعتز: من اتخذ إخواناً كانوا له أعواناً. وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر أخ وفيّ. وقال بعض البلغاء: صديق مساعد: عُصْد وساعد. وقال بعض الشعراء:

هُمُومَ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ وهمي من الدنيا صديقٌ مساعدٌ
نكون كروح بين جسمين قُسمتْ فجسماهما جسمان والروح واحدٌ
وقيل: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه، والعدوّ عدوّاً لعدّوه عليك. وقال ثعلب:
إنما سمي الخليل خليلاً، لأن محبته تتخلّل القلب، فلا تدع فيه خلاً إلا ملأته.

وأنشد الرياشي قول بشار:

قد تخلّلتِ مسلِكَ الرُّوحِ مِنِّي وبه سُمِّيَ الخليلُ خَليلاً
والمؤاخاة في الناس قد تكون على وجهين: أحدهما: أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار.

والثانية: مكتسبة بالقصد والاختيار. فأما المكتسبة بالاتفاق، فهي أوكد حالا، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها، والمكتسبة بالقصد تُعقّد لها أسباب تنقاد إليها، وما كان جارياً بالطبع، فهو أَلزَمُ مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب بالاتفاق، ثم نُعقبه بالوجه الثاني، المكتسب بالقصد. أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب

نبتدىء بها ، ثم ننتقل في غاية أحواله المحدودة إلى سبع مراتب ، ربما استكملتهن ، وربما وقفت على بعضهن ، ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص ، وسبب موجب . قال الشاعر :

مَا هَوَى إِلَّا لَهُ سَبَبٌ يَبْتَدِئُ مِنْهُ وَيَنْشَعِبُ

فأول أسباب الإخاء التجانس في حال يجتمعان فيها ، ويأتلفان بها ، فإن قويّ التجانس قوي الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفا ، ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف ، وإنما كان ذلك كذلك ، لأن الائتلاف بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس ، فإذا عدم التجانس من وجه ، انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف ، فثبت أن التجانس وإن تنوع أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف . وقد رَوَى يحيى بن سعيد ، عن عمرو ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه قال : « الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وهذا واضح . وهي بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة ، وقيل في منشور الحكم : الأضداد لا تتفق ، والأشكال لا تفرق .

وقال بعض الحكماء : بحسن تشاكل الإخوان يلبث التواصل . ول بعضهم :

فلا تحتقرُ نفسي وأنتَ خليلُها فكلُّ امرئٍ يصبو إلى مَنْ يشاكلُ

وقال آخر :

فقلتُ أخي قالوا أخٌ من قرابةٍ فقلتُ لهم : إن الشُّكُولَ أقاربُ
نسييَ في رأيي وعزمي وهِمِّي وإن فرقتُنا في الأصولِ المناسبُ

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين ، وهي المرتبة الثانية من مراتب الإخاء ، وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منها ، فصارت المواصلة نتيجة التجانس ، والسبب فيه وجود الاتفاق ، لأن عدم الاتفاق منقّر . وقد قال الشاعر :

الناسُ إن وافقتهم عذبُوا أولاً فإن جَنَاهُمْ مُرٌّ
كم من رياضٍ لا أنيسَ بها تُركتُ لأنَّ طريقها وعُرٌّ

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة ، وسببها الانبساط ، ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة ، وهي المصافاة ، وسببها خلوص النية ؛ ورتبة خامسة ، وهي المودة ، وسببها الثقة ؛

وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء ، وما قبلها أسباب تعود إليها ، فإن اقترن بها المعاضدة ، فهي الصداقة ؛ ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة ، وهي المحبة ، وسببها الاستحسان ، فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة وهي الاعظام ؛ وإن كان الاستحسان للصورة الحركات ، حدثت رتبة ثامنة ، وهي العشق ، وسببه الطمع ؛ وقد قال المأمون رحمه الله تعالى :

أَوَّلُ الْعَشَقِ مُزَاحٌ وَوَلَعٌ ثُمَّ يَسْزِدَادُ إِذَا زَادَ الطَّمَعُ
كُلٌّ مِنْ يَهْوَى وَإِنْ عَالَتْ بِهِ رَتَبَةُ الْمَلِكِ لِمَنْ يَهْوَى تَبَعٌ

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة معدودة ، لأنها قد تؤدي إلى مازجة النفوس ، وإن تميزت ذواتها ، وتفضي إلى مخالطة الأرواح ، وإن تفرقت أجسادها ، وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندي : الصديق إنسان هوأنت إلا أنه غيرك ، ومثل هذا القول المروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضا ، وكتب له بها كتابا ، وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأثنى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه ، فامتنع عليه ، فرجع طلحة مغضبا إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : والله ما أدري : أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : بل عمر ، لكنه أنا .

وأما المكتسبة بالقصد ، فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها ، وقد يكون الداعي إليها من وجهين : رغبة وفاقية . فأما الرغبة فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخوانه ، ويتوسم بحمائل يدعو إلى اصطفاؤه . وهذه الحالة أقوى من التي بعدها ، لظهور الصفات المطلوبة ، من غير تكلف لطلبها ، وإنما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها ، فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ، ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه ، والمتكلف للشيء مناف له ، إلا أن يدوم عليه مستحسنا له في العقل ، أو متدينا به في الشرع ؛ فيصير متطعنا به ، لا مطبوعا عليه ، لأنه قد تقدم من كلام الحكماء : ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطبع ، ثم نقول : من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع ، وإنما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع ، وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع ، حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب

عليه ، مما كان مطبوعاً عليه ، إذا خالف العادة ، ولذلك قيل : العادة طبع ثان . وقال ابن الرومي رحمه الله :

واعلم بأن الناس من طينةٍ يصدّق في الثّلب لها الثّالبُ
لولا علاجُ الناس أخلاقهم إذن لفاح الحمأ اللازبُ

وأما الفاقة ، فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرتة ومُوالاته . وقد قالت الحكماء : من لم يرغب في ثلاث بُليّ يست : من لم يرغب في الإخوان بُليّ بالعداوة والخذلان . ومن لم يرغب في السلامة ، بُليّ بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بُليّ بالندامة والخسران . ولعمري إن إخوان الصديق من أنفس الذخائر ، وأفضل العُدَد ، لأنهم سُهّان النفوس ، وأولياء النوائب . وقد قالت الحكماء : رَبّ صديق أودُّ من شقيق . وقيل لمعاوية أيّأ أحبُّ إليك ؟ قال : صديق يُحبّيني إلى الناس . وقال ابن المعتز : القريب بعداوته بعيد ، والبعيد بمودّته قريب . وقال الشاعر :

لمودّة ممن يحبك مُخلصاً خيراً من الرّحم القريب الكاشح
وقال آخر :

يُخونك ذو القُرْبى مِراراً ورَبّاً وفي لك عند العهد من لا تناسبه
فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سَبَر أحوالهم قبل إخائهم ، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم ، لما تقدم من قول الحكماء : اسْبُرْ تَخْبُر . ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة ، ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع ، فإن الملقق مَصايد العقول ، والنفاق تدليس الفِطْن ، وهما سجيّتا المتصنّع ، وليس فيمن يكون النفاق والمَلَق بعضَ سجاياه خير يُرجى ، ولا صلاح يؤمّل . ولأجل ذلك قالت الحكماء : اعرّف الرجل من فعله ، لا من كلامه ، واعرّف محبته من عينه ، لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان : إنما نَفَقْتُ عند إخواني ، لأنّي لم أستعمل معهم النفاق ، ولا قصّرت بهم عن الاستحقاق . وقال حمّاد (١) :

(١) هو الراوية حماد عجرد بوزن جعفر ، كان ماجناً خليعاً ظريفاً .

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَيْسَ تُنْكِرُهُ مَا دُمْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
مُتَّصِعٍ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ يَلْقَاكَ بِالترْحِيبِ وَالْبُشْرِ
فَإِذَا عَدَا وَالدَّهْرُ ذُو غَيْرِ دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ
فَارْفُضْ بِإِجَالِ مَوَدَّةٍ مَنْ يَقْلِي الْمَقْلَ وَيَعْشَقُ الْمُثْرِي
عَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةٌ فِي الْعُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَالْيُسْرِ

على أن الإنسان موسوم بسياء من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب. قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صاحب مناسب. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما من شيء أدل على شيء، ولا الدخان على النار، من صاحب على صاحب. وقال بعض الحكماء: اعرف أخاك بأخيه قبلك. وقال بعض الأدباء: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقرينه. وقال عدي بن زيد:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمَقَارَنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرِّدِي

فلزم من هذا الوجه أيضاً أن يتحرز من دُخْلَاء أهل السوء، ويجانب أهل الريب، ليكون موفور العرض، سليم الغيب، فلا يلام بلامه غيره، ولهذا قيل: التثبت والارتياء، ومداومة الاختبار والابتلاء، متعذر بل مفقود. وقد ضرب ذو الرمة مثلاً بالماء، فيمن حسن ظاهره، وخبت باطنه. فقال:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا
وَنَظَرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ إِلَى رَجُلٍ سَوَّ حَسَنَ الْوَجْهِ. فَقَالَ: أَمَا الْبَيْتُ فَحَسَنٌ، وَأَمَّا السَّاكِنُ فَرَدِي، فَأَخَذَ حَفْظَةً^(١) هَذَا الْمَعْنَى. فَقَالَ:

رَبِّ مَا أَبْيَنَ التَّبَايُنَ فِيهِ مَنْزِلٌ عَامِرٌ وَعَقْلٌ خَرَابُ
وَأُنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:

لَا تَرُكَنَّ إِلَى ذِي مَنْظَرٍ حَسَنِ فَرُبَّ رَائِعَةٍ قَدْ سَاءَ مَخْبَرُهَا
مَا كُلُّ أَصْفَرَ دِينَارٍ لَصْفَرَتِهِ صَفَرُ الْعَقَارِبِ أَرْدَاهَا وَأَنْكَرُهَا

(١) حفظة: لقب أحمد بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، كان شاعراً أديباً مغنياً جاحظ العينين.

ثم قد تقدم من قول الحكماء : من لم يقدم الإمتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس ، أثمرت مودته ندماً . وقال بعض البلغاء : مُصَارَمَةٌ قبل اختبار ، أفضل من مؤاخاة على اغترار . وقال بعض الأدباء : لا تثق بالصدیق قبل الخبرة ، ولا تقع بالعدو قبل القدرة . وقال بعض الشعراء :

لا تَحْمَدَنَّ أَمْرًا حَتَّى تَجَرِّبَهُ ولا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجَرِّيبِ
فَحَمْدُكَ الْمَرْءَ مَا لَمْ تَبْلُهُ خَطَأً وَذَمُّهُ بَعْدَ حَمْدٍ شَرٌّ تَكْذِيبِ

فإذن قد لزم من هذين الوجهين سبب الإخوان قبل إخائهم ، وخبرة أخلاقهم قبل اصطفتائهم ، فالخصال المعتبرة في إخائهم بعد المجانسة التي هي أصل الاتفاق ، أربع خصال :

فالخصلة الأولى : عقل موفور ، يهدي إلى مرشد الأمور ، فإن الحمق لا تثبت معه مودة ، ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « الْبَدَاءُ لُؤْمٌ ، وصحبة الأحق شُؤْمٌ » . وقال بعض الحكماء : عداوة العاقل ، أقل ضرراً من مودة الأحمق ، لأن الأحق ربما ضرّ وهو يقدر أن ينفع ، والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرتّه ، فمضرتّه لها حد يقف عليه العقل ، ومضرة الجاهل ليست بذات حد ، والمحدود أقل ضرراً مما هو غير محدود . وقال المنصور للمسيّب بن زهير : ما مادة العقل ؟ فقال : مجالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء : من الجهل صحبة ذوي الجهل ، ومن المحال مجادلة ذوي المحال . وقال بعض الأدباء : من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز ، لم يخل أن يكون صديقاً جاهلاً ، أو عدواً عاقلاً ، لأنه يشير بما يضرّك ، ويحتال فيما يضع منك . وقال بعض الشعراء :

إِذَا مَا كُنْتَ مَتَخِذًا خَلِيلًا فَلَا تَتَّقَنَّ بِكُلِّ أَخِي إِخَاءَ
فَإِنْ خَيْرَتْ بَيْنَ النَّاسِ فَالْصَّقْ بِأَهْلِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَالْحِيَاءَ
فَإِنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذَا مَا تَفَاضَلَتْ الْفُضَائِلُ مِنْ كِفَاءِ

والخصلة الثانية : الدين الواقف بصاحبه على الخيرات ، فإن تارك الدين عدو لنفسه ، فكيف يُرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء : اصْطَفِ مِنَ الْإِخْوَانِ ذَا الدِّينِ وَالْحَسَبِ ، وَالرَّأْيِ وَالْأَدَبِ ، فَإِنَّهُ رِذَاءٌ لَكَ عِنْدَ حَاجَتِكَ . وَتَدْنٌ عِنْدَ نَائِسِكَ ،

وأنس عند وحشك، وزَيْن عند عافيتك . وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أَخْلَاءُ الرِّخَاءِ هُمْ كَثِيرٌ وَلَكِنْ فِي الْبَلَاءِ هُمْ قَلِيلٌ
فَلَا يَغُرُّكَ خُلَّةٌ مَنْ تُوَ أَخِي فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةِ خَلِيلٍ
وَكُلُّ أَخٍ يَقُولُ أَنَا فِي وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ فَذَلِكَ لَمَّا يَقُولُ هُوَ الْقَوْلُ

وقال آخر :

مَنْ لَمْ تَكُنْ فِي اللَّهِ خُلَّتْهُ فَخَلِيلُهُ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ

والخصلة الثالثة : أن يكون محمود الأخلاق، مَرْضِي الفِعال، مؤثراً للخير، آمراً به، كارهاً للشر، ناهياً عنه، فإن مودة الشرير تُكْسِبُ العِدَاءَ، وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودة تجلب عداوة، وتورث مَذَمَّةً وملامة ؛ فإن المتبوع تابع صاحبه . وقال عبد الله بن المعتز : إخوان الشر كشجر النارج يُحْرَقُ بعضه بعضاً . وقال بعض الحكماء : مخالطة الأشرار على خَطَرٍ، والصبر على صحبتهم كركوب البحر ، الذي من سَلِمَ منه ببدنه من التلف فيه ، لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار . وقال بعض البلغاء : من خير الاختيار، صحبة الأخيار، ومن شر الاختيار، صحبة الأشرار .

وقال بعض الشعراء :

مَجَالِسَةُ السَّقْبَةِ سَقَاةُ رَأْيٍ وَمِنْ عَقْلِ مَجَالِسَةِ الْحَكِيمِ
فِيَانِكَ وَالْقَرِينَ مَعاً سِوَايَ كَمَا قَدْ الْأَدِيمُ مِنَ الْأَدِيمِ

والخصلة الرابعة : أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه، ورغبة في مؤاخاته، فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة، وأمدٌ لأسباب المصافات، إذ ليس كل مطلوب إليه طالب، ولا كل مرغوب إليه راغب، ومن طلب مودة ممتنع عليه، ورغب إلى زاهد فيه، كان مُعْتَى خائباً : كما قال البُحْثَرِيُّ :

وطلبتُ منك مودَّةً لم أعْطَهَا إِنْ الْمُعْتَى طَالِبٌ لَا يَظْفَرُ

وقال العباس بن الأحنف :

فإن كان لا يدنيك إلا شفاعتي فلا خير في ودّ يكون بشافع .
وأقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعاً فلا بدّ منسه مكراً غير طائع .

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان، وجب إخاؤه، وتعين اصطفاؤه، وبحسب وفورها فيه، يجب أن يكون الميل إليه، والثقة به، وبحسب ما يرى من غلبة إحداها عليه، يُجعل مستعملاً في الخلق الغالب عليه، فإن الإخوان على طبقات مختلفة، وأنحاء متشعبة، ولكل واحد منهم حال، يختص بها في المشاركة، وتُلَمَّه يَسُدّها في الموازنة والمظافرة، وليس تتفق أحوال جميعهم على حدّ واحد، لأن التباين في الناس غالب، واختلافهم في الشيم ظاهر. وقال بعض الحكماء: الرجال كالشجر: شرا به واحد، وثمره مختلف؛ فأخذ هذا المعنى منصور بن إسماعيل، فقال:

بنو آدم كالنبتِ ونبت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصندل والكافور والبان
ومنهم شجر أفضل ل ما يحبل قطران

ومن رام إخواناً تتفق أحوال جميعهم، رام متعذراً، بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه؛ إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الاستعانة به في كل حال، ولا المجبولون على الخلق الواحد، يمكن أن يتصرفوا في جميع الأعمال، وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف. وقد قال بعض الحكماء: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بُدّاً. وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء: لا يستغني عنه، وطبقة كالدواء: يُحتاج إليه أحياناً، وطبقة كالداء: لا يُحتاج إليه أبداً. ولعمري إن الناس على ما وصفهم، ولكن ليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين، وإنما يُداجون المودة استكفافاً لشَرِّهم، وتحرّزوا من مكاشفتهم، فدخلوا في عداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة. قال بعض الحكماء: مثل العدو الضاحك إليك، كالخنظلة الخضراء أوراقها، القاتل مذاقها. وقد قيل في منشور الحكم: لا تغترّ بمقاربة العدو،

فإنه كالماء ، الذي إن أطيل إسخانه بالنار ، لم يمنع من إطفائها . وقال يزيد بن الحكم
التقفي :

نُكاشِرُنِي ضِحْكًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ وَعَيْنُكَ تَبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِيٌّ
لِسَانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ عُلَقَمٌ وَشَرُّكَ مَبْسُوطٌ ، وَخَيْرُكَ مَلْتَوِيٌّ
فَلَبِستَ كَفَافًا كَانَ خَيْرُكَ كُلُّهُ وَشَرُّكَ عَنِي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مَرْتَوِيٌّ

فإذا خرج من كان كالداء من عِداد الإخوان ، فالإخوان هم الصنفان الآخران ،
من كان منهم كالغذاء ، لأن الحاجة إليه أعم ، وإذا تميز الإخوان وجب أن ينزل كل
منهم حيث نزلت به أحواله إليه ، واستقرت خِصاله وخلاله عليه ، فمن قويت أسبابه ،
قويت الثقة به ، وبجسب الثقة به ، يكون الركون إليه ، والتعويل عليه . وقال الشاعر :

مَا أَنْتَ بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا نُجَجُّ الْأُمُورَ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ
فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يُدْعَى الطَّيِّبُ لَشِدَّةِ الْأَوْصَابِ

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار
منهم أولى ، ليكونوا أقوى مَنعةً ويدا ، وأوفر تحبباً وتودداً ، وأكثر تعاوناً وتفقداً .
وقل لبعض الحكماء : ما العيش ؟ قال : إقبال الزمان ، وعز السلطان ، وكثرة الإخوان .
وقل : حلية المرء كثرة إخوانه . ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى ، لأنه أخف
أثقالاً وكلفاً ، وأقل تنازعاً وخُلُفاً . وقال الإسكندر : المستكثر من الإخوان من غير
اختيار : ، كالمستوقر من الحجارة . والمُقلِّل من الإخوان المتخير لهم ، كالذي يتخفف
الجوهر . وقال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه . وقال إبراهيم بن
العباس : مثل الإخوان كالنار : قليلها متاع ، وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومي في
هذا المعنى ونبه على العلة ، حيث يقول :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
وَدَعَ عَمَّكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٍ يُعَافُ وَكَمْ قَلِيلٍ مُسْتَطَابٌ
فَمَا اللَّجَجُ الْمَلَّاحُ بِمُرُويَاتٍ وَتَلَقَّى الرَّيِّ فِي النَّطْفِ الْعَذَابِ

وقال بعض البلغاء : ليكون غرض في اتخاذ الإخوان ، واصطناع النصحاء تكثير
لعدّة ، لا تكثير العدّة ، وتحصيل النفع ، لا تحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد ، خير
من ألف تُكثّر الأعداد .

وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة ، وأسباب المودة ، كان وفور
العقل ، وظهور الفضل ، يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه ، لأنه يروم مثله ، ويطلب
شكّله ، وأمثاله من ذوي العقل والفضل ، أقل من أصداده من ذوي الحق والنقص ،
لأن الخيار في كل جنس هو الأقل ، فلذلك قلّ وفور العقل والفضل . وقد قال الله
تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ [الحجرات :
٤] فقلّ بهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلّتهم ، وكثر إخوان ذوي النقص والجهل
لكثرتهم . وقد قال في ذلك الشاعر :

لكل امرئ شكّل من الناس مثله فأكثرهم شكلاً أقلهم عقلاً
وكل أناس ألفون لشكلهم فأكثرهم عقلاً أقلهم شكلاً
لأن كثير العقل لست بواجدٍ له في طريق حين يسلكه مثلاً
وكل سفيه طائشٍ إن فقدته وجدت له في كل ناحية عدلاً

وإذا كان الأمر على ما وصفنا ، فقد تنقسم أحوال من دخل في عدد الإخوان
أربعة أقسام : منهم من يُعين ويستعين ، ومنهم من لا يعين ولا يستعين ، ومنهم من
يستعين ولا يعين ، ومنهم من يعين ولا يستعين .

فأما المعين والمستعين ، فهو معاوض منصف ، يؤدّي ما عليه ، ويستوفي ماله ، فهو
كالمقرض : يُسعف عند الحاجة ، ويستردّ عند الاستغناء ، وهو مشكور في معونته ،
ومعذور في استعانته ؛ فهذا أعدل الإخوان .

وأما من لا يعين ولا يستعين ، فهو متروك ، قد منع خيرَه ، وقمع شره ، فهو لا
صديق يُرجى ، ولا عدوّ يُخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : التارك
للإخوان متروك . وإذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة : يروقك حسنّها ، ويخونك
نفعها ؛ فلا هو مذموم لقمع شره ، ولا هو مشكور لمنع خيرِه ، وإن كان باللوم أجدر ،
وقد قال الشاعر :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى له أحد يُزري عليه ويُكرِه
غير أن فساد الوقت وتغير أهله ، يوجب شكر من كان شره مقطوعاً ، وإن كان
خيرهُ ممنوعاً ، كما قال المتنبي :

إنّا لفى زمنٍ ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
وأما من يستعين ولا يعين ، فهو لئيم كَلٌّ ومهين مُستدلّ ، قد قطع عنه الرغبة ،
وبسط فيه الرّهبة ، فلا خيرهُ يُرجى ، ولا شره يؤمن ، وحسبك مهانةً من رجل مستثقل
عند إقلاله ، ويُستقلّ عند استقلاله ، فليس لمثله في الإخاء حظّ ، ولا في الوداد نصيب ،
وهو بمن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم ، ومن سمّهم لا من غذائهم .
وقال بعض الحكماء : شرّ ما في الكريم أن يمنعك خيرهُ ، وخير ما في اللئيم أن يكفّ عنك
شره . وقال ابن الرومي :

عذرنا النخل في إبداء شوكٍ يردّ به الأنامل عن جنّاه
فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكةً بلا ثمر نراه ؟

وأما من يعين ولا يستعين ، فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، وقد حاز فضيلتي
الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلاً في نائبة ، ولا يقعد عن نهضة في معونة ؛ فهذا أشرف
الإخوان نفساً ، وأكرمهم طبعاً ، فينبغي لمن أوجد له الزمان مثله - وقل أن يكون له
مثل ، لأنه البرّ الكريم ، والدّر اليتيم - أن يثني عليه خنصره ، ويعضّ عليه بناجذه ،
ويكون به أشدّ ضيقاً منه بنفائس أمواله ، وسنيّ ذخائره ، لأن نفع الإخوان عام ، ونفع
المال خاصّ ، ومن كان أعمّ نفعاً ، فهو بالإدخار أحق وقال الفرزدق :

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً والمال بعد ذهاب المال مكتسب
وقال آخر :

لكل شي عديمته عَوْضٌ وما لفقد الصديق من عَوْضٍ
ثم لا ينبغي أن يُزهد فيه ، لخلق أو خلقين ينكرهما منه ، إذا رضى سائر أخلاقه ،
وحيد أكثر شيمه ، لأن اليسير مغفور ، والكمال مُعَوِز . وقد قال الكندي : كيف تريد
من صديقك خلقاً واحداً ، وهو ذو طبائع أربع ؟ مع أن نفس الإنسان التي هي أخص

النفوس به ، ومدبرة باختياره وإرادته ، لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ، ولا تجيبه إلى طاعته في كل ما يحب ، فكيف بنفس غيره ؟ وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : معاتبه الأخ خيرٌ من فقدّه ، ومن لك بأخيك كله ؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى ، فقال أبو العتاهية :

أَخِيَّ مَنْ لَكَ مِنْ بَنِي الدُّنَى يَا بَكْلَ أَخِيكَ مَنْ لَكَ
فَاسْتَبِقْ بَعْضَكَ لَا يَمَلُّ لَكَ كُلُّ مَنْ لَمْ تُعْطِ كَلَّكَ
وقال أبو تمام الطائي :

مَا غَبَنَ الْمَغْبُونُ مِثْلَ عَقْلِهِ مَنْ لَكَ يَوْمًا بِأَخِيكَ كَلَّهُ

وقال بعض الحكماء : طلب الإنصاف ، من قلة الإنصاف . وقال بعض البلغاء : لا يزهدنك في رجل حمّدت سيرته ، وارتضيت وكبرته ، وعرفت فضله ، وبطنت عقله ، عيب خفيّ ، تحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوّة وسائله ، فإنك لن تجد ما بقيت مهذباً لا يكون فيه عيب ، ولا يقع منه ذنب ، فاعتبر بنفسك بعد ألاّ تراها بعين الرضا ، ولا تجري فيها على حكم الهوى ، فإن في اعتبارك بها ، واختبارك لها ، ما يؤيسك مما تطلب ، ويعطئك على من يُذنب . وقد قال الشاعر :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهُ ؟
وقال النابغة الذبياني :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهُ ؟

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختباره ، واختبار الخصال الأربع فيه ، لأن ما أعوز فيه معفو عنه ، وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة تجدها منه ، ولا أن تسيء الظن في كِبْوة تكون منه ، ما لم تتحقق تغيره ، وتتيقن تنكره ، وليُصرف ذلك إلى فترات النفوس ، واستراحات الخواطر ، فإن الإنسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به ، ولا يكون ذلك من عداوة لها ، ولا ملل منها . وقد قيل في منثور الحكم : لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه : يا بني من غضب من إخوانك ثلاث مرات ، فلم يقلّ فيك سوءاً ، فاتخذة لنفسك

خلاً. وقال الحسن بن وهب: من حقوق المودة أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان. وقد روي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فاصفح﴾ الصفيح الجميل [الحجر: ٨٥]. قال: الرضا بغير عتاب. وقال ابن الرومي:

هُمُ النَّاسُ وَالْدُنْيَا وَلَا بَدْءَ مِنْ قَدَى يَلْمُ بَعِينَ أَوْ يَكْدُرُ مَشْرَبَا
وَمِنْ قَلَّةِ الْإِنْصَافِ أَنْكَ تَبْتَغِي أَلْ مُهَذَّبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَسْتَ الْمُهَذَّبَا

وقال بعض الشعراء:

تَوَاصَلْنَا عَلَى الْإِيَامِ بَاقٍ وَلَكِنْ هَجَرْنَا مَطَرُ الرِّيعِ
يَرُوعُكَ صَوْبُهُ لَكِنْ تَرَاهُ عَلَى عِلَاتِهِ دَانِي النَّزُوعِ
مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَلْقَى غَضَاباً سِوَى ذَلِكَ الْمَطَاعِ عَلَى الْمَطِيعِ
وَأَنْشِدُنِي الْأَزْدِيَّ:

لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ صَدِيقٍ تَبَوَّءَ يَنْبُو الْفَتَى وَهُوَ الْجَوَادُ الْخَضِرُ
فَإِذَا نَبَا فَاسْتَبَقَهُ وَتَأْتَتْهُ حَتَّى تَفِيءَ بِهِ وَطَبْعُكَ أَكْرَمُ

وأما المملول، وهو السريع التغير، الوشيك التنكّر، فوداده خطر، وإخاؤه غرر، لأنه لا يبقى على حالة، ولا يخلو عن استحالة. وقد قال ابن الرومي:

إِذَا أَنْتَ عَاتَبْتَ الْمَلُولَ فَإِنَّهَا تَخْطُ عَلَى صُحُفٍ مِنَ الْمَاءِ أَحْرَفَا
وَهُوَ ارْعَوِ بَعْدَ الْعِتَابِ أَلَمْ تَكُنْ مَوَدَّتُهُ طَبْعاً فَصَارَتْ تَكْلُفَا

وهم نوعان: منهم من يكون مثله استراحة، ثم يعود إلى المعهود من إخائه، فهذا أسلم المملّين، وأقرب الرجلين، يسامح وقت استراحته، وحين فترته، ليرجع إلى الحسنى، ويتوب إلى الإخاء، وإن تقدم المثل بما نظمته الشاعر حيث قال:

وَقَالُوا: يَعُودُ الْمَاءُ فِي النَّهْرِ بَعْدَمَا عَقَّتْ مِنْهُ آثَارٌ وَجَعَتْ مِشَارِعُهُ
فَقُلْتُ: إِلَى أَنْ يَرْجِعَ الْمَاءُ عَائِداً وَيُعْشِبَ شَطَاهُ تَمُوتُ ضَفَادِعُهُ
لَكِنْ لَا يَطْرَحُ حَقَّهُ بِالتَّوَهُّمِ، وَلَا يُسْقِطُ جُرْمَتَهُ بِالظَّنُونِ. وقال الشاعر:

إِذَا مَا حَالَ عَهْدُ أَخِيكَ يَوْمًا وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ

فلا تعجل بلومك واستدمه . فإن أخا الحِفاظ المستديم
 فإن تك زلةً منه وإلا فلا تبعذ عن الخلق الكريم
 ومنهم من يكون مثله تركاً واطراحاً ، ولا يراجع إخاء ولا وداً ، ولا يتذكر
 حِفاظاً ولا عهداً ، كما قال أشجع بن عمرو السلمي :

إني رأيتُ لها مواصلةً كالسَّم تُفرِغه على الشَّهدِ
 فإذا أخذتُ بعهد ذمتها لعبَ الصدودُ بذلك العهدِ
 وهذا أذمَّ الرجلين حالا ، لأن مودته من وساوس الخطرات ، وعوارض الشهوات ،
 وليس إلا استدراك الحال معه ، بالإقلاع قبل المخالطة ، وحسن المتاركة بعد الورطة ،
 كما قال العباس بن الأحنف :

تداركتُ نفسي فعزَّيتها وبَغَضْتُها فيكَ آمالها
 وما طابت النفسُ عن سُلُوةٍ ولكن حَمَلْتُ عليها لها
 وما مثلَ مَنْ هذه حاله إلا كما قد قال إبراهيم بن هرمة :

فإنك واطراحك وصل سَلَمِي لأخرى في مودتها نُكُوبُ
 كشاقبةٍ لِحَلِي مستعارٍ . لأذنيها فشانها الثُّقُوبُ
 فأذت حَلِي جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها نُدُوبُ
 وإذا صفت له أخلاق من سبَّره ، وتمهدت إليه أحوال من خبَّره ، وأقدم على
 اصطفائه أخا ، وعلى اتخاذه خِدْناً ، لزمته حينئذ حقوقه ، ووجبت عليه حرُماته . وقال
 عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لا عبودية الرق : وقال بعض الحكماء : من
 جادلَكَ بمودته قد جعلكَ عديل نفسه .

فأول حقوقه اعتقاد مودته ، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير مُحَرَّم ، ثم نصحه في
 السرِّ والعلانية ، ثم تخفيف الأثقال عنه ، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة ، أو يناله من
 نكبة ، فإن مراقبته في الظاهر نفاق ، وتركه في الشدة لؤم . وقد قيل : « يا رسول الله ،
 أي الأصحاب خير ؟ قال : الذي إذا ذَكَرْتَ أعانَكَ وواساك ، وخير منه من إذا نسيت
 ذَكَرَكَ » . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : خير إخوانك من واساك ، وخير

منه من كافاك. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: اللهم إني أعوذ بك من لا يلتبس خالص مودتي، إلا بموافقة شهوتي، ومن ساعدني على سرور ساعتني، ولا يفكر في حوادث غدني. وقال بعض البلغاء: عقود الغادر محلولة، وعهوده مدخولة. وقال بعض البلغاء: ما ودك، من أهمل ودك، ولا أحبك، من أبغض حبك. وقال بعض الشعراء:

وكل أخ عند الهوينى ملاطفٌ ولكنما الإخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس: شر الإخوان من كانت مودته مع الزمان إذا أقبل، فإذا أدبر الزمان أدبر عنك، فأخذ هذا المعنى الشاعر، فقال:

شرُّ الأخلاء من كانت مودته مع الزمان إذا ما خاف أو رغباً
إذا وتَّرتَ أمراً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وتباً

وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته، فإن الإفراط داع إلى التقصير، ولأن تكون الحال بينهما نامية، أولى من أن تكون متناهية. وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً. وقال أبو الأسود الدؤلي:

وكن مُعدِّناً للخير وأصفح عن الأذى فإنك راء ما عملت وسامعٌ
وأحب إذا أحببت حُباً مُقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازعٌ
وأبغض إذا أبغضت غير مُباينٍ فإنك لا تدري متى أنت راجعٌ
وقال عدي بن زيد:

لا تأمنن من مُبغضٍ قرب داره ولا من مُحبٍّ أن يَمَلَّ قَبِيلُعدا
وإنما يلزم من حق الإخاء، بذل المجهود في النصيح، والتناهي في رعاية ما بينها من الحق، فليس في ذلك إفراط وإن تنهى، ولا مجاوزة حد، وإن كثر وأوفى، فتستوي حالتها في المغيب والمشهد، ولا يكون مغيبها أفضل من مشهدها وأولى، فإن فضل

المشهد على المغيب لؤم، وفضل المغيب على المشهد كرم، واستواؤهما حِفاظ. وقال بعض الشعراء :

عَلَيَّ لِإِخْوَانِي رَقِيبٌ مِنَ الصَّفَا تَبِيدُ اللَّيَالِي وَهَوَ لَيْسَ يَبِيدُ
يُذَكِّرُنِيهِمْ فِي مَعْنِي وَمَشْهَدِي فَيَسِيانَ مِنْهُمْ غَائِبٌ وَشَهِيدُ
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَبْرَهُ قَرِيباً وَأَنْ أَجْفُوهُ وَهُوَ بَعِيدُ

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه، غير مقلل ولا مكثر، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران، وكثرتها سبب الملل. وقد قال النبي ﷺ لأي هريرة رضي الله عنه :
« يا أبا هريرة: زُرْغَبًا تَزْدَدُ حُبًّا ». وقال لبيد :

تَوَقَّفَ عَنْ زِيَارَةِ كُلِّ يَوْمٍ إِذَا أَكْثَرْتَ مَلَكَ مَنْ تَزُورُ
وقال آخر :

أَقْلِلْ زِيَارَتَكَ الصَّدِيقَ وَلَا تَطْلُ هِجْرَانُهُ فَيَلْجَ فِي هِجْرَانِهِ
إِنَّ الصَّدِيقَ يَلْجُ فِي غُشْيَانِهِ لَصَدِيقِهِ، فَيَمِلُ مِنْ غُشْيَانِهِ
حَتَّى يَرَاهُ بَعْدَ طَوْلِ سُرُورِهِ بِمَكَانِهِ مَتَشَاوِلًا بِمَكَانِهِ
وَإِذَا تَوَانَى عَنْ صِيَانَةِ نَفْسِهِ رَجُلٌ تَنْقُصَ وَاسْتُخِفَّ بِشَأْنِهِ

وبحسب ذلك فليكن في عتابه، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق، وقد قيل : عِلَّةُ المَعَادَةِ، قِلَّةُ المَبَالَاةِ، بَلْ تَتَوَسَّطُ حَالَتَا تَرْكِهِ وَعِتَابِهِ، فَيَسَامَحُ بِالمَتَارَكَةِ، وَيَسْتَصْلِحُ بِالمَعَاتِبَةِ، فَإِنَّ المَسَامَحَةَ وَالمَصْلَحَةَ إِذَا اجْتَمَعَا، لَمْ يَلْبَثْ مَعَهَا نَفُورٌ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهَا وَجْدٌ. وقد قال بعض الحكماء : لَا نُكْثِرَنَّ مَعَاتِبَةَ إِخْوَانِكَ، فَيَهْوَنَ عَلَيْهِمْ سُخْطُكَ. وقال منصور النعمري :

أَقْلِلْ عِتَابَ مَنْ اسْتَرَبْتَ بُوْدَهُ لَيْسَتْ تُنَالُ مَوْدَّةَ بَعْتَابِ
وقال بشار بن برد :

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِبُهُ ؟
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْصِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَبِجَانِبِهِ

ثم من حق الإخوان أت تغفر هفوتهم، وتستتر زلتهم، لأن من رام بريثا سن
الهفوات، سليماً من الزلّات، رام أمراً مُعوّزاً، واقترح وصفاً معجزاً، وقد قالت
الحكماء: أيّ عالم لا يهفو، وأيّ صارم لا ينبو، وأيّ جواد لا يكبو؟

وقالوا: من حاول صديقاً يأمّن زلته، ويدوم اغتباطه به، كان كضالّ الطريق،
الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً، إلا ازداد من غايته بُعداً. وقيل لخالد بن صفوان: أيّ
إخوانك أحبّ إليك؟ قال: من غفر زلّتي، وقطع عليّ، وبلغني أُملي.

وقال بعض الشعراء:

ما كذتُ أفحصُ عن أخي ثقةٍ إلاّ نديمتُ عواقبَ الفحصِ
وأنشدتُ عن الربيع، للشافعي رضي الله عنه:

أحبُّ من الإخوان كلّ مُوآتي وكلّ غَضِيض الطرف عن عَثْرَاتِي
يوافقني في كلّ أمر أريدُه ويحفظني حيّاً وبعدَ وفاي
فمن لي بهذا؟ ليتَ أُنِي أصبتهُ فقاسمته مالي من الحسنات؟
تصفحتُ إخواني وكان أقلّهم على كثرة الإخوان أهلَ ثقاي
وأنشد ثعلب:

إذا أنتَ لم تَسْتَقْبِلِ الأمرَ لم تجدْ بكفيكَ في أدباره مُتعلّقاً
إذا أنتَ لم تتركْ أخاك وزلّةً إذا زلّها أوشكنا أن تفرّقاً

وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب، أنه قال: تناسّ مساوي الإخوان، يدم لك
ودهم. ووصّى بعض الأدباء أخاه، فقال: كن للودّ حافظاً، وإن لم تجد محافظاً،
ولللخلّ واصلاً، وإن لم تجد مواصلاً. وقال رجل من إياد ليزيد من المهلب:

إذا لم تجاوزْ عن أخ عند زلّة فلستَ غداً عن عَثْرَتِي متجاوزاً
وكيف يرجيك البعيدُ لنفعه إذا كان عن مولاك خيرك عاجزاً
ظلمتَ أخاً كلفته فوق وسعيه وهل كانت الأخلاق إلاّ غرائزاً؟

وقال أبو مسعود كاتب الرّضي: كنا في مجلس الرّضي، فشكا رجل من أخيه،
فأنشد الرّضي:

اعْذِرْ أَخَاكَ عَلَى ذُنُوبِهِ وَاسْتَرْ وَغُضَّ عَلَى عِيُوبِهِ
وَاصْبِرْ عَلَى بَهْتِ السَّ فِيهِ وَلِلزَّمَانِ عَلَى خَطْوِيهِ
وَدَعْ الْجَوَابَ تَفَضُّلاً وَكِلَ الظُّلُومَ إِلَى حَسِيْبِهِ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْجِلْمَ عِنْدَ الْغِي ظٍ أَحْسَنُ مِنْ رُكُوبِهِ

وحكي عن بنت عبدالله بن مطيع، أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عَوْف الزَّهْرِيّ، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً ألام من إخوانك. قال: مة، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك. قال: هذا والله من كرمهم: يأتوننا في حال القوة بنا عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم. فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل، حتى جعل قبيح فعلهم حسناً، وظاهر غدرهم وفاء، وهذا مخض الكرم، ولباب الفضل، وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأولوا المهفوات من إخوانهم. وقد قال بعض الشعراء:

إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لَزَلَتِهِ عُذْرًا
أَحِبُّ الْفَتَى يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقْرًا
سَلِّمْ دَوَاعِيَ الصَّدْرِ لَا بِاسْطِ أَذَى وَلَا مَانِعٌ خَيْرًا وَلَا قَائِلٌ هُجْرًا

والداعي إلى هذا التأويل شيثان: التغافلُ الحادثُ عن الفطنة، والتألفُ الصادرُ عن الوفاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل. وقال أكرم ابن صَيْفِي: من شدد نقر، ومن تراخى تألف، والشرف في التغافل. وقال شبيب بن شيبه: الأربب العاقل، هو الفطن المتغافل. وقال الطائي:

لَيْسَ الْغِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَايِي
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ:

إِنْ فِي صَحَّةِ الْإِخَاءِ مِنَ النَّاسِ فَالْبَيْسِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ عَلَى النِّقْ
عَشْرٌ وَحِيدًا إِنْ كُنْتَ لَا تَقْبَلُ الْعَدُوَّ سِ فِي خُلَّةِ الْوَفَاءِ لَقَلْبُهُ
مَنْ أَبَ وَاحِدٌ وَأُمَّ خُلُقِنَا صَ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ لَكَ خُلَّةُ
غَيْرَ أَنَا فِي الْمَالِ أَوْلَادَ عُلَّةُ رَ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَجَاوِزُ زَلَّةُ

ومما يتبع هذا الفضل تألف الأعداء ، بما يثنيهم عن البغضاء ، ويعطفهم على المحبة ، وذلك قد يكون بصنوف من البر ، ويختلف بسبب اختلاف الأحوال ، فإن ذلك من سمات الفضل ، وشروط السؤدد ، فإنه ما أحد يعدم عدواً ، ولا يفقد حاسداً ، وبحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة ، كما قال البُخترى :

ولن تستبين الدهرَ مَوْضِعَ نعمةٍ إذا أنتَ لم تُدَلِّ عليها بحاسدٍ
فإن أغفل تألف الأعداء مع وفود النعمة ، وظهور الحسدة ، توالى عليه من مكر حليمهم ، وبادرة سفيهم ، ما تصير به النعمة غراماً ، والزعامة ملأماً .

وروى ابن المسيّب عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى ، التودّد إلى الناس » . وقال سليمان بن داود عليها السلام لابنه : لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق ، فالألف قليل ، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد ، فالواحد كثير . فنظم ابن الرومي هذا المعنى . فقال :

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خل وصاحب وإنّ عدواً واحداً لكثير
وقيل لعبد الملك بن مروان : ما أفدت في ملكك هذا ؟ قال : مودة الرجال . وقال بعض الحكماء : من علامة الإقبال ، اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء : من استصلح عدوّه زاد في عدّده ، ومن استفسد صديقه نقص من عدّده . وقال بعض الأدباء : العجب ممن يطرح عاقلاً كافياً ، لما يضمّره من عداوته ، ويصطنع عاجزاً جاهلاً ، لما يظهره من محبته ، وهو قادر على استصلاح من يعاديه ، بحسن صنائعه وأياديه .

وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب ، وهي للأفوه^(١) ، واسمه صلاء بن عمرو حيث يقول :

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير خبالٍ وقالي
وذقت مرارة الأشياء جمعاً فما طعم أمرٍ من السؤال
ولم أر في الخطوب أشدّ هولاً وأصعب من معاداة الرجال

(١) الأفوه الأودي ، من أقدم شعراء الجاهلية وحكائهم

وقال القاضي التنوخي^(١) :

الْقَ الْعَدُوَّ بَوِجَه لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَاد يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَاتِ
فَأَحْرَمُ النَّاسَ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جِسْمِ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ
الرَّفَقِ يَمُنُّ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَنْزَحِ مِفْتَاحُ الْعَدَاوَاتِ

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله تعالى عنه :

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أُرْحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيَيْ عَدُوِّي عَنْهُ رُؤْيِيهِ لَأُدْفِعَ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبَشَرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغِضُهُ كَأَنَّمَا قَدْ حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ
النَّاسِ دَاءٌ دَوَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمْ وَفِي اعْتَزَالِهِمْ قَطْعُ الْمَوَدَّاتِ

وليس وإن كان يتألف الأعداء مأمورا ، وإلى مقاربتهم مندوبا ، ينبغي أن يكون لهم رাকنا ، وبهم واثقا ، بل يكون منهم على حذر ، ومن مكرهم على تحرز ، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع ، صارت طبعاً لا يستحيل ، وحيلة لا تزول ، وإنما يستكفي بالتألف إظهارها ، ويستدفع به أضرارها ، كالنار يُستدفع بالماء إحراقها ، ويُستفاد به إنضاجها ، وإن كانت محرقة بطبع لا يزول ، وجوهر لا يتغير . وقال الشاعر :

وَإِذَا عَجَزَتْ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَامْزَحْ لَهُ إِنْ الْمِزَاحَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطِي النَّضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ

فصل : وأما البر ، وهو الخامس من أسباب الألفة : فلأنه يوصل إلى القلوب اللطفا ، ويثنيها محبة وانعطافا ، ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به ، وقرنه بالتقوى له ، فقال : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] ، لأن له من التقوى رضا الله تعالى ، وفي البر رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس ، فقد تمت سعادته ، وعمت نعمته . وروى الأعمش عن خيثمة ، عن ابن مسعود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَبَغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا » .

(١) هو القاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤ هـ . وكان أديباً شاعراً .

وحكي أن الله تعالى أوحى إلى داود على نبينا وعليه السلام ذكّر عبادي إحساني إليهم ليحبّوني، فإنهم لا يحبّون إلا من أحسن إليهم. وأنشدني أبو الحسن الهاشمي:

الناسُ كلُّهمُ عيّا ل الله تحسّتا ظلالُـه
فأحبُّهم طرّاً إليـه ه أبرّهم لعيالِـه

والبر نوعان: صلة ومعروف.

فأما الصّلة فهي التبرّع ببذل المال في الجهات المحمودّة، لغير عوض مطلوب، وبهذا يبعث عليه سباحة النفس وسخاؤها، ويمنع منه شحّها وإباؤها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وروى محمد بن إبراهيم التيمي، عن عروة بن الزبير، عن النّبي ﷺ أنه قال: «السّخيّ قريب من الله عز وجل، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار. والبخل بعيد من الله عز وجل، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار». وقال ﷺ لعديّ بن حاتم: «رفع الله عن أبليك العذاب الشديد لسخائه» وبلغه ﷺ عن الزبير إمساك، فجذب عمامته إليه، وقال: يا زبير، أنا رسول الله إليك وإلى غيرك، يقول: أنفق أنفق عليك، ولا تؤك فأوكي عليك. وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غرّبت فيه شمسه، إلا وملّكان يناديان: اللهم أعط منفقا خلفا، وممسكا تلفا»، وأنزل في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ الْحَسَنَىٰ فَنَسِيْرَهُ لِلْيُسْرَىٰ؛ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ الْحَسَنَىٰ فَنَسِيْرَهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني من أعطى فيما أمر، واتقى فيما حظر. وصدّق بالحسنى، يعني: بالخلف من عطائه، فعند هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الإتقياء. وقيل في منشور الحكم: الجود عن موجود. وقيل في المثل: سؤدد بلا جود، كملك بلا جنود. وقال بعض الحكماء: الجود حارم الأعراض. وقال بعض الأدباء: من جاد ساد، ومن أضعف ازداد. وقال بعض الفصحاء: جود الرجل يحبه إلى أضداده، وبخله يبغيضه إلى أولاده. وقال بعض الفصحاء: خير الأموال ما استرق حُرّاً، وخير الأعمال ما استحقّ شكراً. وقال صالح ابن عبد القدوس:

وَيُظْهِرُ عِبَبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بِخُلَّةٍ وَيَسْتَرُّ عَنْهُمْ جِيعًا سَخَاؤُهُ
تَغْطِ بِأَتْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنِّي أَرَى كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءِ غَطَاؤُهُ

وحدثُ السخاء : بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأن يُوصَلَ إلى مستحقه بقدر الطاقة ؛ وتدبير ذلك مستصعب ، ولعل بعض ما يُحِب أن ينسب إلى الكرم ، ينكر حدَّ السخاء ، ويجعل تقدير العطية فيه نوعاً من البخل ، وأن الجود بذل الموجود ؛ وهذا تكلف يفضي إلى الجهل بحدود الفضائل ، ولو كَانَ الجود بذل الموجود ، لما كان للسرف موضع ، ولا للتبذير موقع . وقد ورد الكتاب بدمهما ، وجاءت السنة بالنهاي عنها ؛ وإذا كان السخاء محدوداً ، فمن وقف على حده سمي كريماً ، وكان للحمد مستحقاً ؛ ومن قصر عنه كان بخيلاً ، وكان للذم مستوجباً ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] . وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِعَزَّتِهِ لَا يَجَاوِرُهُ بَخِيلٌ » وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « طَعَامُ الْجَوَادِ دَاءٌ ، وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » . وَسَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ : الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ . فَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الشَّحِيحَ ، وَلَعَنَ الظَّالِمَ » .

وقال بعض الحكماء : البخل جِلباب المسكنة . وقال بعض الأدباء : البخل ، ليس له خليل وقال بعض البلغاء : البخل حارس نعمته ، وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء :
إِذَا كُنْتَ جَمَاعًا لِلْمَالِكَ مُسِيكًا فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينُ
تَوَدِّيهِ مَذْمُومًا إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلْهُ عَفْوًا وَأَنْتَ دَفِينُ
وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع إمساك فيه . فقال بعض الشعراء ؟

أَرَأَيْكَ تَوْمَلُ حَسَنَ الثَّنَاءِ وَلَمْ يَرْزُقْكَ اللَّهُ ذَاكَ الْبَخِيلَا
وَكَيْفَ يَسُودَ أَخُو بَطْنِيَّةٍ يَمُنُّ كَثِيرًا وَيُعْطِي قَلِيلَا

وقد بينا حبَّ الثناء وحب المال ، لأن الثناء يبعث على البذل ، وحب المال يمنع منه ، فإن ظهرا كان حب الثناء كاذباً . وقد قال بعض الشعراء :

جمعتَ أمرينِ ضاعَ الحزمُ بينهما تيبةُ الملوكِ وأخلاقُ المماليكِ
 أردتَ شكراً بلا بر ولا صلةٍ لقد سلكتَ طريقاً غيرَ مسلكِ
 ظننتَ عِرْضَكَ لم يُقَرَّعَ بقارعةٍ وما أراك على حالٍ بمتركِ
 لئن سبقتَ إلى مالٍ حظيتَ به فما سبقتَ إلى شيءٍ سوى النُّوكِ

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة، وإن كان ذريعة إلى كل مذمة أربعة أخلاق، ناهيك بها ذمها، وهي: الحرص، والشره، وسوء الظن، ومنع الحقوق.

فأما الحرص فهو شدة الكدح، والإسراف في الطلب.

وأما الشره فهو: استقلال الكفاية، والاستكثار لغير حاجة، وهذا فرق ما بين الحرص والشره. وقد رَوَى العلاء بن جرير عن أبيه، عن سالم بن مسروق، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يجزيه من العيش ما يكفيه، لم يجد ما عاش ما يغنيه» وقال بعض الحكماء: الشره من غرائز اللؤم.

وأما سوء الظن: فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل، فإن كان بالخالق كان شكاً يؤول إلى ضلال، وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختاناً وخواناً، لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه، فإن وجد فيها خيراً ظنه في غيره، وإن رأى فيها سوءاً اعتقده في الناس. وقد قيل في المثل: كل إناء ينضح بما فيه. فإن قيل: قد تقدم من قول الحكماء أن الحزم سوء الظن. قيل تأويله: قلة الاسترسال إليهم، لا اعتقاد السوء فيهم.

وأما منع الحقوق، فإن نفس البخل لا تسمح بفراق محبوبها، ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها، فلا تُدْعِن لحق، ولا تحيب إلى إنصاف؛ وإذا آل البخل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة، والشيم اللثيمة، لم يبق معه خير مرجو، ولا صلاح مأمول.

وأما السرف والتبذير، فإن من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر، وهو بالذم جدير. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]. ورَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عال من اقتصد». وقد قال المأمون رحمه الله: لا خير في السرف، ولا سرف في الخير. وقال بعض الحكماء: صديق الرجل

قصده، وسرفه عدوه. وقال بعض البلغاء: لا كثير مع إسراف، ولا قليل مع احترام.

واعلم أن السرف والتبذير قد يفرق معناهما، فالسرف: هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير هو: الجهل بمواقع الحقوق، وكلاهما مذموم، وذم التبذير أعظم، لأن المسرف يخطئ في الزيادة، والمبذر يخطئ في الجهل، ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها، فهو كمن جهلها بفعالها فتعداها، وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه، فهكذا قد يعدل به عن موضعه، لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع، من حق وغير حق. وقد قال معاوية رضي الله عنه: كل سرف فيازائه حق مُضَيِّع وقال بعض الحكماء: الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد. وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: الحلال لا يحتل السرف، وليس يتم السخاء ببذل ما في يده، حتى تسخو نفسه عما بيد غيره، فلا يميل إلى طلب، ولا يكف عن بذل.

وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام: أتدري لم اتخذتك خليلاً؟ قال: لا يارب، قال: لأني رأيتك تحب أن تعطي، ولا تحب أن تأخذ. وروى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: مرني بعمل يحبني الله عليه. ويحبني الناس. فقال «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس». وقال أيوب السختياني: لا ينبلُ الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم. وقيل لسفيان: ما الزهد في الدنيا؟ قال: الزهد في الناس. وكتب كسرى إلى ابنه هُرْمُز: يا بني، استقل الكثير مما تعطي، واستكثر القليل مما تأخذ، فإن قرّة عيون الكرام في الإعطاء، وسرور اللئام في الأخذ، ولا تعدّ الشحيح أميناً، ولا الكذاب حراً، فإنه لا عفة مع الشح، ولا مروءة مع الكذب. وقال بعض الحكماء: السخاء سخاءان، أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك. وقال بعض البلغاء: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً وقال بعض الصلحاء: الجود غاية الزهد، والزهد غاية الجود. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تكن نفسُ الشريف شريفةً وإن كان ذا قدرٍ فليس له شرفٌ

والبذل على وجهين: أحدهما ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال. والثاني: ما كان عن طلب وسؤال. فأما المبتدأ به فهو أطبعها سخاء وأشرفها عطاء. وسئل عليّ كرم الله وجهه عن السخاء، فقال: ما كان منه ابتداء، فأما كان عن مسألة فحياء وتكرم. وقال بعض الحكماء: أَجَلُّ النّوَالِ، مَا وَصَلَ قَبْلَ السُّؤَالِ. وقال بعض الشعراء:

وَفَتَى خَلَا مِنْ مَالِهِ وَمِنْ المَرْوَةِ غَيْرِ خَالٍ
أَعْطَاكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ فَكَفَاكَ مَكْرُوهَ السُّؤَالِ

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب: فالسبب الأول: أن يرى خلة يقدر على سدّها، وفاقّة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم والتدين، إلّا أن يكون زعيم صلاحها، وكفيل نجاحها، رغبة في الأجر إن تدين، وفي الشكر إن تكرم. وقال أبو العتاهية:

مَا النَّاسُ إِلَّا آلَةٌ مُعْتَمَلَةٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا فَعَلَّاهُ

والسبب الثاني: أن يرى في ماله فضلا عن حاجته، وفي يده زيادة عن كفايته، فيرى انتهاز الفرصة بها، فيضعها حيث تكون له ذخرا معدّا، وغنما مستجدّا. وقد قال الحسن البصري رحمه الله: ما أنصفك من كلفك إجلاله، ومنعك ماله.

وقيل لهند بنت الحس^(١): مَنْ أَعْظَمَ النَّاسَ فِي عَيْنِكَ؟ قالت: مَنْ كَانَ لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ. وقال الشاعر:

وَمَا ضَاعَ مَالٌ وَرَثَ الْحَمْدَ أَهْلَهُ وَلَكِنْ أَمْوَالُ الْبَخِيلِ تَضِيعُ

والسبب الثالث: أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته، وإشارة يستدل عليها بكرمه، فلا يدعه الكرم أن يغفل، ولا الحياء أن يكف. وقد حكى أن رجلا سائر بعض الولاة، فقال: ما أهزل برذونك؟ فقال: يده مع أيدينا، فوصله اكتفاء بهذا التعريض، الذي بلغ مالا يبلغه صريح السؤال. ولذلك قال أكرم بن صيفي: السخاء حسن الفطنة، واللؤم سوء التغافل. وحكي أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد، كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

(١) كلفت من أهل الدهاء، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة.

أَبَى دَهْرُنَا إِسْعَافَنَا فِي نَفُوسِنَا وَأَسْعَفَنَا فِيمَنْ نَحَبُّ وَنَكْرُمُ
فَقُلْتُ لَهُ: نُعمَاكَ فِيهِمْ أَتَمُّهَا وَدَعُ أَمْرَنَا إِنْ الْمَهْمُ مُقَدَّمُ
فَقَالَ عُيَيْدُ اللَّهِ: مَا أَحْسَنَ مَا شَكَأَ أَمْرُهُ بَيْنَ أَضْعَافٍ مَدَحِهِ، ثُمَّ قَضَى حَاجَتَهُ. وَقَالَ
بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَنْ لَا يَرَى مِنْ نَفْسِهِ مُذَكِّرًا لَهَا رَأَى طَلِبَ الْمُسْتَنْجِدِينَ ثَقِيلًا
والسبب الرابع: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رِغَاةَ لَيْدٍ، أَوْ جِزَاءٍ عَلَى صَنِيعَةٍ، فَيَرَى تَأْدِيَةَ الْحَقِّ
عَلَيْهِ طَوْعًا، إِمَّا أَنْفَةً، وَإِمَّا شُكْرًا، لِيَكُونَ مِنْ أَسْرِ الْاِمْتِنَانِ طَلِيقًا، وَمِنْ رِقِّ الْإِحْسَانِ
وَعِبُودِيَّتِهِ عَتِيقًا. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْإِحْسَانُ رِقٌّ، وَالْمُكَافَأَةُ عِتْقٌ. وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَلَيْسَتْ أَيْادِي النَّاسِ عِنْدِي غَنِيمَةٌ وَرُبَّ يَدٍ عِنْدِي أَشَدُّ مِنَ الْأَسْرِ
والسبب الخامس: أَنْ يُؤْثِرَ الْإِذْعَانُ بِتَقْدِيمِهِ، وَالْإِقْرَارُ بِتَعْظِيمِهِ، تَوْطِيدًا لِرِيَاسَةِ هُوَ
لَهَا مُحِبَّةٌ، وَعَلَى طَلِبِهَا مُكِيبَةٌ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ وَقَلِمَا تَجِدُ الرَّاظِينَ بِالْقِسَمِ
فَتَسْتَصْعِبُ عَلَيْهِ إِجَابَةُ النَّفُوسِ لَهُ طَوْعًا إِلَّا بِالْاِسْتِعْطَافِ، وَإِذْعَانُهَا إِلَّا بِالرَّغْبَةِ
وَالْإِسْعَافِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: بِالْإِحْسَانِ يَرْتَبِطُ الْإِنْسَانُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: مَنْ
بَذَلَ مَالَهُ، أَدْرَكَ أَمَالَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَتَرْجُوا أَنْ تَسْوَدَّ بِلَا عَنَاءٍ وَكَيْفَ يَسْوَدُّ ذُو الدَّعَةِ الْبَخِيلُ؟

والسبب السادس: أَنْ يَدْفَعَ بِهِ سَطْوَةَ أَعْدَائِهِ، وَيَسْتَكِفَّ بِهِ نِفَارَ خَصَمَائِهِ، لِيَصِيرُوا
لَهُ بَعْدَ الْخُصُومَةِ أَعْوَانًا، وَبَعْدَ الْعَدَاوَةِ إِخْوَانًا، إِمَّا لِصِيَانَةِ عَرَضٍ، وَإِمَّا لِحِرَاسَةِ مَجْدٍ.
وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِي:

وَلَمْ يَجْتَمِعْ شَرْقٌ وَغَرْبٌ لِقَاصِدٍ وَلَا الْمَجْدُ فِي كَفِّ امْرِئٍ وَالدَّرَاهِمُ
وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ تَدْعَى حَقُّوقُهُ مَغَارِمَ فِي الْأَقْوَامِ وَهِيَ مَغَانِمُ
وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَنْ عَظُمَتْ مُرَافَقَتُهُ، أَعْظَمَهُ مُرَافِقَتُهُ.

والسبب السابع: أن يَرُبَّ به سالفَ صنِعةٍ أولاهَا، ويراعى به قديمَ نعمةٍ أسداها، كيلا يُنسى ما أولاه، أو يُضاع ما أسداه، فإن مقطوع البر ضائع، ومهمَل الإحسان ضالّ. وقد قال الشاعر:

وَسَمْتُ أَمْرًا بِالْبِرِّ ثُمَّ أَطْرَحْتُهُ وَمَنْ أَفْضَلُ الْأَشْيَاءِ رَبُّ الصَّنَائِعِ
قال محمد بن داود الأصبهاني:

بَدَأْتَ بُنْعَمِي أَوْجَبْتَ لِي حُرْمَةً عَلَيْكَ فَعْدٌ بِالْفَضْلِ فَالْعَوْدُ أَحَدُ

والسبب الثامن: المحبةُ يُؤثرُ بها المحبوب على ماله، فلا يَضيّنُ عليه بمرغوب ولا ينفِسُ عليه بمطلوب، للذة التي هي عنده أحظى، وإلى نفسه أشهى. لأن النفس إلى محبوبها أشوق وإلى مميلته أسبق، وقد قال الشاعر:

فَمَا زَرْتَكُمْ عَمْدًا وَلَكِنَّ ذَا الْهَوَى إِلَى حَيْثُ يَهْوَى الْقَلْبُ تَهْوَى بِهِ الرَّجُلُ
وهذا وإن دخل في أقسام العطاء، فنخرج عن حدّ السخاء، وهكذا الخامس والسادس من هذه الأسباب، وإنما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء.

والسبب التاسع ليس بسبب: أن يفعل ذلك لغير ما سبب، وإنما هي منه سجية قد فُطِرَ عليها، وشيمة قد طُبِعَ بها، فلا يميز بين مستحقّ ومحروم، ولا يفرق بين محمود ومذموم، كما قال الشاعر:

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا لِلْخَوْفِ لَكِنْ يَلْذُ طَعْمَ الْعَطَاءِ

وقد اختلف الناس في مثل هذا: هل يكون منسوباً إلى السخاء فيحمد، أو خارجاً عنه فيذم؟ وقال قوم: هذا هو السخي طبعاً، والجواد كرماً، وهو أحق من كان به ممدوحاً، وإليه منسوباً. وقال أبو تمام:

مَنْ غَيْرَ مَا سَبَبٍ يُدْنِي كَفِي سَبَابٍ لِلْحَرِّ أَنْ يَجْتَدِي حُرًّا بِلَا سَبَبٍ
وقال الحسن بن سهل: إذا لم أعط إلا مستحقاً، فكأنّي أعطيت غريباً. وقال: الشرف في السرف قليل له: لا خير في السرف. فقال: ولا سرف في الخير. وقال الفضل بن سهل: العجب لمن يرجو من فوقه، كيف يحرم من دونه. وقال بشار:

وما الناسُ إلا أصحابك فمنهمُ سَخِيٌّ ومغلول اليدين من البُخلِ
فسامحُ يدا ما أمكنتك، فإنَّها تُقِلُّ وتُثْري والعواذل في شُغلِ

وقال آخرون: هذا خارج من السخاء المحمود، إلى السَّرَف والتبذير المذموم، لأنَّ العطاء إذا كان لغير سبب، كان المنع لغير سبب، لأنَّ المال يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، فإذا أعطى غير المستحق، فقد يَمْنَع مستحقاً، وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لإعطاء غير المستحق، وحسبك ذماً بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز، وتوجد لغير علة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ، فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الاسراء: ٢٩]. فنهى عن بسطها سرفاً، كما نهى عن قبضها بخلاً، فدلَّ على استواء الأمرين ذماً، وعلى اتفاقهما لوماً. وقال الشاعر:

وَكَيْفَ الْمَالُ يَأْتِينَا فَكُنَّا نُبْذَرُهُ وَلَيْسَ لَنَا عَقُولُ
لَا أَنَّ تَوَلَّى الْمَالُ عَنَا عَقَلْنَا حِينَ لَيْسَ لَنَا فَضُولُ

قالوا: ولأنَّ العطاء والمنع إذا كانا لغير علة، أفضيا إلى ذم الممنوع، وقلة شكر المعطى أما الممنوع فلأنه قد فضِّل عليه من سواه، وأما المعطى فإنه وجد ذلك اتفاقاً، وربما أمَّل بالاتفاق أضعافاً، فصار ذلك مُفْضِياً إلى اجتلاب الذم، وإحباط الشكر، وليس فيما أفضى إلى واحد منها خيرٌ يرجى، وهو جدير أن يكون شراً يتقى، ومثل هذا كان منع الجميع إرضاء للجميع، وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبین. فأما إذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب؛ فشروطه معتبرة من وجهين: أحدهما في السائل، والثاني في المسؤول، فأما ما كان معتبراً في السائل فن ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون السؤال لسبب، والطلب لموجب؛ فإن كان لضرورة ارتفع عن الحرج، وسقط عنه اللوم. وقد قال بعض الحكماء: الضرورة تُوقِّعُ الصورة. وقال بعض الشعراء:

أَلَا قَبَّحَ اللَّهُ الضَّرُورَةَ إِنَّهَا تَكْلِفُ أَعْلَى الْخَلْقِ أَدْنَى الْخَلَائِقِ
وَلِلَّهِ دَرَجَةُ الْإِسْتِغَاةِ فَإِنَّهُ يَبَيِّنُ فَضْلَ السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ سَابِقٍ
وقال الكُميت:

إذا لم تكنْ إِلَّا الأُسْنَةَ مَرْكَبٌ فلا رأيَ للمضطرِّ إِلَّا رَكوبُهَا
فإن ارتفعتْ الضرورة، ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين ألا يكون، وإن جاز
ألا يكون، فالنفس المسامحة تغلب الحاجة، وتسمح في الطلب، وتراعي ما استقام به
الحال، وإن ناله ذل، ولحقه وهن، فيتأول صاحبها قول البحريّ.

ورُبَّهَا كنان مَكْرُوه الأمور إلى محبوبها سَبَّبا ما مثله سَبَبٌ
والنفس الشريفة تطلب الصيانة: وتراعى النزاهة، وتحتمل من الضرِّ ما احتملت،
ومن الشدة ما أطاقَتْ، فيبقى تحمُّلُها، ويدوم تصوُّلُها، فتكون كما قال الشاعر:
وقد يكتسى المرءُ خَزَّ الثياب وَمِنْ دُونِهَا حَالَةٌ مُضْنِيَّةٌ
كما يَكْتَسِي خَدَّهُ حُمْرَةً وَعِلَّتُهُ وَرَمٌ فِي الرِّيَّةِ
فلا يرى أن يتدنَّس بمطالب الشؤم، ومطالع اللؤم، فإن البهائم الوحشية تأبى
ذلك، وتأنف منه. قال الشاعر:

وليسَ الليثُ مِنْ جوعٍ بِنَادٍ على جِيْفٍ تُطِيفُ بِهَا الكلابُ
فكيف بالإنسان الفاضل، الذي هو أكرم الحيوان جنسا، وأشرفه نفساً، هل يحسن
به أن يَرَى لوحش البهائم عليه فضلا، وقد قال الشاعر:
على كلِّ حالٍ يَأْكُلُ المرءُ زَادَهُ على البؤسِ والضرِّاءِ والحدَثَانِ
وقد قيل لبعض الزهاد: لو سألتَ جاركَ أعطاك؟ فقال: والله ما أسأل الدنيا ممن
يملكها، فكيف ممن لا يملكها. ووصف بعض الشعراء قوما، فقال:

إذا افتقروا أغضَوْا على الضَّرِّ حِسْبَةً وإن أُيسِّرُوا عادوا سِرَاعاً إلى الفَقْرِ
فأما من يسأل من غير ضرورة مَسَّت، ولا حاجة دعت، فذلك صريح اللؤم،
ومحض الدناءة، وقلمًا تجد مثله ملحوظا، أو ممولا محفوظا، لأن الحرمان قاده إلى
أضيف الأرزاق، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم، فلم يَبْقَ لوجهه ماء إلا أراقه، ولا
ذلَّ إلا ذاقه، كما قال عبد الصمد بن المعدَّل لأبي تمام الطائي:

أنتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ تَبْرُزُ للنِّسَاءِ سِوَاكِ وَكَلْتَاهِمَا بِوَجْهِ مُذَالٍ

لست تنفك طالباً لوصال من حبيب أو طالباً لنوال
أي ماءٍ حرٍّ وجهك يبقَى بين ذلّ الهوى وذلّ السؤال
ولو استقبح العار، وأنف من الذلّ، لوجد غير السؤال مكسباً يَمُونه، والقدر على ما يصُونه، وقد قال الشاعر :

لا تطلبنّ معيشةً بتذلّلٍ فليأثيّنك رزقك المقدورُ
واعلم بأنك آخذٌ كل الذي لك في الكتاب مقدّر مسطورُ

والشرط الثاني من شروط السؤال : أن يضيق الزمان عن إرجائه، ويقصر الوقت عن إبطائه، فلا يجد لنفسه في التأخير فُسحةً، ولا في التّأدي مهلةً، فيصير من المعذورين، وداخلاً في عداد المضطرين. فأما إذا كان الوقت متسعاً، والزمان ممتدّاً، فتعجيل السؤال لؤم وقنوط. وقال الشاعر :

أبى ليّ إغضاء الجفونِ على القذى يقيني أن لا عُسرَ إلا مُفَرَّجُ
ألا رُبّما ضاق الفضاءُ بأهله وأمكنَ مِنْ بين الأُسنة مَخْرَجُ
والشرط الثالث : اختيار المسؤول أن يكون مرجو الإجابة، مأمول النّجح، إما لحرمة السائل، أو كرم المسؤول؛ فإن سأل لثماً لا يرعى حرمةً، ولا يُولي مكرمةً، فهو في اختياره ملوم، وفي سؤاله محروم. وقد قال بعض البلغاء : المخذول من كانت له إلى اللّثام حاجة. وقد قال بعض البلغاء : أذلّ من اللّثم سائله، وأقلّ من البخيل نائله. وقال بعض الشعراء :

من كان يأمل أن يرى من ساقطٍ نَيْلاً سَنِيّاً
فلقد رجا أن يجتني من عوسجٍ رطباً جَنِيّاً

وأما الشروط المعتمدة في المسؤول فثلاثة :

الشرط الأوّل : أن يكتفيّ بالتعريض، ولا يُلجئ إلى السؤال الصريح، ليصون السائل عن ذلّ الطلب، فإن الحل ناطقة، والتعريض كاف، وقد قال الشاعر :

أقول وسيترّ الدجى مُسَبَّلٌ كما قال حين شكَا الضفدعُ
كلامي إن قلتَه ضائعٌ وفي الصمتِ ختفي فما أصنعُ؟

وربما فهم المسؤول الإشارة، فألجأ إلى التصريح بالعبارة، تهجينا للسائل، ليخجل فيمسك، ويستحي فيكف، فيكون كما قال أبو تمام:

مَنْ كَانَ مَفْقُودَ الْحَيَاءِ فَوَجْهُهُ مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ لَهُ بَوَّابٌ
والشرط الثاني: أَنْ يَلْقَى بِالْبَشَرِ وَالتَّرحيبِ، ويقابل بالطلاقة والتقريب، ليكون
مشكوراً إِنْ أُعْطِيَ، ومعدوراً إِنْ مَنَعَ. وقد قال بعض الحكماء: أَلْقَ صَاحِبُ الْحَاجَةِ
بِالْبَشَرِ، فَإِنْ عَدِمَتْ شُكْرُهُ، لَمْ تَعُدْ عُذْرُهُ.

وقال ابن لُتْكَ: إِنْ أَبَا بَكْرُ بْنُ دَرِيدٍ قَصَدَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ فِي حَاجَةٍ، فَلَمْ يَقْضِهَا
لَهُ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ ضَجَرٌ. فقال:

لَا تَدْخُلَنَّكَ ضَجْرَةٌ مِنْ سَائِلٍ فَلْخَيْرُ دَهْرِكَ أَنْ تَرَى مَسْؤُولاً
لَا تَجِبَهُنَّ بِالرَّدِّ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ فَبَقَا عَزْكَ أَنْ تُرَى مَسْأُولاً
تَلْقَى الْكَرِيمَ فَتُسْتَدِلَّ بِبِشْرِهِ وَتَرَى الْعُبُوسَ عَلَى اللَّثِيمِ ذَلِيلاً
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ خَيْرًا، فَكُنْ خَبْرًا يَسْرُوقُ جِيلًا
والشرط الثالث: تصديق الأمل فيه، وتحقيق الظن به، ثم اعتبار حاله وحال سائله،
فإنها لا يخلوان من أربع أحوال:

فالحال الأول: أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ مُسْتَوْجِبًا، وَالْمَسْئُولُ مُتِمَكِّنًا، فَالْإِجَابَةُ هَهُنَا
تُسْتَحَقُّ كَرَمًا، وَتُسْتَلْزَمُ مَرُوءَةً، وَلَيْسَ لِلرَّدِّ سَبِيلٌ إِلَّا لِمَنْ اسْتَوَى عَلَيْهِ الْبُخْلُ، وَهَانَ
عَلَيْهِ الذَّمُّ، فَيَكُونُ كَمَا قَالَ فِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ:

إِنِّي رَأَيْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسَبَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خَزَّ الشَّيَابِ وَتَشَبَّعُوا
فَإِذَا تُذَوِّكِرَتِ الْمَكَارِمُ مَرَّةً فِي مَجْلِسٍ أَنْتُمْ بِهِ فَتَقْنَعُوا
فنعوذ بالله ممن حَرَمَ ثَرَوَةَ مَالِهِ، وَمَنَعَ حُسْنَ حَالِهِ، أَنْ يَكُونَ مُسْتَوْدَعًا فِي صَنِيعِ
مَشْكُورٍ، وَبَرٍّ مَذْخُورٍ. وقد قيل لبخيل: لَمْ حَبَسْتَ مَالَكَ؟ قَالَ: لِلنَّوَائِبِ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ
نَزَلَتْ بِكَ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

مَالِكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا الَّذِي قَدَّمْتَ فَبَاذِلُ طَائِعَا مَالِكَا
تَقُولُ أَعْمَالِي وَلَوْ فَتَشُّوا رَأَيْتَ أَعْمَالَكَ أَعْمَى لَكَا

وقد أسقط حق نفسه، ورفع أسباب شكره، فصار بأن لا حق له، مذموماً
كمشكور، ومأثوماً كما جور؛ وقال أبو العتاهية :

خَزَنَ الْبَخِيلُ عُلْبِيَّ صَالِحَةً إِذْ لَمْ يَثْقُلْ بِرُّهُ ظَهْرِي
مَا فَاتَنِي خَيْرُ امْرِئٍ وَضَعَتْ عَنِي يَدَاهُ مِؤْنَةَ الشُّكْرِ
فإذا لم يكن للردّ في هذه الحال سبيلٌ نظر، فإن كان بالتأخير مُضِرّاً، عَجَلَ بدله،
وقطع مطله، وكانت إجابته فعلاً، وقوله عملاً. وقد قالت الحكماء: من مُرْوَةِ
المطلوب منه، ألاَّ يُلْجِئَ إلى إلحاح عليه، وقال محمد بن حازم:

وَمُنْتَظَرٍ سَوَّالِكَ بِالْعَطَايَا وَأَشْرَفُ مِنْ عَطَايَاهُ السُّوَالُ
إِذَا لَمْ يَأْتِكَ الْمَعْرُوفُ طَوْعاً فَدَعُهُ فَالْتَنَزَّهُ عَنْهُ مَالُ

وإن كان في الوقت مُهْلَةً، وفي التأخير فُسْحَةً، فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه.
فذهب بعضهم إلى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً، ثُمَّ يُعْقِبُهُ الْإِنْجَازَ فعلاً، ليكون
السائل مسروراً بتعجيل الوعد، ثُمَّ بآجل الإنجاز، ويكون المسؤول موصوفاً بالكرم،
ملحوظاً بالوفاء. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ » وقال الفضل بن
سهل لرجل سألَه حاجة: أَعِدْكَ الْيَوْمَ، وَأَحْبُوكَ غَدًا بِالْإِنْجَازِ، لتذوق حلاوة الأمل،
وأتزين بثوب الوفاء. ووعد يحيى بن خالد رجلاً بحاجة سألَه إياها، فقبل له: تَعِدْ
وَأَنْتَ قَادِرٌ؟ فقال: إِنْ الْحَاجَةُ إِذَا لَمْ يَتَقَدَّمْهَا وَعَدَ يَنْتَظِرُ صَاحِبُهُ نُجْحَهُ، لَمْ يَجِدْ
سُرُورَهَا، لأن الوعد طَعْمٌ وَالْإِنْجَازُ طَعَامٌ، وليس من فاجأه الطعام، كمن يجد ريحه
ويطعمه، فدفع الحاجة تَهْتَمُرُ بالوعد. ليكون لها طَعْمٌ عِنْدَ الْمَصْطَنَعِ إِلَيْهِ. وقال بعض
البلغاء: إِذَا أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ فَأَحْسَنْ الْفِعْلَ، لِيَجْتَمَعَ لَكَ ثَمَرَةُ اللِّسَانِ، وَثَمَرَةُ الْإِحْسَانِ،
وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ لَا تَخْلُو مِنْ ذَنْبٍ تَكْتَسِبُهُ فِي ذَلِكَ، أَوْ عَجَزَ تَلْتَزِمُهُ.

ومنها من ذهب إلى أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولى، وتقديمه من غير
ترقّب ولا انتظار أُخْرَى؛ وإنما يقدم الوعد أحد رجلين: إما مُعَوِّزٌ يَنْتَظِرُ جِدَّةً، وإما
شحيح تَرَوِّضُ نَفْسَهُ تَوَاطُفَةً، وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصحّ، ولا رأي
يَتَّضِحُ. مع ما يغيّره الليل والنهار، وَتَقَلَّبُ بِهِ الْحَالُ، مِنْ يَسَارٍ وَإِعْسَارٍ؛ وَقَالَ بَعْضُ
الشُّعْرَاءِ:

يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الْمَقْدَمُ دَمَّ أَمْرُهُ شَرْقاً وَغَرْباً
أَمُنَنْ بَحْتَمِ صَحِيفَتِي مَا دَامَ هَذَا الطِّينُ رَطْباً
وَاعْلَمْ بِأَنَّ جَفَافَهُ مِمَّا يَعِيدُ السَّهْلَ صَعْباً

قالوا : ولأن في الرجوع عنه من الانكسار ، وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار ،
وفي العود إليه من بذلة الاقتضاء . وذلة الاجتداء ، ما يكدر برّه ، ويوهن شكره وقال
الشاعر :

إِنْ الْخَوَائِجَ رَبّاً أَرَزَى بِهَا عِنْدَ الَّذِي تُقْضَى لَهُ تَطْوِيلُهَا
فَإِذَا ضَمَنْتَ لِصَاحِبٍ لَكَ حَاجَةً فَاعْلَمْ بِأَنَّ تَمَامَهَا تَعْجِيلُهَا

والحال الثانية : أن يكون السائل غير مستوجب ، والمسؤول غير متمكن ، ففي الرد
فُسْحَةٌ ، وفي المنع عُدْرٌ ، غير أنه يلين الرد لينا يقيه عُدْرًا يدفع عنه اللوم ، فليس كل
مقلّ يَعْرِفُ ، ولا معذور يُنْصِفُ ، وقد قال أبو العتاهية يصف الناس :

يَا رَبَّ إِنْ النَّاسَ لَا يُنْصِفُونَنِي فَكَيْفَ وَإِنْ أَنْصَفْتَهُمْ ظَلَمُونِي
فَإِنْ كَانَ لِي شَيْءٌ تَصَدَّقُوا لِأَخِيهِ وَإِنْ جِئْتُ أَبْغِي شَيْئَهُمْ مَنَعُونِي
وَإِنْ نَالَهُمْ بِذُلِّي فَلَا شُكْرَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْذُلْ لَهُمْ شَتْمُونِي
وَإِنْ طَرَقْتَنِي نَكْبَةً فَكَيْهُوا بِهَا وَإِنْ صَحَبْتَنِي نَعْمَةً حَسَدُونِي
سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَحِنَّ إِلَيْهِمْ وَأَغْمِضُ عَنْهُمْ نَاطِرِي وَجَفُونِي
وَأَقْطَعُ أَيَّامِي يَوْمَ سُهُولَةٍ أَقْضِي بِهَا عَمْرِي وَيَوْمَ حُزُونٍ
أَلَا إِنْ أَصْفَى الْعَيْشَ مَا طَابَ غَيْبُهُ وَمَا نَلْتُهُ فِي لَذَّةٍ وَسُكُونٍ

والحال الثالثة : أن يكون السائل مستوجباً ، والمسؤول غير متمكن ، فيأتي بالحمل على
النفس ما أمكن ، من يسير يسُدُّ به خُلة ، أو يدفع به مَذْمَةَ ، أو يوضح من أَعْذار
المعْوزِينَ ، وتوجع المتألمين ، ما يجعله في المنع معذوراً ، وبالتوجع مشكوراً . وقد قال
أبو نصر العتبي رحمه الله تعالى :

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ ذَا بَخَلٍ وَلَسْتُ مَلْتَمِساً فِي الْبَخْلِ لِي عِلَلًا
لَكِنَّ طَاقَةً مِثْلِي غَيْرُ خَافِيَةٍ وَالنَّمْلُ يُعْذِرُ فِي الْقَدْرِ الَّذِي حَمَلَا

وربما تحسّر بحدوث العجز بعد تقدّم القدرة، على فوت الصنعة، وزوال العادة،
حتى صار أضنى جسداً، وأزيد كمداً، كما قال الشاعر:

وكنْتُ كَبَّازَ السُّوقِ قُصَّ جَنَاحُهُ يَرَى حَسْرَاتِ كُلِّ طَارٍ طَائِرُ
يَرَى طَائِرَاتِ الْجَوِّ تَخْفُقُ حَوْلَهُ فَيَذْكُرُ إِذْ رِيشُ الْجَنَاحَيْنِ وَافِرُ

والحال الرابعة: أن يكون السائل غير مستوجب، والمسؤول متمكناً، وعلى البذل
قادراً، فينظر، فإن خاف بالردّ قدح عرض، أو قبح هجاء مُمضٍ، كان البذل إليه
مندوباً، صيانة لا جوداً، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « ما وقى به المرء عرضة،
فهو له صدقة » وإن أمن من ذلك، وسلم منه، فمن الناس من غلب المسألة، وأمر
بالبذل، لئلا يقابل الرجاء بالخيبة، والأمل بالإياس، ولما فيه من اعتياد الرد،
واستسهال المنع المفضي إلى الشح.

وأنشد الأصمعي عن الكسائي:

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتَ لَاءً مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلَا تَحِلُّ (١)
فَمَا تَدْرِي إِذَا أُعْطِيتَ مَالاً أَكْثَرُ مِنْ سِهَاحِكَ أَمْ يُقَلُّ
إِذَا حَضَرَ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ وَإِنْ حَضَرَ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلٌّ

ومن الناس من اعتبر الأسباب، وغلب حال السائل، وندب إلى المنع، إذا كان
العطاء في غير حق، ليقوى على الحقوق إذا عرضت، ولا يعجز عنها إذا لزم
وتعينت، وقد قال بعض الشعراء:

لَا تَجِدْ بِالْعَطَاءِ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَيْسَ فِي مَنَعِ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلُ
إِنَّمَا الْجُودُ أَنْ تَجُودَ عَلَى مَنْ هُوَ لِلْجُودِ وَالنَّدَى مِنْكَ أَهْلُ

فأما من أجاب السؤال، ووعد بالبذل والتّوال، فقد صار بوعده مرهوناً، وصار
وفاءه بالوعد مقروناً، فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد، ولا سبيل إلى مراجعة نفسه في
الردّ، فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل، ومقت القادر، وهجنة الكذب، ثم لا سبيل
لمطله بعد الوعد أحد المتعنين، واليأس أحد النّجحين. وقال بشار بن برد:

(١) أي وجدت قول « لا » محرماً عليك. و « لاء » بالمد: اسم لحرف النفي « لا » المقصور.

أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمَ غَامَةٍ أَضَاءَتْ لَنَا بَرَقًا وَأَبْطَأَ رِشَاشُهَا
فَلَا غَيْمَهَا يُجَلِّي فَيَأْسُ طَامِعٌ وَلَا غَيْثُهَا يَأْتِي فَيُرْوَى عَطَاشُهَا
ثم إذا أنجز وعده، وأوفى عهده، لم يتبع نفسه ما أعطى، ويُسرُّ إن كانت يدهُ
العليا، فقد قال رسول الله ﷺ: «اليدُ العليا خير من اليد السفلى». وقال الشاعر:
فإنك لا تدري إذا جاء سائلٌ أنْتَ بما تعطيه أم هو أسعدُ؟
عسى سائل ذو حاجةٍ إن منعتَه من اليوم سؤلًا أن يكون له غدُ

وليكن من سروره إذ كانت الأرزاق مقدرة، أن تكون على يده جارية، ومن
جهته واصله، لا تنتقل عنه بمنع، ولا تتحول عنه بإياس. وحكي أن رجلاً شكاً كثرة
عياله إلى بعض الزهاد، فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل،
فحوّله إلى منزلي. وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة، ففقد الدابة: ما فعل
برَدُونك؟ قال: اشتدت عليّ مؤنته فبعته. قال: أفتراه خَلَفَ رزقه عندك. وقال ابن
الرومي رحمه الله:

إن لله غيرَ مَرْعَاكَ مَرْعَى نرعيه وغير مائك ماء
إن لله بالبرية لطفاً سبق الأمهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى، وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل، كالذي
حكاه أبو بكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن أعرابياً أتاه فقال:

يا عُمَرَ الخَيْرِ جُزِيتَ الْجَنَّةَ أَكْسُ بُنْيَاتِي وَأَمَهَّتْنِي
وَكُنْ لَنَا مِنَ الزَّمانِ جَنَّةً أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّ

فقال عمر رضي الله عنه: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال:

★ إِذْنُ أَبَا حَفْصٍ لَأُذْهِبَنَّه ★

فقال: فإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال:

يكون عن حالي لتُسألَنَّه يوم تكون الأعطيات هنَّة
وموقفُ المسؤول بينهنَّه إما إلى نارٍ وإما جنَّة

فبكى عمر رضي الله عنه ، حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : يا غلام ، أعطه قميصي هذا ، لذلك اليوم ، لا لشعره ؛ أما والله لا أملك غيره . وإذا كان العطاء على هذا الوجه ، خلا من طلب جزاء وشكر ، وعري عن امتنانٍ ونشر ، فكان ذلك أشرف للبادل ، وأهنأ للقابل .

ولأما المعطي إذا التمس بعطائه الجزاء ، وطلب به الشكر والثناء ، فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء ، لأنه إن طلب به الشكر والثناء ، كان صاحب سُمعة ورياء ، وفي هذين من الذم والسمعة ، ما ينافي السخاء ، وإن طلب به الجزاء ، كان تاجراً متربّحاً ، لا يستحق حمداً ولا مدحاً . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المذثر : ٦] : إنه الذي يعطي عطية يلتمس بها أفضل منها . وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول في تأويل ذلك : ﴿ لَا تَمْنُنْ ﴾ بعملك ، ﴿ تستكثر ﴾ على ربك . وقال أبو العتاهية :

وليست يد أوليتها بغنيمة إذا كنت ترجو أن تُعَدَّ لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سدّ حاجة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا
واعلم أن الكريم يجتدي بالكرامة واللفظ ، واللئيم يجتدي بالمهانة والعنف ، فلا يجود إلا خوفاً ، ولا يجيب إلا عتفاً ، كما قد قال الشاعر :

رأيتك مثل الجوز يمنع لَبَّه صحيحاً ، ويعطي خيره حين يُكْسَرُ
فاحذر أن تكون المهانة طريقاً إلى اجتدائك ، والخوف سبيلاً إلى إعطائك ، فيجري عليه سَفَه الطغام ، وامتهان اللثام ، وليكن جودك كرمًا ورغبة ، لا لؤماً ورهبة ، كيلا يكون مع الوصمة ، كما قال العباس بن الأحنف :

صيرتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِيتُ تضيء للناس وهي تحترقُ
وأما النوع الثاني من البرّ فهو المعروف . ويتنوع أيضاً نوعين : قولاً وعملاً . فأما القول فهو طيب الكلام ، وحسن البشر : والتودد بجميل القول ، وهذا يبعث عليه حسن الخلق ، ورقة الطبع ، ويجب أن يكون محدوداً كالسخاء ، فإنه إن أسرف فيه كان ملقاً مذموماً ، وإن توسط واقتصد فيه كان معروفاً وبرّاً محموداً . وقد قال ابن عباس رضي

الله عنها، في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]: إنها الكلام الطيب. وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس. وروى سعيد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لن تَسْعُوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجوه، وحسن الخلق». وروى أن النبي ﷺ أنشد عنده قول الأعرابي هذا:

وَحَيَّ ذَوِي الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبَهُمْ تَحِيَّتُكَ الْحُسْنَى فَقَدْ يُدْبِغُ النَّغْلُ
فَإِنْ دَحَسُوا بِالْمَكْرِ فَاعْفُ تَكْرَمًا وَإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَإِنَّ الَّذِي يُوْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقْلُ

فقال النبي ﷺ: «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً». وقيل للعتابي: إنك تلقى العامة ببشر وتقريب. قال: دفع صنعة بأيسر مؤنة، واكتساب إخوان بأيسر مبدول. وقيل في منشور الحكم: من قلّ حياؤه قلّ أحباؤه. وقال بعض الشعراء:

أُبْنِيَّ إِنْ الْبِشْرَ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ .
وقال بعضهم:

المرءُ لَا يُعْرِفُ مِقْدَارَهُ مَا لَمْ تَبْنِ لِلنَّاسِ أَفْعَالَهُ
وَكُلٌّ مِنْ يَمْنَعُنِي بِشْرُهُ فَقَلَّمَا يَنْفَعُنِي مَالُهُ

وأما العمل فهو بذل الجاه، والمساعدة بالنفس، والمعونة في النائبة، وهذا يبعث عليه حبُّ الخير للناس، وإيثار الصلاح لهم، وليس في هذه الأمور سرف، ولا لغايتها حد، بخلاف النوع الأول، لأنها وإن كثرت فهي أفعال خير تعود بنفعين: نفع على فاعلها في اكتساب الأجر، وجميل الذكر، ونفع على المعان بها، في التخفيف عنه، والمساعدة له. وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر، أن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة». وقال الثوري ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «المعروف كاسمه، وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله». وقال عليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه: لا يزهّدك في المعروف كفر من كفره، فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر. وقال الخطيب:

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
وَأُنْشِدَ الرِّيَاشِيَّ:

يَدُ الْمَعْرُوفِ غَنَمٌ حَيْثُ كَانَتْ تَحْمَلُهَا كَفُورٌ أَمْ شَكُورٌ
فَفِي شُكْرِ الشَّكُورِ لَهَا جِزَاءٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَا كَفَرَ الْكُفُورُ
فَيَنْبَغِي لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْمَعْرُوفِ أَنْ يَعْجَلَهُ، حَذَرَ فَوَاتِهِ، وَيَبَادِرَ بِهِ خِيفَةَ
عِجْزِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ فُرْصِ زَمَانِهِ، وَغَنَائِمِ إِمْكَانِهِ، وَلَا يَهْمَلُهُ ثِقَةُ بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، فَكَمْ
وَاثِقُ بِقُدْرَتِهِ فَاتَتْ، فَأَعْقَبَتْ نَدَمًا، وَمَعُولٌ عَلَى مُكْنَةِ زَالَتِ، فَأَوْرَثَتْ خَجَلًا. وَقَدْ قَالَ
الشَّاعِرُ:

مَا زِلْتُ أَسْمَعُ: «كَمْ مِنْ وَاثِقٍ خَجِلٌ» حَتَّى ابْتُلَيْتُ فَكُنْتُ الْوَاثِقُ الْخَجَلَاءُ
وَلَوْ فَطِنَ لِنَوَائِبِ دَهْرِهِ، وَتَحَفَّظَ مِنْ عَوَاقِبِ مَكْرِهِ، لَكَانَتْ مَغَانِمُهُ مَذْخُورَةً،
وَمَغَارِمُهُ مَجْبُورَةً، فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قُتِحَ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ
فَلْيَنْتَهِزْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَلَيْهِ» وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ،
وَتَمَرَةُ الْمَعْرُوفِ تَعْجِيلُ السَّرَاحِ». وَقِيلَ لِأَنُوشَرَوَانَ: مَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبَ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ:
أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْمَعْرُوفِ وَلَا تَصْطَنِعَهُ حَتَّى يَفُوتَ. وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: مِنْ آخِرِ الْفُرْصَةِ
عَنْ وَقْتِهَا، فليَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِهَا. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْفُلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ
وَإِنْ دَرَّتْ نِيَاقُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ
وَرَوَى أَنَّ بَعْضَ وَزَرَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَطَّلٌ رَاغِبًا إِلَيْهِ فِي عَمَلٍ يَسْتَكْفِيهِ إِيَّاهُ، فَكُتِبَ
إِلَيْهِ بَعْدَ طَوْلِ الْمَطَّلِ:

أَمَّا يَدْعُوكَ طَوْلُ الصَّبْرِ مَنِّي عَلَى اسْتِثْنَائِيفٍ مَنَفْعَتِي وَشُغْلِي
وَعَلِمْتُكَ أَنَّ ذَا السُّلْطَانِ غَنَادٍ عَلَى خَطَرَيْنِ: مِنْ مَوْتٍ وَعَزَلٍ
وَأَنَّكَ إِنْ تَرَكْتَ قِضَاءَ حَقِّي إِلَى وَقْتِ التَّفَرُّغِ وَالتَّخَلِّيِ
سَتَصْبِحُ نَادِمًا أَسْفًا مُعَزًى عَلَى فَوْتِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَ مِثْلِي

وكتب بعض ذوي الحرّات إلى وال قد قصر في رعاية حرّمته ، يقول :

أعلى الصراط تريد رعيّة حرّمي أم في الحساب تمّ بالإنعام ؟
لنفع في الدنيا أردتْكَ فانتبه لحوائجي من رقة النّوام

وكتب أبو عليّ البصير إلى بعض الوزراء ، وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال ، يقول :

لنا كلّ يوم نوبة نؤيها وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فإن تعتذر بالشغل عنا فإنما تُناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطاً لا يتمّ إلّا بها ، ولا يكمل إلّا معها ؛ فمن ذلك ستره
عن إذاعة يستطيل لها ، وإخفاؤه عن إشاعة يُستدلّ بها . قال بعض الحكماء : إذا
اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا صنّع إليك فانشره ؛ ولقد قال دِعْبِل الخزاعي :

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم وإن أنعموا انعموا باكتنام
يقوم القعود إذا أقبلوا وتقعده هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره ، وابلغ دواعي نشره ، لما جبلت عليه
النفوس من إظهار ما خفي ، وإعلان ما كُتم ، وقال سهل بن هارون :

خلّ إذا جئتّه يوماً لتسألّه اعطاء ما ملكت كفاؤه واعتذراً
يُخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيتّه ظهراً

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبراً ، وتسليبه عن أن يكون
مستكثرّاً ، لئلا يصير به مُدلاً بطراً . ومستطيلاً أشرّاً . وقال العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه : لا يتمّ المعروف إلا بثلاث خصال : تعجيله ، وتغيره ، وستره . فإذا
عجلنه هتأته ، وإذا صغّرتّه عظّمتّه ، وإذا سترته أتمّمتّه ؛ وقال بعض الشعراء :

زاد معروفيك عظماً أنه عندك مستورٌ حقيرٌ
وتناسيت كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطيرٌ

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به ، وترك الإعجاب بفعله ، لما فيها من
إسقاط الشكر ، وإحباط الأجر فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إياكم والامتنان
بالمعروف ، فإنه يُبطل الشكر ، ويَمَحَق الأجر ، ثم تلا : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمتنّ ﴾

والأذى ﴿ [البقرة: ٢٤٦] . وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل : فعلتُ إليك وفعلت . فقال ابن سيرين : اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصيت . وقال بعض الحكماء : المنّ مفسدة الصنعة . وقال بعض الأدباء : كدّرَ معروفاً امتنان ، وضَيّعَ حساباً امتهان . وقد قال بعض البلغاء : مَنْ منَّ بِمَعْرُوفِهِ سَقَطَ شُكْرُهُ ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِعَمَلِهِ حَبَطَ أَجْرُهُ . وقال بعض الفصحاء : قُوَّةُ الْمُنِّ مِنْ ضَعْفِ الْمُنِّ . وقال بعض الشعراء :
أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حسنٍ ليس الكريم إذا أُسْدَى بمَنّانٍ
وقال أبو نواس :

فامضِ لا تَمُنْ عَلَيَّ يَدًا مَنَّاكَ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدْرِهِ
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه :

لا تَحْمِلَنَّ لِمَنْ يَمُـ سَنَ مِنَ الْأَنْامِ عَلَيْكَ مِنْهُ
واخترُ لنفسك حظَّها واصبرْ فإن الصبرَ جَنَّتُهُ
مِنَ الرِّجَالِ عَلَى الْقُلُوبِ بَ أَشَدُّ مِنْ وَقَعِ الْأَسْنَةِ

ومن شروط المعروف ألاّ يحتقر منه شيئاً وإن كان قليلاً نزرّاً ، إذا كان الكثير مُعَوِّزاً ، وكنت عنه عاجزاً ، فإن من حَقَّرَ يسيره ، فمَنعَ منه ، أعجزه كثيره ، فامتنع عنه ، وفعل قليل الخير أفضل من تركه ، فقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ صَغِيرُهُ » . وقال عبد الرحمن بن جعفر : لا تستحي من القليل ، فإن البخا أقلّ منه ، ولا تجبُنْ عن الكثير ، فإنك أكثر منه . وقد قال الشاعر :

اعْمَلِ الْخَيْرَ مَا اسْتَطَعْتَ وَإِنْ كَا نَ قَلِيلاً فَلَنْ تَحِيطَ بِكُلِّهِ
ومتى تفعلُ الكثيرَ مِنَ الْخَيْرِ رِ إِذَا كُنْتَ تَارِكاً لِأَقْلِهِ ؟

على أن من المعروف ما لا كُلفَ على مُوْلِيهِ ، ولا مشقّة على مُسْدِيهِ ، وإنما هو جَاءَ يَسْتَظِلُّ بِهِ الْأَدْنَى ، وَيَرْتَفِقُ بِهِ التَّابِعُ ، وقد قال الشاعر :

ظِلُّ الْفَتَى يَنْفَعُ مَنْ دُونَهُ وَمَا لَهُ فِي ظِلِّهِ حَظٌ

واعلم أنك لن تستطيع أن تُوسِعَ جَمِيعَ النَّاسِ مَعْرُوفَكَ ، وَلَا أَنْ تُؤَلِّيَهُمْ إِحْسَانَكَ ، فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحِفاظ ، واقصد به ذوي الرعاية والوداد ، ليكون

معروفك فيهم نامياً ، وصنيعك عندهم زاكياً . وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب ودين » . وقال النبي ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صناعته في أهل الحفاظ » . وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إن الصنعة لا تكون صنعةً حتى يُصابَ بها طريقُ المصنّع
فإذا صنعت صنعةً فاعملُ بها لله أو لذوي القربابة أو دَع

وقيل في منشور الحكم : لا خير في معروف إلى غير عُرُوف . وقد ضرب الشاعر به مثلاً ، فقال :

كحمار السَّوءِ إن أَشْبَعْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ وإن جاعَ نَهَقَ
وقد قال بعض الحكماء : على قدر المغارس ، يكون اجتناء الغارس ، فأخذه بعض الشعراء ، فقال :

لعسرُك ما المعروف في غير أهله وفي أهله إلا كبعض الودائع
فستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس في شكر الصنعة عندهم وفي كفرها إلا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدي إليه المعروف ، واصطنع إليه الإحسان ، فقد صار بأسر المعروف موثوقاً ، وفي ملك الإحسان مرقوقاً ، ولزمه إن كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليه ، وإن لم يكن من أهلها ، أن يقابل المعروف بنشره ، ويقابل الفاعل بشكره . فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « من أودع معزوفاً فليُنشره ، فإن نشره فقد شكره ، وإن كتّمه فقد كفره » . وروى الزُّهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : دَخَلَ عَلَيَّ رسول الله ﷺ وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لا يَخُونُكَ ضَعْفُهُ يوماً فتدركهُ العواقبُ قد تَمَى
يَجْزِبُكَ أو يُثْنِي عليك وإن مَنَ أثْنى عليك بما فعلتَ فقد جَزَى

فقال النبي ﷺ : « رُدِّي على قول اليهودي قاتله الله ، لقد أتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى : « أيا رجل صنع إلى أخيه صنعة ، فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد

كافأه». وقيل في منشور الحكم: الشكر قيدُ النعم. وقال عبد الحميد: من لم يشكر الإنعام فاعدُّه من الأنعام. وقيل في منشور الحكم: قيمة كل نعمة شكرها. وقال بعض الحكماء: كُفِّر النعم من أمارات البطر، وأسباب الغير. وقال بعض الفصحاء: الكريم شُكُور أو مشكور، واللئيم كُفُور أو مكفور. وقال بعض البلغاء: لا زوال للنعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر. وقال بعض الأدباء:

شُكْرُ الإله بطولِ الثناء وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكرُ النظير بحسن الجزاء وشكر الدنيِّ بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء:

فلو كان يَسْتَغْنِي عن الشكر ماجدٌ لعزة مُلْكٍ أو علوِّ مكانٍ
لَمَّا أمرَ الله العباد بشكره فقال: اشكروا لي أيُّها الثَّقَلَانِ

فإن مَنْ شكر معروف من أحسن إليه، ونشر إفضال من أنعم عليه، فقد أدّى حق النعمة، وقضى مُوجِب الصنيعة، ولم يبقَ عليه إلا استدامة ذلك، إتماماً لشكره، ليكون للمزيد مستحقاً، ولمتابعة الإحسان مستوجباً.

حكى أن الحجاج أتى إليه بقوم من الخوارج، وكان فيهم صديق له، فأمر بقتلهم إلا ذلك الصديق، فإنه عفا عنه، وأطلقه ووصله، فرجع الرجل إلى قَطْرِي بن الفُجاءة، وكان من أصحابه، فقال له: عدُّ إلى قتال الحجاج عدو الله، فقال: هيهات! غلّ يداً مُطْلِقها، واسترق رقبة مُعْتِقها، وأنشأ يقول:

أَقَاتِلُ الحجاجَ عن سُلْطانه بيدِ تَقِيرُ بأنها مَوْلَاتُهُ؟
إني إِذَنْ لأخو الدناءة والذي شهدت بأقبحِ فعله غَدْرَاتُهُ
ماذا أقول إذا وقفتُ إزاءَهُ في الصفِّ واحتجَّتْ له فَعَلَاتُهُ
أقول جارِ عليّ؟ لا. إني إِذَنْ لأحق من جارت عليه وِلَاتُهُ
وتحدّث الأقسام أن صنائعنا غُرِسَتْ لديّ فَحَنَظَلْتُ نَخْلَاتُهُ

وقيل في منشور الحكم: المعروف رِقٌّ، والمكافأة عِتق. ومن أشكر الناس الذي يقول:

لَا شُكْرَ لَكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالسَّامِعِ مَعْرُوفٌ
وَلَا أَلُومُكَ إِنَّ لَمْ يُفْضِهِ قَدَرٌ فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ الْمُحْتَوَمِ مَعْرُوفٌ
وهذا النوع من الشكر الذي يتعجل المعروف، ويتقدم البر، قد يكون على وجوه:
فيكون تارة من حسن الثقة بالشكور، في وصله بره، وإسداء عُرْفه، ولا رأي لمن
يحسن به ظن شاكر، أن يخلف ظنه فيه، فيكون كما قال العتّابي:

قَدْ أَوْرَقْتُ فِيكَ آمَالِي بِوَعْدِكَ لِي وَلَيْسَ فِي وَرَقِ الْآمَالِ لِي ثَمَرٌ
'وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي، وحسن مكافأة الآمل، فلا يرضى لنفسه
إلا بتعجيل الحق، وإسلاف الشكر، وليس لمن صادف لمعرفه مَعْدِنًا زَاكِيًا، وَمَعْرِسًا
نَامِيًا، أن يفوت نفسه غُنْمًا، ولا يجرمها رِجْمًا، فهذا وجه ثان. وقد يكون تارة ارتهانا
لِلْأُمُولِ، وَحَثًّا لِلْمَسْئُولِ؛ وَبِحَسَبِ مَا أَسْلَفَ مِنَ الشُّكْرِ، يَكُونُ الذِّمُّ عِنْدَ الْإِيَّاسِ.
وقال بعض الأدباء من حكماء المتقدمين: مَنْ شَكَرَكَ عَلَى مَعْرُوفٍ لَمْ تَسُدِّهِ إِلَيْهِ، فَعَاجِلُهُ
بِالْبَرِّ، وَإِلَّا انْعَكَسَ فَصَارَ ذِمًّا، وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ:

وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوَعُّمَ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَنْتَسِبْنَ إِلَى بَعْضٍ
فَحَيْثُ تَرَى حَقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ
إِذَا الْأَرْضُ أَذَتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
وَأَمَّا مَنْ سَبَرَ مَعْرُوفَ الْمَنَعِ، وَلَمْ يَشْكُرْهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ نِعْمَةٍ، فَقَدْ كَفَرَ النِّعْمَةَ،
وَجَحَدَ الصَّنِيعَةَ؛ وَإِنْ مِنْ أَذَمَّ الْخُلَائِقِ، وَأَسْوَأَ الطَّرَائِقِ، مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ قُبْحَ الرَّدِّ،
وَسُوءَ الْمَنَعِ. فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَشْكُرُ
اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ». وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَنْ لَمْ يَشْكُرْ لِمَنَعِهِ، اسْتَحَقَّ قَطْعَ
النِّعْمَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْفَصَحَاءِ: مَنْ كَفَرَ نِعْمَةَ الْمُفِيدِ، اسْتَوْجِبَ حَرَمَانَ الْمَزِيدِ.

وقال بعض البلغاء: مَنْ أَنْكَرَ الصَّنِيعَةَ، اسْتَوْجِبَ قُبْحَ الْقَطِيعَةِ.

وَأُنْشِدُنِي بَعْضَ الْأَدْبَاءِ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ:

مَنْ جَاوَرَ النِّعْمَةَ بِالشُّكْرِ لَمْ يُخْشَ عَلَى النِّعْمَةِ مُغْتَالَهَا
لَوْ شَكُرُوا النِّعْمَةَ زَادَتْهُمْ مِقَالَةُ اللَّهِ الَّتِي قَالَهَا

لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غآلها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها، والشكر أبقي لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة .

فأما القاعدة الثالثة : فهي المادة الكافية ؛ لأن حاجة الإنسان لازمة. لا يعرَى منها بشر . قال الله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ [الأنبياء : ٨] ، فإذا عدم المادة التي هي قوام نفسه ، لم تدم له حياة ، ولم يستقم له دين ؛ وإذا تعذر شيء منها عليه ، لحقه من الوهن في نفسه ، والاختلال في دنياه ، بقدر ما تعذر من المادة عليه ، لأن الشيء القائم بغيره ، يكمل بكماله ، ويختل باختلاله . ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها ، أعوزت بغير طلب ، وعُدِمَت لغير سبب . وأسباب المودة مختلفة ، وجهات المكاسب متشعبة ، ليكون اختلاف أسبابها ، علة الائتلاف بها ، وتشعب جهاتها . توسعة لطلابها ، كيلا يجتمعوا على سبب واحد ، فلا يلتئموا ، أو يشتركوا في جهة واحدة ، فلا يكتفون ، ثم هداهم إليها بعقولهم ، وأرشدهم إليها بطباعهم ، حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعاش المختلفة فيعجزوا ، ولا يعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة ، فيختلوا ، حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الأمور .

وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز إخبارا وإذكارا ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٥٠] . اختلف المفسرون في تأويل ذلك ، فقال قتادة : أعطى كل شيء ما يصلحه ، ثم هداه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورته ، ثم هداه لمعيشته . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أعطى كل شيء زوجته ، ثم هداه لنكاحها . وقال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم : ٧] يعني معاشهم ، متى يزرعون ، ومتى يغرسون ؟ وقال تعالى : ﴿ وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ قال عكرمة : قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض ، بالتجارة من بلد إلى بلد . وقال الحسن البصريّ وعبد الرحمن بن زيد : قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرزاقهم . ثم إن الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم إليه من مكاسبهم . وأرشدهم إليه من

معاشهم، دينا يكون عليهم حكماً، وشرعا يكون لهم قِيّاً، ليصلوا إلى موادهم بتقديره، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره، حتى لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا، وتستولي عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا. قال الله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض﴾ [المؤمنون: ٧١] قال المفسرون في هذا الموضع: هو الله جل جلاله، فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام، حتى جعل العقل هاديا إليها، والدين قاضيا عليها، لتتم السعادة، وتعم المصلحة. ثم إنه جلت قدرته جعل شدّ حاجتهم، وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين: بمادة، وكسب.

فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها، وهي شيئان: نبت نام، وحيوان متناسل. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]. قال أبو صالح: أغنى خلقه بالمال، وأقنى: جعل لهم قنية، وهي أصول الأموال.

وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين: أحدهما تقلب في تجارة، والثاني تصرف في صناعة؛ وهذان هما فرع لوجهي المادة، فصارت أسباب المواد المألوفة، وجهات المكاسب المعروفة، من أربعة أوجه: غناء زراعة، ونتاج حيوان، وربح تجارة، وكسب صناعة. وحكي الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون، قال: سمعته يقول: معاش الناس على أربعة أقسام: زراعة، وصناعة، وتجارة، وإمارة؛ فمن خرج عنها كان كلاً عليها. وإذا قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فنصنف حال كل واحد منها بقول موجز.

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة: فهي مادة أهل الحضّر، وسكان الأمصار والمدن، والاستمداد بها أعم نفعاً، وأوفي فرعاً، ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل، فقال: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء». وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «خير المال عين ساهرة، لعين نائمة» وقال ﷺ: «نعمت لكم النخلة: تشرب من عين حرّارة، وتغرس في أرض خوّارة» وقال ﷺ: في النخل «هي الراسخات في الوحل المطعيمات في المحل». وقال بعض السلف: خير المال عين حرّارة، في أرض خوّارة، تسهر إذا نمت، وتشهد إذا غبت، وتكون عقبا إذا ميت. وروى هشام بن عروة، عن عائشة

رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»: يعني: الزرع.

وحكي عن المعتضد أنه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام، يناولني المسحاة، وقال: خذها، فإنها مفاتيح خزائن الأرض. وقال كسرى للموبذ: ما قيمة تاجي هذا؟ فأطرق ساعة، ثم قال: ما أعرف له قيمة، إلا أن تكون مطرة في نيسان، فإنها تصلح في معاش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. رلقى عبدالله بن عبد الملك بن شهاب الزهري، فقال له: ادلني على مال أعالجه، فأنشأ ابن شهاب يقول:

تَبَعَ خَبَايَا الْأَرْضِ وَدَاعَ مَلِكِهَا لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تَجَابَ فَتَرْزُقَا
فِيؤْتِيكَ مَالًا وَاسِعًا ذَا مِتَانَةٍ إِذَا مَا مِيَاهُ الْأَرْضِ عَارَتْ تَدَفَّقَا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر، مما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه، غيز أن من فضّل الزرع، فلقرب مداه، ووقور جداه، ومن فضّل الشجر، فلثبوت أصله، وتوالي ثمره.

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان: فهو مادة أهل الفلوات، وسكان الخيام، لأنهم لما لم تستقر بهم دار، ولم تضمنهم أمصار، افتقروا إلى الأموال المنتقلة معهم، وما لا ينقطع نماؤه بالقطع والرحلة، فاقتنوا الحيوان، لأنه يستقل في النقلة بنفسه، ويستغني عن العلوقة برعيه، ثم هو مركوب ومحلوب، فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر، لقلة مؤنته، وتسهيل الكلفة به، وكانت جدواه عليهم أكثر، لوفور نسله، واقتنيات رسله، إلهاما من الله لخلق، في تعديل المصالح فيهم، وإرشادا لعباده، في قسّم المنافع بينهم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير المال مَهْرَةٌ مأمورة، وسيكّة مأمورة». ومعنى قوله ﷺ: مهرة مأمورة: أي كثيرة النسل، ومنه ما تأول الحسن وقتادة قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: [الاسراء: ١٦] أي كثرنا عددهم. وأما السكّة المأمورة: فهي النخلة المؤبرة الحمل. وروي عن النبي ﷺ أنه قال في الغنم: «سمّنها معاش، وصوفها ريش». وروي عن أبي ظبيان، أنه قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما مالك يا أبا ظبيان؟ قال: قلت: عطائي ألفان. قال: اتخذ من هذا الحرث والسائبات، قبل أن تليك غلّة من قريش، لا تعدّ العطاء معهم مالا.

والسائبات: النتائج.

وحكي « أن امرأة أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إني اتخذت غنماً أبتغي نسلها ورسلها ، وإنها لا تنمي . فقال لها النبي ﷺ : ما الوانها ؟ قالت : سود . فقال لها عَفْرِي » . وهذا مثل قوله ﷺ في مناكح الأدميين : « اغتربوا لا تَصُومُوا » .

وأما الثالث من أسبابها وهي التجارة: فهي فرع لمادتي الزرع والنَّجَاح ؛ فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث » والباقي في السائبات . وهي نوعان : تَقَلَّبٌ في الحضر ، من غير نُقْلة ولا سفر ، وهذا تَرَبُّص واحتكار وقد رغب عنه ذوو الأقدار ، وزهد فيه ذوو الأخطار .

والثاني تَقَلَّبٌ بالمال بالأسفار ، ونقله إلى الأمصار ، فهذا أليق بأهل المروءة ، وأعم جدوى ومنفعة ، غير أنه أكثر خَطَرًا ، وأعظم غَرَرًا ؛ فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « إن المسافر وماله لعلى قَليةٍ ، إلّا ما وقى الله » . يعني . على خطر . وفي التوراة : يابن آدم أَحْدِثْ سَفَرًا ، أَحْدِثْ لَكَ رِزْقًا .

أما الرابع من أسبابها وهي الصناعة: فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة . وتنقسم أقسامها ثلاثة : صناعة فكر ، وصناعة عمل ، وصناعة مشتركة بين فكر وعمل ، لأن الناس آلات للصناعة ، فأشرفهم نفساً متهيء لأشرفها جنساً ، كما أن أذلهم نفساً ، متهيء لأرذلها جنساً ؛ لأن الطبع يبعث على ما يلائمه ، ويدعو إلى ما يجانسه . وحكي أن الإسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصي الأرض ، قال لأرسطاطاليس : أخرج معي . قال : قد نَحَلْ جسمي ، وضعفتُ عن الحركة ، فلا تزعجني . قال : فما أصنع في عمالي خاصة ؟ قال : انظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياستهم ، فوله الجنود ، ومن كانت له ضيعة ، فأحسن تدبيرها ، فوله الخراج ، فنبه باعتبار الطباع ، على ما أغناه عن كُلفة التجربة .

وأشرف الصناعات صناعة الفكر ، وأرذلها صناعة العمل ، لأن العمل نتيجة الفكر وهو مُدَبَّره .

فأما صناعة الفكر ، فقد تنقسم قسمين :

أحدهما: ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة، كسياسة الناس، وتدير البلاد، وقد أفردنا للسياسة كتاباً، لخصنا فيه من جملها، ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها.

والثاني: ما أدت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية، وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب، أغنى ما فيه، عن زيادة قول فيه.

وأما صناعة العمل: فقد تنقسم قسمين: عمل صناعي، وعمل بهيمي. فالعمل الصناعي أعلاها رتبة، لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه، ومعاناة في تصوّره، فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية، والآخر إنما هو صناعة كدّ، وآلة مهنة، وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة، وتقف عليها الطباع الخاسئة، كما قال أكرم بن صيفي، لكل ساقطة لاقطة، وكما قال المتلمّس:

ولا يُقِيمُ عَلَى ضِمِّ يُسَامُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانُ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَيْدُ
هَذَا عَلَى الْخُسْفِ مَرْبُوطٌ بِنَرْمَتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدُ

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل: فقد تنقسم قسمين.

أحدهما: أن تكون صناعة الفكر أغلب، والعمل تبعاً، كالكتابة.

والثاني: أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعاً، كالبناء، وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها، والعمل تبعاً لها.

فهذه أحوال الخلق، التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم، ووكلمهم إلى نظرهم، في طلب مكاسبهم، وفرق بين همهم في التماسها، ليكون ذلك سبباً لألفتهم. فسبحان من تفرّد فينا بلطف حكيمته، وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته.

وإذا قد وضح القول في أسباب المواد، وجهات الكسب، فليس يخلو حال الإنسان فيها من ثلاثة أمور:

أحدها: أن يطلب منها قدر كفايته، ويلتمس وفق حاجته، من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها، أو يقتصر على نقصان منها، فهذه أحد أحوال الطالبين، وأعدل مراتب المقتصدين. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: أوحى الله تعالى إليّ

كلمات، فدخلن في أذني، ووقرن في قلبي: مَنْ أَعْطَى فَضْلَ مَالِهِ فَهُوَ خَيْرَ لَهُ، ومن أمسك فهو شرّ له، ولا يُلْومُ الله على كفاف. وروى حميد عن معاوية بن حيدة، قال: قلت يا رسول الله: ما يكفيني من الدنيا؟ قال: ما يسدّ جُوعتك، ويستر غورتك، فإن كان دارّ فذاك، وإن كان حيار فَبَحْ بخ، فَلَقَّ مِنْ خَبْز، وجَرَّ من ماء، وأنت مسؤول عما فوق الإزار وقد روي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]: أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك. وروى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك» وهو في المعنى صحيح، لأنه بالزوجة والخادم مُطاع في أمره، وفي الدار محجوب، إلا عن إذنه؛ وليس على من طلب قدر الكفاية، ولم يجاوز تبعات الزيادة، إلا توخى الحلال منه، وإجمال الطلب فيه، ومجانبة الشبهة الممازجة له قد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: الحلال حين، والحرام بين، وبينها أمور مشبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنك لن تجد فقد شيء تركته لله.

وسئل رسول الله ﷺ عن الزهد. فقال: أما إنه ليس بإضاعة المال، ولا تحريم الحلال، ولكن أن تكون بما بيد الله، أوتق منك بما في يديك، وأن يكون ثواب المصيبة، أرجح عندك من بقائها: وحكى عبدالله بن المبارك قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبدالله الحكمي إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك، ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام، فافعل؛ فإنه من استوعب الحلال، تاقت نفسه إلى الحرام. وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]. فقال عكرمة: يعني كسباً حراماً. وقال ابن عباس: هو اتفاق من لا يؤقن بالخلف. وقال يحيى ابن معاذ: الدرهم بعقرب، فإذا أحسنت رقيتها، وإلا فلا تأخذها. وقيل: من قلّ توقيه، كثرت مساويه. وقال بعض البلغاء: خير الأموال، ما أخذته من الحلال، وصرفته في التّوال وشر الأموال، ما أخذته من الحرام، وصرفته في الآثام. وكان الأوزاعي الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات:

المالُ يَنْفَدُ حَلَّةً وَحَرَامُهُ يوما ويبقى بعده آثامُهُ
ليسَ التَّقِيُّ بِمَتَّقٍ لِإِلَهِهِ حتى يطيبَ شرابه وطعامُهُ

ويطيب ما يجني ويكسب أهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربّه فعلى النبي صلاته وسلامه
وحكي عن ابن المعتز السلمي، قال: الناس ثلاثة أصناف: أغنياء، وفقراء،
وأوساط. فالفقراء مَوْتَى، إلا من أغناه الله بعزّ القناعة. والأغنياء سُكَّارَى، إلا من
عصمه الله تعالى بتوقع الغير؛ وأكثر الخير مع أكثر الأوساط، وأكثر الشرّ مع أكثر
الفقراء والأغنياء؛ لِسُخْفِ الفقر، وبَطَرِ الغنى.

والأمر الثاني: أن يُقَصِّرَ عن طلب كفايته، ويزيد في التماس مادته، وهذا التقصير
قد يكون على ثلاثة أوجه: فيكون تارة كَسَلًا، وتارة توكلًا، وتارة زهدًا وتقنعًا، فإن
كان تقصيره لكسل، فقد حُرِمَ ثروة النشاط، ومرح الاغتباط، فلن يعدم أن يكون
كَلًّا قَصِيًّا، أو ضائعًا شَقِيًّا وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «كاد الحسد أن يغلبَ
القدر، وكاد الفقر أن يكون كُفْرًا». وقال بُزْرَجِمَهُ: إن كان شيء فوق الحياة
فالصحة، وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان
شيء مثله فالفقر. وقيل في منشور الحكم: القبرُ خير من الفقر، ووُجد في نيل مصر
مكتوب على حَجَرٍ:

عَقَبَ الصبرَ نجاحٌ وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل
وقال بعض الشعراء:

أعوذُ بك اللهم من بطر الغنى ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أملٍ يمتدّ في كل شارقٍ يُرجّعني منه بحظ يدٍ صفرٍ
إذا لم تدنّسني الذنوبُ بعارها فلست أبالي ما تشعث من أمري
وإذا كان تقصيره لتوكل، فذلك عجز قد أعذر به نفسه: وتَرَكَ حزم قد غبر
اسمه، لأن الله تعالى إنما أمر بالتوكل، عند انقطاع الحيل، والتسليم إلى القضاء بعد
الإعواز. وقد رَوَى مَعْمَرُ عن أيوب، عن أبي قِلَابَةَ، قال: ذُكِرَ عند النبي ﷺ
رجل، فذُكِرَ فيه خير، فقالوا: يا رسول الله، خَرَجَ معنا حاجًّا، فإذا نزلنا منزلاً لم
يزل يصلي حتى نرحل، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل. فقال ﷺ:
فمن كان كفيه عَلفَ ناقته رصنع طعامه؟ قالوا: كلنا يا رسول الله. قال: كلكم خير

منه . وقال بعض الحكماء : ليس من توكل المرء إضاعته للحزم ، ولا من الحزم إضاعته نصيبه من التوكل . وإن كان تقصيره لزهد وتقنع ، فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبغات الغنى والثروة ، وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة ، فأثر الفقر على الغنى ، وزجر النفس عن ركوب الهوى ؛ فقد رَوَى أبو الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت فيه شمسهُ إلا وعلى جنبتيها ملكان يناديان ، يسمعها خلق الله كلهم ، إلا الثقلين ، يأبها الناس هَلُمُّوا إلى ربكم ، إن ما قلّ وكفى ، خيرٌ مما كثر وألمى » .

وروى زيد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، رضي الله عنهم أجمعين : أنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « انتظر الفرج من الله بالصبر عبادة ، ومن رضي من الله عز وجل بالقليل من الرزق ، رضي الله عز وجل منه بالقليل من العمل » . ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من نُبِّل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصى الله ليفتقر ، فأخذه محمود الوراق فقال :

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدَجِرُ	عيبُ الغِنَى أكثرُ لو تَعْتَبِرُ
من شرف الفقر ومن فضله	على الغِنَى إن صحَّ منك النظرُ
أنك تعصي لتنال الغِنَى	ولست تعصي الله كي تفتقِرُ

وقال ابن المقفع :

دليلك أن الفقرَ خير من الغِنَى	وأن قليل المال خير من المُثْرَى
لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغِنَى	ولم ترَ مخلوقاً عصى الله بالفقرِ

وهذه الحال إنما تصح لمن تصح نفسه فأطاعته ، وصدقها فأجابته ، حتى لان قيادها ، وهان عِنادها ، وعلمت أن من لم يقنع بالقليل ، لم يقنع بالكثير ، كما كتب الحسن البصريّ إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنها : يا أخي ، من استغنى بالله اكتفى ، ومن انقطع إلى غيره تَغَنَّى ، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع ، لم يغنه منها ما يجمع ، فعليك منها بالكفاف ، وألزم نفسك العفاف ، وإياك وجمع الفضول ، فإن حسابه بطول . وقال بعض الحكماء : هيهات منك الغنى إن لم يُقْنَعك ما حَوَّيت . فأما من أعرَضت نفسه عن قبول نصحه ، وجمّحت به عن قناعة زهده ، فليس إلى إكراهها

سبيل، ولا للحمل عليها وجه، إلا بالرياضة والمروءة، وأن يستنزلها إلى اليسر الذي لا تنفر منه، فإذا استقرت عليه، أنزلها إلى ما هو أقل منه، لتنتهي بالتدريج إلى الغاية المطلوبة، وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة. وقد تقدم قول الحكماء: إن المكروه يسهل بالتمرين.

فهذا حكم ما في الأمر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية.

وأما الأمر الثالث فهو أن لا يقنع بالكفاية، ويطلب الزيادة والكثرة، فقد يدعو إلى ذلك أربعة أسباب:

أحدها: منازعة الشهوات التي لا تُنال إلا بزيادة المال، وكثرة المادة؛ فإذا نازعته الشهوة، طلب من المال ما يوصله إليها، وليس للشهوات حدّ متناه، فيصير ذلك ذريعة إلى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه، ومن لم يتناه طلبه، استدّام كدّه وتعبه، فلم يف التذاذ، بنيل شهواته، بما يعانيه من استدّامة كده وأتعابه، مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات، والتعويض لاكتساب التبعات، حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها، إلى ما تدعو إليها شهوتها. فلا تنزجر عنه بعقل. ولا تنكف عنه بقناعة وقد روي عن عليّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد الله به خيراً حال بينه وبين شهوته، وحال بينه وبين قلبه، وإذا أراد به شراً وكلّه إلى نفسه». وقد قال الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همّةً وقرّجك نالا منتهى الذمّ أجمعاً
والسبب الثاني: أن يطلب الزيادة، ويلتمس الكثرة، ليصرفها في وجوه الخير، ويتقرب بها في جهات البرّ، ويصطنع بها المعروف، ويغيث بها الملهوف، فهذا أعذر، وبالحمد أخرى وأجدر، إذا انصرف عنه تبعات المطالب، وتوقّى شبهات المكاسب، وأحسن التقدير في حالتي فائدته وإفادته، على قدر الزيادة، وبقدر الإمكان؛ لأن المال آلة للمكارم، وعون على الدين، ومتألف للإخوان، ومن فقدّه من أهل الدنيا، قلت الرغبة فيه، والرغبة منه، ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة، استهانوا به. وقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه (١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حساب أهل الدنيا هذا المال». وقال مجاهد: الخير في القرآن كله المال: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾

(١) أبوه: بريدة بن خبيب الأسلمي. وكان عبد الله ابنه قاضياً بمرور.

[العاديات: ٨]: يعني المال. ﴿ أَحَبَّتْ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ [ص: ٣٢]: يعني المال. ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ٣٣]: يعني مالا. وقال شعيب النبي عليه السلام: « إني أراكم بخير » يعني: المال، وإنما سمي الله تعالى المال خيراً إذا كان في الخير مصروفاً، لأن ما أدى إلى الخير، فهو في نفسه خير؛ وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ومنهم من يقول: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾، وقنا عذاب النار ﴿ [البقرة: ٢٠١] ﴾. فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد: الحسنة في الدنيا: المال، وفي الآخرة: الجنة. وقال الحسن البصري وسفيان الثوري: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة.

وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتيم الله في الأرض، لا تؤكل ولا تُشرب، حيث قصدت بها قضيت حاجتك. وقال قيس بن سعد: اللهم ارزقني حمداً ومجداً، فإنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال. وقد قيل لأبي الزناد (١): لِمَ تُحِبُّ الدَّرَاهِمَ وَهِيَ تَدْنِيكَ مِنَ الدُّنْيَا؟ فقال: هي وإن أدنتني منها، فقد صانتني عنها. وقال بعض الحكماء: من أصلح ماله، فقد صان الأكرمين: الدين والعرض. وقيل في منشور الحكم: من استغنى كرم على أهله. ومرّ رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء، فتحرك له وأكرمه. فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إلى هذا حاجة؟ قال: لا، ولكني رأيت ذا المال مهيباً. وسأل رجل محمد بن عُمَيْرَ بن عَطَّارٍ وَعَتَّابَ بن رُقَاءٍ في عشر ديات. فقال محمد: عليّ دية، وقال عتاب: الباقي عليّ، فقال محمد: نعم العون على المجد اليسار. وقال الأحنف بن قيس:

فَلَوْ مُدَّةَ سَرُورِي بِمَالٍ كَثِيرٍ لَجَدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بِإِذِلٍّ
فَإِنَّ الْمَرْوَةَ لَا تَسْتَطَاعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَالُهَا فَاضِلًا

وكان يقال: الدراهم مراهم؛ لأنها تداوي كل جرح، ويطيّب بها كلّ صلح وقال ابن الجلال:

رُزِقْتَ مَالًا وَلَمْ تُرْزَقْ مُرُوءَتَهُ وَمَا الْمَرْوَةُ إِلَّا كَثْرَةُ الْمَالِ

(١) أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان المدني القرشي. روى عنه جماعة من التابعين. وولاه عمر بن عبد العزيز خراج العراق.

إذا أردت رُقِّي العلياء يُقْعِدُنِي عَمَّا يُنَوِّهُ بِاسْمِي رَقَّةُ الْحَالِ
وقيل في منشور الحكم: الفقر مَحْذَلَةٌ، والغنى مَجْدَلَةٌ. والبؤس مرذلة، والسؤال
مبذلة. وقال أوس بن حجر:

أَقِيمْ بدار الحزم ما دامَ حَزْمُهَا وأخِرِ إذا حَالَتْ بِأَنْ اتَّحَوَّلَا
فإِنِّي وَجَدْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ خِفَافَ عُهودِ يُكْثِرُونَ التَّنْقِلَا
بني أُمِّ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ وإنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الْقَوْمِ جَحْفَلَا
وهم لِمَقْلٍ الْمَالِ أَوْلَادُ عُلَّة وإنْ كَانَ مَحْضًا فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوَّلَا
وقال بشر الصريّر:

كَفَى حَزَنًا أَنِي أُرُوحَ وَأَغْتَدِي وَمَالِي مِنْ مَالِ أَصُونٍ بِهِ عِرْضِي
وَأَكْثَرُ مَا أَلْقَى الصَّدِيقَ بِمَرْحَبَا وَذَلِكَ لَا يَكْفِي الصَّدِيقَ وَلَا يُرْضِي
وقال آخر:

أَجَلَّكَ قَوْمٌ حِينَ صَرْتَ إِلَى الْغِنَى وَكُلَّ غِنًى فِي الْعَيُونِ جَلِيلُ
وَلَيْسَ الْغِنَى إِلَّا غِنَى زَيْنِ الْفَقْرِ عَشِيَّةٌ يَقْرِي أَوْ غَدَاةٌ يُنِيلُ

مذاهب الناس في الغنى والفقر: وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر، مع
اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه، وما أبطر من الغنى مذموم، فذهب قوم
إلى تفضيل الغنى على الفقر: لأن الغني مقتدر، والفقير عاجز، والقدرة أفضل من
العجز، وهذا مذهب من غلب عليه جب النباهة. وذهب آخرون إلى تفضيل الفقر على
الغنى، لأن الفقير تارك، والغني ملايس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها. وهذا
مذهب من غلب عليه حب السلامة.

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين، بأن يخرج عن حد الفقر إلى أدنى
مراتب الغنى، ليصل إلى فضيلة الأمرين، ويسلم من مذمة الحالين. وهذا مذهب من
يرى تفضيل الاعتدال، وأن خيار الأمور أوساطها، وقد مضى شواهد كل فريق في
موضعها، بما أغنى من إعادته.

والسبب الثالث: أن يطلب الزيادة، ويقتني الأموال ليدخرها لولده، ويخلفها

لورثته ، مع شدة ضنّه على نفسه ، وكفه عن صرف ذلك في حقه ، إشفافاً عليهم من كدح الطلب ، وسوء المنقلب ، وهذا شقيّ بجمعها ، مأخوذ بوزرها ، قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لبّ: منها سوء ظنه بخالقه ، أنه لا يرزقهم إلا من جهته . وقد قيل : قتل القنوط صاحبه ، وفي حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد : كيف تبقى على حالتك والدهر في إحالتك . ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه ، وقد قيل : الدهر حَسود ، لا يأتي على شيء إلا غيره . وقيل في منشور الحكم : المال ملول . وقال بعض الحكماء : الدنيا إن بقيت لك ، لا تبقى لها . ومنها ما حُرِم من منافع ماله ، وسلب من وفور حاله ، وقد قيل : إنما مالك لك ، أو للوارث ، أو للجائحة ، فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد : اطرح كواذب آمالك ، وكن وارث مالك . ومنها : ما لحقه من شقاء جمعه ، وناله من عناء كده ، حتى صار ساعياً محروماً ، وجاهداً مذموماً . وقد قيل : رب مغبوط بمسرة هي داؤه ، ومرحوم من سقم هو شفاؤه ، وقال الشاعر :

وَمَنْ كَلَفَتْهُ النَّفْسُ فَوْقَ كِفَافِهَا فَمَا يَنْقُضِي حَتَّى الْمَمَاتِ عَنَاؤُهُ
ومنها : ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه

وقد حُكي أن هشام بن عبد الملك لما ثَقُلَ بكى ولده عليه ، فقال لهم : جاد لكم هشام بالدنيا ، وجُدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما كسب ، وتركتم عليه ما اكتسب ، ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له ، فأخذ هذا المعنى محمود الوراق ، فقال :

تَمَتَّعَ بِمَالِكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ وَإِلَّا فَلَا مَالَ إِذَا أَنْتَ مَيَّأٌ
شَقِيتَ بِهِ ثُمَّ خَلَّفْتَهُ لَغَيْرِكَ بَعْدَ وَسْحَقٍ وَمَقْتَا
فَجَادُوا عَلَيْكَ بِزُورِ الْبِكَاءِ وَجُدْتَ عَلَيْهِمْ بِمَا قَدْ جَمَعْتَا
وَأَرْهَنْتَهُمْ كُلَّ مَا فِي يَدَيْكَ وَخَلَّوْكَ رَهْنًا بِمَا قَدْ كَسَبْتَا

وروي أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ولّني . فقال النبي ﷺ : يا عباس يا عم النبي ﷺ ، قليل يكفيك ، خير من كثير يُرْدِيكَ ، يا عباس يا عم النبي ﷺ ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ، يا عباس يا عم النبي ﷺ

إن الإمارة أولها ندامة، وأوسطها ملامة، وآخرها خزي يوم القيامة، فقال: يا رسول الله، إلا من عدل، فقال رسول الله ﷺ: كيف تعدلون مع الأقارب؟ وقال رجل للحسن البصري رحمه الله: إني أخاف الموت وأكرهه. فقال: إنك خلّفت مالك، ولو قدّمته لسرك اللحاق به. وقيل في منثور الحكم: كثرة مال الميت تُعزّي ورثته عنه، فأخذ هذا المعنى ابن الرومي، فقال وزاد:

أبقيت مالك ميراثاً لوارثه فليت شعري ما أبقي لك المال؟
القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ واستحكم القول في الميراث والقال
ألهتهم عنك دنيا أقبلت لهم وأدبرت عنك والأيام أحوال

والسبب الرابع: أن يجمع المال، ويطلب المكائرة، استحلاء لجمعه، وشغفاً باحتجانه، فهذا أسوأ الناس حالاً فيه، وأشدّهم حرماناً له، قد توجهت إليه سائر الملاوم، حتى صار وبالاً عليه، ومذاماً له وفي مثله قال الله تعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم﴾ [التوبة: ٣٤]. فقال النبي ﷺ: «تَبّاً للذهب، تَبّاً للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: أيّ مال نتخذ؟ فقال عمر رضي الله عنه:، أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أيّ مال نتخذ؟ فقال: لساناً ذاكرآ، وقلباً شاكراً، وزوجة مؤمنة، تعين أحدكم على دينه». وروى شهر بن حوشب عن أمانة قال: «مات رجل من أهل الصّفة، فوجد في مئزره دينار. فقال النبي ﷺ: «كَيْتَانِ». ثم مات آخر، فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كَيْتَانِ». وإنما ذكر ذلك فيها وإن كان قد مات على عهده، من ترك أموالاً جمة، وأحوالاً ضخمة، فلم يكن فيه ما كان في هذين، لأنها تظاهرا بالقناعة، واحتجنا ما ليس بهما إليه حاجة، فصار ما احتجناه وزراً عليهما، وعقاباً لهما، وقد قال الشاعر:

إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تكُ ذا نَدَى فأنت إذن والمقترون سواء
على أن في الأموال يوماً تباعةً على أهلها والمقترون برآء
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

إن الذي رَزَقَ اليسارَ فلم يصب
والجدّ يدني كل شيء شاسع
وأحق خلق الله بالهم أمرؤ
ومن الدليل على القضاء وكونه
فإذا سمعت بأن محدوداً حوى
وإذا سمعت بأن محدوداً أتى
حداً ولا أجراً لغير موفّق
والجدّ يفتح كل باب مغلق
ذو همّة عليا وعيش ضيق
بؤس اللبب وطيب عيش الأحق
عوداً فأورق في يديه فحقق
ماء ليشربه فجفّ فصدّق

وأفة من بُلي بالجمع والاستكثار، ومُني بالإمساك والادّخار، حتى انصرف عن
رشده فغوى، وانحرف عن سنن قصده، فهو، أن يستولي عليه حب المال، وبعد
الأمل، فيبعثه حب المال على الحرص في طلبه، ويدعوه بعد الأمل على الشح به،
والحرص والشح أصل لكل ذم، وسبب لكل لؤم، لأن الشح يمنع من أداء الحقوق،
ويبعث على القطيعة والعقوق. ولذلك قال النبي ﷺ: « شر ما أعطى العبد شح هالع،
وجبن خالع ». وقال بعض الحكماء: الغني البخيل كالقوي الجبان.

وأما الحرص فيسلب فضائل النفس، لاستيلائه عليها، ويمنع من التوفر على العبادة،
لتشاغله عنها، ويبعث على التورط في الشبهات، لقلّة تحرزه منها، وهذه الثلاث خصال
هن جامعات الرذائل، سالبات الفضائل، مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على
رزقه، سوى إذلال نفسه، وإسقاط خالقه. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: « الحريص
الجاهد، والقنوع الزاهد، يستوفيان أكلهما غير منتقص منه، فعلام التهاافت في
النار؟ ». وقال بعض الحكماء: الحرص مفسدة للدين والمروءة، والله ما عرفت من وجه
رجل حرصاً فرأيت أن فيه مصطنعاً.

وقال آخر: الحريص أسير مهانة لا يُفكّ أسره. وقال بعض البلغاء: المقادير الغالبة
لا تنال بالمغالبة. والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة، فذلّ للمقادير نفسك،
واعلم بأنك غير نائل بالحرص إلا حظك. وقال بعض الأدباء: ربّ حظ أدركه غير
طالبه، ودّرّ أحرزه غير حالبه.

وأشدني بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم:

يا أسير الطمّيع الكا ذب في غلّ الهوانِ

إن عز اليأس خير لك من ذل الأمان
سامح الدهر إذا عدّ زَ وخذ صفو الزمان
ربما أعدم ذو الحرص ص وأثرى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها، ولا نهاية محدودة يقنع بها، لأنه إذا وصل بالحرص إلى ما أمل، أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل، وإذا لم يصل رأى إضافة العناء لوماً، والصبر عليه حزماً، وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء، وأبسط أملاً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان: الحرص والأمل». وقيل للمسيح عليه السلام: ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب؟ قالوا: لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب. ولو صدق الحريص نفسه، واستنصح عقله، لعلم أن من تمام السعادة، وحسن التوفيق، الرضا بالقضاء، والقناعة بالقسم.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتصادوا في الطلب فإن ما رزقتموه أشد طلباً لكم منكم له، وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم». وروي أن جبريل على نبينا وعليه السلام، هبط على النبي ﷺ فقال: إن الله تبارك وتعالى، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ولا تمدن عينك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١] فأمر النبي ﷺ منادياً ينادي: من لم يتأدّب بأدب الله تعالى، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وقيل: مكتوب في بعض الكتب: رُدّوا أبصاركم عليكم، فإن لكم فيها شغلاً. وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى: ﴿فلنجنيه حياة طيبة﴾ [النحل: ٩٧]: قال بالقناعة. وقال أكرم بن صيفي: من باع الحرص بالقناعة، ظفر بالغنى والمروءة. وقال بعض السلف: قد يخيب الجاهل الساعي، ويظفر الوادع الهادي، فأخذه البحري، فقال:

لم ألق مقدوراً على استحقاقه في الحظ إما ناقصاً أو زائداً
وعجبت للمحدود يحرم ناصباً كلفا وللمجدود يغنم قاعداً
ما خطب من حُرِّم الإرادة قاعداً خطب الذي حرم الإرادة جاهداً.

وقال بعض الحكماء : إن من قنع كان غنياً ، وإن كان مقتراً ، ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثرًا . وقال بعض البلغاء : إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة ، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فمن أطاع الله عز وجل ، عز نصره . ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الأدباء : القناعة عز المعسر ، والصدقة حرز الموسر ، وقال بعض الأدباء :

إني أرى من له قنوع يدرك ما نال من تمى
والرزق يأتي بلا عناء وربما فات من تمنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : فالوجه الأول أن يقنع بالبلغة من دنياه ، وبصرف نفسه عن التعرض لما سواه ، وهذا أعلى منازل أهل القناعة . وقال الشاعر :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها
وقال مالك بن دينار : أزهّد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته . وقال بعض الحكماء : الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف . وقال بعض الأدباء : رب ضيق أفضل من سعة ، وعناء خير من دعة .

وأنشدني بعض أهل الأدب : وذكر أنه لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه :

أفادتني القناعة كل عز وأي غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
تحرّز حين تغنى عن بجيل وتنعم في الجنان بصبر ساعة

والوجه الثاني : أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ، ويحذف الفضول والزيادة ، وهذا أوسط حال المقتنع . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب ، فإن قنع واقتصد أتاه رزقه ، وإن هتك الحجاب لم يزد في رزقه » . وقال بعض الحكماء : طلب ما فوق الكفاف إسراف . وقال بعض البلغاء : من رضي بالمقدور ، قنع بالميسور ، وقال البحتري :

تطلب الأكز في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالأقل
وأنشدت لإبراهيم بن المدبر :

إن القناعة والعفا فليغنيان عن الغنى

فإذا صَبَرْتَ عن المنى فاشكر فقد نلت المُنَى

والوجه الثالث : أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح ، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً ، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً . وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة ، لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة : أما الرغبة فلائنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت . وأما الرهبة فلائنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت . وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه : من كانت قناعته سمينة ، طابت له كل مَرَقَة .

وقد روى الحسن بن الحسن بن عليّ ، عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دُول ، فما كان منها لك أتاكَ على ضعفك ، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوّتك ، ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ، ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرّت عينه . » وقال أبو حازم الأعرج ، وجدت الدنيا شيئين : شيئاً هو لي لن أعجله قبل أجله ، ولو طلبته بقوّة السموات والارض . وشيئاً هو لغيري ، وذلك مما لم أنله فيما مضى ، ولا أناله فيما بقي ، يُمنع الذي لي من غيري ، كما يُمنع الذي لغيري مني ، فني أيّ هذين أفني عمري ، وأهلك نفسي .

وقال أبو الطائي :

لا تأخذني بالزمان فليس لي	تبعاً ولست على الزمان كفيلاً
من كان مرعى عزمه وهمومه	روض الأمانى لم يزل مهزولاً
لو جاز سلطان القنوع وحكمه	في الخلق ما كان القليل قليلاً
الرزق لا تكمد عليه فإنه	يأتي ولم تبعث إليه رسولاً

وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي :

جرى قلم القضاء بما يكونُ	فسيان التحرك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزق	ويُرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤول ، وأفضل مأمول ، أن يحسن إلينا التوفيق فيما منّح ، ويصرف عنا الرغبة فيما منّع ، إستكفافاً لتبعات الثروة ، ومُوبقات الشهوة . روى شريك بن أبي نمر ، عن أبي الجذع ، عن أعمامه وأجداده ، عن النبي ﷺ ، أنه قال :

« خير أمتي الذين لم يُعْطُوا حتى يَبْطُرُوا ، ولم يُقْتَرُوا حتى يَسْأَلُوا » .

وقال أبو تمام الطائي:

أضحى بشارب مُرْقِدٍ ما غَمَّضَا	عندي من الأيام ما لو أنه
فترومه سَبْعاً إذا ما غَيَّضَا	لا تطلبنّ الرزق بعد شِياسِه
ما فاته دون الذي قد عُوْضَا	ما عُوْض الصبر امرؤ إلا رأى

باب ادب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة، وأخلاق مرسلّة، لا يستغني محمودها عن التأديب، ولا يُكتفى بالمرضيّ منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أصداداً مقابلة، يُسعدّها هوى مطاع، وشهوة غالبّة؛ فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى العقل، أو توكلّأ على ان تنقاد إلى الأحسن بالطبع، أعدمه التفويض ذرّك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلاً، وفي صورة الجهل داخلاً، لأن الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكل قوم مواضعة، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطبع، حتى يُكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالدُرْبَةِ والمعاطاة، ثم يكون العقل عليه قَيّاً، وزكيّ الطبع إليه مسلماً، ولو كان العقل مغنياً عن الأدب، لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين، وبعقولهم مكتفين. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: من أدّبك؟ قال: ما أدّبنى أحد، ولكني رأيت جهل الجاهل فجانبته. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم، فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها. وقال أردشير بن بابك: من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان، ومتزيّن به في كل مكان، وباق ذكره على أيام الزمان.

وقال مهبود: شُبّه العالم الشريف العديم الأدب بالبُنيان الخراب، الذي كلما علا سَمَكه، كان أشدّ لوحشته؛ وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق، كان أشدّ لوعورته، وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به

التفافاً، وصار للهوام مسكناً. وقال ابن المقفع: ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من الطعام والمشرب، بأحوج منا إلى الأدب، الذي هو لِقاح عقولنا، فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها.

وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى، أن أعرابيا قال لابنه: يا بني، الأدب دعامة أيد الله بها الألباب، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب. فالعقل لا يستغني وإن صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته، كما لا تستغني الأرض وإن عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها. وقال بعض الحكماء: الأدب صورة العقل، فصور عقلك كيف شئت. وقال آخر: العقل بلا أدب، كالشجر العاقر، ومع الأدب كالشجر المثمر وقيل: الأدب أحد المنصين. وقال بعض البلغاء: الفصل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب، لأن من ساء أدبه، ضاع نسبه، ومن قلّ عقله ضلّ أصله. وقال بعض الأدباء: ذكّ قلبك بالأدب، كما تذكي النار بالخطب، واتخذ الأدب غنما، والحرص عليه حضا، يرتجيك راغب، ويخاف صوتك راهب ويؤملُ نفعك، ويرجى عدلك. وقال بعض العلماء: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة. وقال بعض الفصحاء: الأدب يستر قبيح النسب. وقال بعض الشعراء فيه:

فما خلق الله مثل العقول	ولا اكتسب الناس مثل الأدب
وما كرم المرء إلا التقى	ولا حسب المرء إلا النسب
وفي العلم زين لأهل الحجا	وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وأنشد الأصمعي رحمه الله:

وإن يك العقل مولودا فلسْتُ أرى	ذا العقل مستغنيا عن حادث الأدب
إني رأيتهما كالماء مختلطاً	بالترب تظهر منه زهرة العُشب
وكل من أخطأته في موالده	غريزة العقل حاكي البهيم في الحسب

والتأديب يلزم من وجهين: أحدهما: ما لزم الوالد لولده في صغره والثاني: ما لزم الإنسان في نفسه عند نشأته وكبره.

فأما التآديب اللازم للأب، فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها، وينشأ عليها، فيسهل عليه قبولها عند الكبر، لاستئناسه بمبادئها في الصغر، لأن نشأة الصغير على الشيء، تجعله متطبعا به، ومن أغفل في الصغر، كان تأديبه في الكبر عسيرا. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « ما نحل والد ولدَه نخلة أفضل من أدب حسن يفيدَه إياه، أو جهل قبيح يكفه عنه، ويمنعُه منه ». وقال بعض الحكماء: بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال، وتفرق البال. وقال بعض الشعراء:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأذب الأحداث في صغر وليس ينفع عند الشيبة الأذب
وقال آخر:

ينشو الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر
وأما الأدب اللازم للإنسان عند نشأته وكبره فأدبان: أدب مواضعة واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح:

فأما أدب المواضعة والاصطلاح، فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء، واتفق عليه استحسان الأدباء، وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط، ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب، واتفاقهم على هيئات اللباس، حتى إن الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار بجانب للأدب، مستوجبا للذم، لأن فراق المؤلف في العادة، ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة، مفض إلى استحقاق الذم بالعقل، ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة، ومعنى حادث، وقد كان جائزا في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه، فيرويه حسنا، ويرون ما سواه قبيحا، فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل، من حيث توجه الذم على تاركه، ومخالفا له من حيث إنه كان جائزا في العقل أن يوضع على خلافه.

وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها، ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها، وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط، ووضوح صحته بالدليل مرتبط، وللنفس على ما يأتي من ذلك

شاهد، ألهمها الله تعالى إرشاداً لها، قال الله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما: بين لها ما تأتي من الخير، وتذر من الشر. وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه، فإنه أولى به وأحق.

فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح: أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه، فيخفى عنه مذموم شيمه، ومساوىء أخلاقه. لأن النفس بالشهوات آمرة، وعن الرشد زاجرة. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال ﷺ: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك، ثم أهلك، ثم عيالك». ودعت أعرابية لرجل فقالت: كبت الله كل عدو لك إلا نفسك، فأخذه بعض الشعراء، فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

فإذا كانت النفس كذلك، فحسن الظن بها ذريعة إلى تحكيمها، وتحكيمها داع إلى سلطتها، وفساد الأخلاق بها؛ فإذا صرف حسن الظن عنها، وتوسمها بما هي عليه من التسويف، والمكر، فاز بطاعتها، وانحاز عن معصيتها. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: العاجز من عجز عن سياسة نفسه. وقال بعض الحكماء: من ساس نفسه ساد ناسه.

فأما سوء الظن بها، فقد اختلف الناس فيه، فمنهم من كرهه، لما فيه من اتهام طاعتها، ورد مناصحتها، فإن النفس وإن كان لها مكر يُردي، فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يُعمي عن مساوئها، كان سوء الظن بها يُعمي عن محاسنها. ومن عَمي عن محاسن نفسه، كان كمن عَمي عن مساوئها، فلم ينف عنها قبيحاً، ولم يهد إليها حسناً. وقد قال الجاحظ في كتاب البيان: يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصداً، فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل.

وقال الأحنف بن قيس: من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده

أهدم: وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها، وأوفر في اجتهادها، لأن
لنفس جَوْرًا لا ينفك إلا بالسخط عليها، وغروراً لا ينكشف إلا بالتهمة لها، لأنها
محبوبة تجور إدلالاً، وتغرّ مكرًا، فإن لم يسيء الظن بها، غلب عليه جَوْرُها، وتموه
عليه غرورها، فصار بميسورها قانعاً، وبالشبهة من أفعالها راضياً. وقد قالت الحكماء:
من رضي عن نفسه، أسخط عليه الناس. وقال كشاجم:

لم أرضَ عن نفسي مخافةً سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغصابها
ولَو أنني عنها رضيت لقصرتُ عما تزيد بمثلها آدابها
وتَبَيَّنَتْ آثارَ ذاك فأكثرْتُ عذلي عليه فطال فيه عتابها
وقد استُحْسِنَ قول أبي تمام الطائي:

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مَفْتُونُ

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذماً، ولا استقلال عمله لؤماً، بل رأوا ذلك أبلغ في
الفضل وأبعث على الازدياد. فإذا عرف من نفسه ما تُجَنّ، وتصور منها ما تُكِنّ، ولم
يطاوعها فيما يحبُّ إذا كان غياً، ولا صرف عنها ما تكره إذا كان رُشداً، فقد ملكها
بعد أن كان في ملكها، وغلبها بعد أن كان في غلبها وقد روى أبو حازم عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشديد من غلب نفسه». وقال عون
ابن عبد الله: إذا عصمتك نفسك فيما كرهت، فلا تطعها فيما أحبت، ولا يغرّنك ثناء من
جهل أمرك. وقال بعض البلغاء: من قوِيَ على نفسه، تنهى في القوة، ومن صبر عن
شهوته، بالغ في المروءة، فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنّت، خبرة ما أجنّت،
بتقويم عوجها، وإصلاح فسادها. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول
الله: متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: إذا عرف نفسه، ثم يراعي منها ما صلح واستقام،
من زيغ يحدّث عن إغفال، أو ميل يكون عن إهمال، ليتم له الصلاح، وتستديم له
السعادة، فإن المُغْفَلَ بعد المعاناة ضائع، والمهمّل بعد المراجعة ذائع.

وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح، فصولاً تحتوي على ما يلزم
مراعاته من الأخلاق، ويجب معاناته من الأدب، وهي ستة فصول متفرعة.

الفصل الأول: في مجانبة الكبر والإعجاب

لأنها يسلِّبان الفضائل، ويَكْسِبان الرذائل، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب، لأن الكبر يكون بالمنزلة، والعُجْب يكون بالفضيلة، فالتكبر يُجِلُّ نفسه عن رتبة المتعلمين، والمُعْجَب يستكثر فضله عن استزادة المتأدِّبين، فلذلك وجب تقديم القول فيها، بإبانة ما يَكْسِبانه من ذم، ويوجبانه من لوم، فنقول:

أما الكبر فيَكْسِبُ المَقْتَ، ويُلْهِى عن التَأَلُّفِ، ويوغر صدور الإخوان، وخَسِبَكَ بذلك سوءاً عن استقصاء ذمه، ولذلك قال النبي ﷺ لعنه العباس: أنهاك عن الشرك بالله والكبر، فإن الله يحتجب منها. وقال أردشير بن بابك: ما الكبر إلا فضل حُمُقٍ، لم يدر صاحبه أين يذهب به، فيصرفه إلى الكبر؛ وما أشبه ما قال بالحق.

وحُكِيَ أن مطرّف بن عبدالله بن الشَّخِيرِ نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها، ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبدالله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك: أولئك نطفة مَذِرَةٍ، وآخرك جيفة قَذِرَةٍ، وحشوك فيما بين ذلك بَوْلٌ وعذرة. فأخذ ابن عوف هذا الكلام، فنظمه شعراً، فقال:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ وَكَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً مَذِرَةً
وَفِي غَدٍ بَعْدَ حَسَنِ صُورَتِهِ يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَةً
وَهُوَ عَلَى تِيهِ وَنَخْوَتِهِ مَا بَيْنَ ثَوْبِيهِ يَحْمِلُ الْعَذِرَةَ

وقد كان المهلب أفضل من أن تُخَدَعَ نفسه بهذا الجواب، ولكنها زَلَّةٌ من زلات الاسترسال، وخطيئة من خطايا الإدلال.

فأما الحمق الصريح، والجهل القبيح، فهو ما حُكِيَ عن نافع بن جبير بن مطعم، أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحِزْقِيِّ وهو يقرئ الناس، فلما فرغ قال: أتدرون لم جلست إليكم! قالوا: جلست لتسمع، قال: لا، ولكن أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم. فهل يُرَجَى من مثل هذا فضل، أو ينفع فيه عَذْلٌ؟ وقد قال ابن المعتز: لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكبر، ليعظَّم صغيرا، ويرفع حقيرا، وليس بفاعل.

وأما الإعجاب فيُخفي المحاسن، ويظهر المساوي، ويكسب المذاق، ويصدّ عن الفضائل. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العُجب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الإعجاب، ضدّ الصواب، وآفة الألباب. وقال بُزْرجَمهر: النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها: التواضع، والبلاء الذي لا يُرحم صاحبه منه: العُجب. وقال بعض الحكماء: عُجب المرء بنفسه أحد حُساد عقله. وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حدّ، ولا إلى ما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية، حتّى إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، وناهيك بسيئة نُحيط كل حسنة، وبمُدّة تهدم كل فضيلة، مع ما يثيره من حَقّ، ويكسبه من حقد.

حكى عمرُ بن حفص قال: قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل، لو كان الله بلّغي قتل أربعة، فتقرّبت إليه بدمائهم. قيل: ومن هم؟ قال: مقاتل بن مسعم: وليّ سجستان، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما عَزَل دخل مسجد البصرة، فبسط الناس له أرديتهم، فمشى عليها، وقال لرجل يماشيه: لمثل هذا فلعمل العاملون.

وعبدالله بن زياد بن ظبيان التيمي: خوّف أهل البصرة أمرا، فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد: أكثر الله فينا مثلك؟ فقال: لقد كلّفت الله شططا. ومعبّد بن زُرارة كان ذات يوم جالسا في طريق، فمرت به امرأة، فقالت له: يا عبدالله، كيف الطريق إلى موضع كذا؟ فقال: يا هُنا، مثلي يكون من عبيد الله!

وأبو سَمال الأسديّ، أضلّ راحلته، فالتمسها الناس، فلم يجدوها، فقال: والله إن لم يرد إليّ راحلتي لأصليت له صلاة أبدا، فالتمسها الناس فوجدوها، فقالوا: قد ردّ الله راحلتك فصلّ، فقال: إن يميني يمين مُصير.

فانتشر إلى هؤلاء، كيف أفضى بهم العُجب إلى حُقق، صاروا به نكالا في الأوّلين، ومثلا في الآخرين. ولو تصوّر المعجب المتكبر ما فُطِر عليه من جبلة، وبُليّ به من مَهنة، لخفض جناح نفسه، واستبدل لنا من عُتوّه، وسكونا من نفوره. وقال الأحنف ابن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين، كيف يتكبر؟ وقد وصف بعض

الشعراء الإنسان فقال :

يا مُظْهِرَ الكبرِ إعجاباً بصُورتهِ أنظرْ خَلَاقَ فَإِنِ النَّتَنَ تَثريبُ
لو فكرَ الناسَ فيما في بطونهم ما استشعرَ الكبرَ شُبَّانُ ولا شيبُ
هل في ابنِ آدمَ مثلُ الرأسِ مكرمةً وهو بِجَمَسٍ مِنَ الْأَقْذَارِ مَضْرُوبُ
أنفٌ يسيلُ وأذنٌ ريحها سَهْكَ والعينُ مرفضةٌ والثغرُ ملعوبُ
يا بنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غَدًا أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وأحق من كان للكبر مجانباً، وللإعجاب مبيناً، من جلّ في الدنيا قدره، وعظم فيها خطره، لأنه قد يستقل بعالي همته كلّ كثير، ويستصغر معها كل كبير. وقال محمد بن عليّ: لا ينبغي للشریف أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطيراً، فيكون مهاناً بها. وقال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد: التواضع والشرف.

وللكبر أسباب: فمن أقوى أسبابه علو اليد، ونفوذ الأمر، وقلة مخالطة الأكفاء. وحكي أن قوماً مشّوا خلف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: أبعدوا عني خفق نعالكم، فإنها مفسدة لقلوب نوّكى الرجال. ومشّوا خلف ابن مسعود، فقال: ارجعوا فإنها زلة للتابع، وفتنة للمتبوع.

وروى قيس بن حازم أن رجلاً أتى به للنبي ﷺ، فأصابته رعدة. فقال له ﷺ: «هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد». وإنما قال ذلك ﷺ حسماً لمواد الكبر، وقطعاً لذرائع الإعجاب، وكسراً لإسراف النفس، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء. ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه نادى الصلاة جامعة؛ فلما اجتمع الناس صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: أيها الناس: لقد رأيته أرفع على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب، فأظلل اليوم وأي يوم؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك. فقال عمر رضي الله عنه: ويحك يا بن عوف! إني خلوت، فحدثتني نفسي، فقالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك، فأردت أن أعرفها نفسها.

فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا، والتملق خديعة وملعباً، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ: «أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له: قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المدح ذبح. وقال ابن المقفع: قابل المدح كمدح نفسه. وقال بعض الحكماء: من رضي أن يمدح بما ليس فيه، فقد أمكن السآخر منه. ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والتماذج، فإنه الذبح، إن كان أحدم مادحا أخاه لا محالة، فليقل أحسب ولا أزمى على الله أحدا». وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة: عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح؟ وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟ وقال بعض الشعراء:

يا جاهلاً غرّه إفراط مادحيه لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
أتى وقال بلا علم أحاط به وأنت أعلم بالمحصول من ريبك
وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها، ويمنعها من تصديق المدح لها. فإن للنفس ميلا لحب الثناء، وسماع المدح. وقال الشاعر:

يهوى الثناء مبرّر ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان

فإذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة، تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة، ولها بها عن المحاسن الممنوحة، فصار الظاهر من مدحه كذبا، والباطن من ذمه صدقا، وعند تقابلها يكون الصدق ألزم الأمرين، وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل، ولا ينخدع بها ميمز. وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول، ويكف مع الإباء؛ فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته، ولتكن تهمة المادح أغلب عليه؛ فقل مدح كان جميعه صدقا، وقل ثناء كان كله حقا، ولذلك كرهه أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح، تحرّزا من التجاوز فيه، وتنزيها عن التملق به. وقد رَوَى مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عيّابين ولا تكونوا لعانين ولا متماذجين ولا متماوتين». وحكى الأصمعي: أن أبا بكر رضي الله عنه كان إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم. اللهم اجعلني

خيراً مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. وقال بعض الشعراء :

إذا المرء لم يمدحه حُسْنُ فِعَالِهِ فمادحه يهذي وإن كان مفصّحاً
وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه، إمّا لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله، وأخلوا بحقه. وإمّا ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء، فيعتقدون أن قوله حق متّبع، وصدق مستمع.
وإمّا لتلذذ بسماع الثناء، وسرور نفسه بالمدح والإطراء، كما يتغنى بنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً، ولا غناء ممتعاً، ولأَيِّ ذلك كان، فهو الجهل الصريح، والنقص الفاضح. وقد قال بعض الشعراء :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالاً تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنّه ولا كلّ أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظاً ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفاء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه، التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظراً، وأسلم فكراً، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضاً عن تصديق المدح فيه. وقد رَوَى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، أنه قال: «المؤمن مرآة المؤمن، إذا رأى فيه عيباً أصلحه» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إلينا مساوينا. وقيل لبعض الحكماء: أتحب أن تُهْدَى إليك عيوبك؟ قال: نعم، من ناصح.

ومما يقارب معنى هذا القول ما رُوي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: من ترى أن نوليّه حصص؟ فقال: رجلاً صحيحاً منك، صحيحاً لك. قال: تكون أنت ذلك الرجل؟ قال: لا تنتفع بي مع سوء ظني بك، وسوء ظنك بي. وقيل في منثور الحكم: من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها. فإذا قطع أسباب الكبر، وحسم موادّ العُجْب، اعتاض بالكبر تواضعاً، وبالعُجْب تودداً، وذلك من أوكد

أسباب الكرامة، وأقوى مواد النعم، وأبلغ شافع إلى القلوب، يعطفها إلى المحبة، ويشيئها عن البغض. وقال بعض الحكماء: من برىء من ثلاث نال ثلاثاً: من برىء من السرف نال العز، ومن برىء من البخل نال الشرف، ومن برىء من الكبر نال الكرامة. وقال مصعب بن الزبير: التواضع مصايد الشرف. وقيل في منشور الحكم: من دام تواضعه كثر صديقه. وقد تُحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقاً مذمومة. يظهرها سوء طباعهم، ولآخرين فضائل محدودة، يبعث عليها زكاء شيمهم، لأن لتقلب الأحوال سكرة تظهر من الأخلاق، مكنونها، ومن السرائر مخزونها، لاسيما إذا هيجت من غير تدريج، وطرقت من غير تأهّب. وقد قال بعض الحكماء: في تقلب الأحوال، تعرف جواهر الرجال. وقال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدره، تكبر لها، ومن كانت ولايته دون قدره، تواضع لها: وقال بعض البلغاء: الناس في الولاية رجلان: رجل يجلّ العمل بفضله ومروءته، ورجل يجلّ بالعمل لنقصه ودناءته؛ فمن جلّ عن عمله، ازداد به تواضعاً وبشراً، ومن جلّ بعمله لبس به تجبراً وتكبّراً.

الفصل الثاني: في حسن الخلق

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى اختار لكم الإسلام ديناً، فأكرموا بحسن الخلق والسخاء، فإنه لا يكمل إلا بهما» وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدواء الدواء؟ قالوا بلى. قال: الخلق الدني، واللسان البذي. قال بعض الحكماء: من ساء خلقه ضاق رزقه. وعلة هذا القول ظاهرة. وقال بعض البلغاء: الحسنُ الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، والسيء الخلق الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء. وقال بعض الحكماء: عاشر أهلك بأحسن أخلاقك، فإن الثواء فيهم قليل. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيف بهم فسيحات البلاد
إذا ما المرء لم يخلق لبيباً فليس اللب عن قِدم الولاد

فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقلّ معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «حسن الخلق

وحسن الجوار يَعْمُرَان الديار ويزيدان في الأعمار» وقال بعض الحكماء: من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين، وقلة الأعداء المجحفين. ولذلك قال النبي ﷺ: «أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَّوْنُ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ». وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة؛ وقد بين رسول الله ﷺ هذه الأوصاف فقال: «أهل الجنة كل هَيِّنٍ لَيِّنٍ، سَهْلٍ طَلْقٍ» ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدود مقدرة، ومواضع مستحقة، كما قال الشاعر:

أَصْفُو وَأَكْدَرُ أَحْيَانًا لِمَخْتَبِرِي وليس مستحسنًا صَفُوًّا بَلَا كَدَرِ

وليس يريد بالكدر البداء وشراسة الخلق، فإن ذلك ذم لا يستحسن: وعيب لا يرتضى، وإنما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المساعد، ويذم فيه الموافق؛ فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة، ومواضع مستحقة، فإن تجاوز بها الحد صارت مَلْفًا، وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقًا، والمَلْفُ ذل، والنفاق لؤم، وليس لمن وُسِمَ بهما ودَّ مبرور، ولا أثر مشكور. وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «شر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجهًا عند الله تعالى». وقال سعيد بن عروة: لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان، على ما فيها من قبح المنظر، وعجز المخبر، أحب إلي من أن أكون ذا وجهين، وذا لسانين، وذا قولين مختلفين.

وقال الشاعر:

خَلَّ النِّفَاقُ لِأَهْلِهِ وعليك فالتمس الطريقًا
وارغب بنفسك أن تُرَى إلا عدوًّا أو صديقًا

وقال إبراهيم بن محمد:

وكم من صديق ودَّه بلسانه خَوَّوْنَ بظُهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عَجَبًا إذا ما لقيته وَيُقْذِعُنِي مِنْهُ إِذَا غَبَتْ أَسْهُمُ
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهداً وفي غيبه إن غاب صابٌ وعلقم

وربما تغبر حسن الخلق والوطاء، إلى الشراسة، والبذاء لأسباب عارضة، وأمور طارئة، تجعل اللين خشونة، والوطاء غلظة، والطلاقة عبوساً.

فمن أسباب ذلك الولاية التي تحدث في الأخلاق تغيراً، وعلى الخلطاء تنكراً، إما من لؤم طبع، وإما من ضيق صدر. وقد قيل: من تاه في ولايته، ذل في عزله. وقبل: ذل العزل يضحك من تيه الولاية.

ومنها العزل، فقد يسوء منه الخلق، ويضيق به الصدر، إما لشدة أسف أو لقلّة صبر.

حكى حميد الطويل: أن عمار بن ياسر عُزل عن ولاية، فاشتد ذلك عليه، وقال: إني وجدتُها حلوة الرضاع، مرة الفطام.

ومنها الغني، فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً، وتسوء طرائقه أشراً. وقد قيل: من نال استتال. وأنشد الرياشي:

غضبانٌ يعلم أن المال ساق له ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني فأكرم الناس من كانت له ورق
وقال بعض الشعراء:

لئن تكن الدنيا أنالتك ثروةً فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عُسْرٍ
لقد كشف الإثراء منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقرِ
وبجسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر:

وكتب قتيبة بن مسلم إلى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه، فكتب إليه أن اقطع عنهم الأرزاق. ففعل، فساءت حالهم، فاجتمعوا إليه فقالوا: أقلنا، فكتب إلى الحجاج فيهم، فكتب إليه: إن كنت آنت منهم رشداً. فأجر عليهم ما كُنت تجري.

واعلم أن الفقر جند الله الأكبر، يذل به كل جبار عنيد يتكبر. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء: الفقر والمرض والموت».

ومنها الفقر، فقد يتغير به الخلق، إما أنفة من ذلك الاستكانة، أو أسفاً على فائت

الغنى. ولذلك قال النبي ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب
القدر » . وقال أبو تمام الطائي :

وأعجب حالات ابن آدم خلقه يَظِلُّ إذا فكرت في كنهه الفكرُ
فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ويجزع مما صار وهو له ذخر
وربما تسلى من هذه الحالة بالأمانى ، وإن قلّ صدقها ، فقد قيل : قلما تصدق
الأمنية ، ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم ، أو مسرة برجاء . وقد قال أبو العتاهية :
حرّك منك إذا اغتممت ممت فإنهن مراوح
وقال آخر :

إذا تمنيت بتّ الليل مغتبطاً إن المني رأس أموال المفاليس
ومنها المموم التي تُذهل اللب ، وتشغل القلب ، فلا تتبع الاحتمال ، ولا تقوى على
صبر . وقد قيل : الهم كالسمّ وقال بعض الأدباء : الحزن كالداء المخزون في فؤاد
المحزون .

وقال بعض الشعراء :

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وحام عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم
حلاوة دنيك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسم
فكم قدر دبّ في مهلة فلم يعلم الناس حق هجّم
ومنها الأمراض التي يتغير بها الطبع ، كما يتغير بها الجسم ، فلا تبقى الأخلاق على
اعتدال ولا يتدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي :

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولّى
وإذا الشيخ قال أفّ فما ملّ حياة وليكن الضّعف ملّا
وإذا لم تجد من الناس كُفئاً ذات خيدر أرادت الموت بعلّا

أبداً تسترد ما تهبُّ الدُّنْيا فيا فيا ليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن، وحدوث الهرم لتأثيره في آلاي جسد، كذلك يكون تأثيره في
أخلاق النفس، فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أُنْقال، فكذلك تعجز
النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق، ومضيق الشقاق، وكذلك
ماضاهاه: وقال منصور الثمري:

ما كنت أوفى شبابي كنة عزته حتى مضى فإذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجني لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما أبقي حلاوة ذكره التي تدع
ما واجه الشيب من عين وإن رمقت إلا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى لولا يعزيك أن العمر منقطع
فهذه سبعة أسباب، أحدثت سوء خلق كان عاماً وههنا سبب خاص يحدث سوء
خلق خاص، وهو البغض الذي تنفر منه النفس، فتحدث نفوراً عن المبغض، فيؤول
إلى سوء خلق يخصه دون غيره، فإذا كان سوء الخلق حادثاً بسبب، كان زواله مقروناً
بزوال ذلك السبب، ثم بالضد.

الفصل الثالث: في الحياء

اعلم أن الخير والشر معانٍ كامنة تعرف بسمات دالة، كما قالت العرب في أمثالها:
تخبر عن مجهوله مرآته. وكما قال سلم بن عمرو الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر
فسمة الخير: الدعة والحياء، وسمة الشر: القحة والبذاء، وكفى بالحياء خيراً أن
يكون على الخير دليلاً، وكفى بالقحة والبذاء شراً، أن يكونا إلى الشر سبيلاً. وقد
روى حسان بن عطية عن أبي أمامة. قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء والعِي شُعبتان
من الإيمان، والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق». ويشبه أن يكون العِي في معنى
الصمت، والبيان في معنى التشدق، كما جاء في الحديث الآخر: «إن أبغضكم إليّ
الثرثارون المتفيهقون المتشدقون». وروى أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن

رسول الله ﷺ قال: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار». وقال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه. وقال بعض البلغاء: حياة الوجه بحيائه، كما أن حبة الغرس بمائه. وقال بعض البلغاء العلماء: يا عجباً! كيف لا تسحي من كثرة ما لا تستحي، وتتقي من طول ما لا تتقي؟! وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قلّ ماء الوجه قلّ حياؤه ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه
حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاّد عن قبيح، ولا زاجر عن محذور، فهو يُقدم على ما يشاء، ويأتي ما يهوى، وبذلك جاء الخبر، رَوَى شُعْبَةُ عَنْ مَنْصُور بْنِ رَبِيعٍ عَنْ أَبِي مَنْصُور الْبَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِوَةِ الْأَوَّلَى: يَا بَنَ آدَمَ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ». وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام، ومواضع الخطاب. وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيًا بخير ويبقى العود ما بقي اللّحاء

واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر. فقال أبو بكر بن محمد الشاشي^(١) في أصول الفقه: معنى هذا الحديث أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء، لا يردعه عنه رادع، فليستحي المرء فإن الحياء يردعه. وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من أصحاب أبي حنيفة أن المعنى فيه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها، فجعل الحياء حكماً على أفعاله، وكلا القولين حسن؛ والأول أشبه لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج المدح. ولكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني. وهو قوله ﷺ: «ما

(١) هـ ابن بكر القفال الشاشي، من كبار الفقهاء والمحدثين، نسب إلى الشاش، وعني بمذهب الشافعي.

أحببت أن تسمعه أذناك فأتته، وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه». ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه، ويكون التأويل الأول في الحديث المتقدم أصح، إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله ﷺ كلها متفقة المعاني، بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة، وأبلغ في الفصاحة إذا لم يضاد بعضها بعضاً.

واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه. أحدها: حياؤه من الله تعالى. والثاني: حياؤه من الناس. والثالث: حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره، والكف عن زواجه. وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله عز وجل حق الحياء، فقل يا رسول الله، فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء؟ قال: من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلوى: فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء». وهذا الحديث من أبلغ الوصايا.

وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب: رأيت رسول الله ﷺ في المنام ذات ليلة، فقلت يا رسول الله، أوصني، فقال: استحي من الله عز وجل حق الحياء، ثم قال: تغير الناس. قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: كنت أنظر إلى الصبي، فأرى من وجهه البشر والحياء، وأنا أنظر إليه اليوم، فلا أرى ذلك في وجهه.

ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها، وأذهلني السرور عن حفظها، وددت لو أتي حفظتها. فلم يبدأ بشيء ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل، وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سبباً لتغير الناس. وخص الصبي، لأن ما يأتيه بالطبع، من غير تكلف، فصلّى الله وسلم على من هدى أمته، وتابع إنذارها، وقطع أعارها، وواصل تأديبها، وحفظ تهذيبها، وجعل لكل عصر حظاً من زواجه، ونصيياً من أوامره. أعاننا الله على قبولها بالعمل، وعلى استدامتها بالتوفيق.

وقد روي أن علقمة بن علاثة قال: «يا رسول الله عظمي. فقال رسول الله ﷺ: استحي من الله تعالى استحياءك من ذوي الهيبة من قومك»، وهذا الحياء يكون من قوة الدين، وصحة اليقين. ولذلك قال النبي ﷺ: «قلة الحياء كفر». يعني من الله، لما فيه من مخالفة أوامره. وقال ﷺ: «الحياء نظام الإيمان، فإذا انحل نظام الشيء، تبدد

ما فيه وتفرّق» .

وأما حياة من الناس ، فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من تقوى الله اتقاء الناس » وروي أن حذيفة بن اليان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا ، فتنكب الطريق عن الناس ، وقال : لا خير فيمن لا يستحي من الناس . وقال بشار بن بُرد :

ولقد أصرف الفؤاد عن الشي ء حياءً وحبّه في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسي ذاكرًا في غد حديث الأعادي

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ، ولذلك قال ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » يعني والله أعلم : لقلّة مروءته ، وظهور شهوته . وروى الحسن عن أبي هريرة قال : قال ﷺ : « إن مروءة الرجل ممّشاه ، ومدّخله ، ومخرجه ، ومجلّسه ، وإلفه ، وجليسه » . وقال بعض الشعراء :

وربّ قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلّا الحياء
إذا رزق الفتى وجهًا وقاحًا تقلّب في الأمور كما يشاء
وقال آخر :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً ، فما شئت فاصنع
وأما حياة من نفسه ، فيكون بالعفة وصيانة الخلوات . وقال بعض الحكماء : ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الأدباء : من عمل في السرّ عملاً يستحي منه في العلانية ، فليس لنفسه عنده قدر . ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم ، فلم يجيبهم وقال : إني دخلت البارحة في الأربعين ، وأنا أستحي من سني . وقال بعض الشعراء :

فسرّي كإعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس ، وحسن السريرة ، فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة ، فقد كملت فيه أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشر ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً . وقال بعض الشعراء :

وإني ليشينني عن الجهل والختا وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
 حياء وإسلام وتقوى وإني كريم، ومثلي من يضّر وينفع
 وإن أخلّ بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله، بقدر ما كان يلحقه من
 الفضل بكماله. وقد قال الرّياشي: يقال إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل
 بهذا الشعر:

وحاجة دون أخرى قد سنّحت لها جعلتها للتي أخفيت عنوانا
 وإني لأرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

الفصل الرابع: في الحلم والغضب

روى محمد بن حارث الهلالي، أن جبريل نزل على النبي ﷺ، فقال: يا محمد إني
 أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
 الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وروى سفيان بن عيينة أن النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية قال: «يا جبريل، ما
 هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، ثم عاد جبريل وقال: يا محمد إن ربك يأمرك
 أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وروى هشام عن
 الحسن: أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأي ضَمْصَم؟ كان إذا خرج
 من منزله قال: «اللهم إني تصدقت بعرضي على عبادك». وروى عن النبي ﷺ أنه
 قال: «إن الله يحب الحلم الحيي، ويبغض الفاحش البذي» وقال عليه الصلاة والسلام:
 «من حلم ساد، ومن تفهم ازداد» وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم، اجتنى
 شجرة السلم. وقال بعض البلغاء: ما ذبّ عن الأعراض، كالصفح والإعراض. وقال
 بعض الشعراء:

أحبّ مكارم الأخلاق جُهْدي وأكره أن أعيب. وأن أعابا
 وأصفح عن سياب الناس حلما وشرّ الناس من يهوى السبابا
 ومن هاب الرجال تهيّوه ومن حقّر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد. وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أول عرض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصاره. وحدة الحلم: ضبط النفس عند هيجان الغضب. وهذا يكون عن باعث وسبب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة:

أحدها: الرحمة للجهال، وذلك من خير يوافق رقة. وقد قيل في منشور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمعته كلاماً: يا هذا، لا تُغرِقن في سبنا، ودع للصالح موضعاً، فإننا لا نكافي من عصى الله فينا، بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه. وشم رجل الشعبي فقال: إن كنت كما قلت فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك. واغتاضت عائشة رضي الله عنها على خادم لها، ثم رجعت إلى نفسها، فقالت: لله درّ التقوى، ما تركت لذي غيظ شفاء، وقسم معاوية رضي الله عنه قُطُفاً، فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطعة فلم تعجبه، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه فأخبره، فقال له معاوية: أوف بنذرک، وليرفُق الشيخ بالشيخ.

والثاني من أسبابه: القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر، وحسن الثقة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه». وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر.

والثالث من أسبابه: الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره. كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيداً، لحلمه. وقد قال الشاعر:

لا يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن - عزوا - لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مُسفرة لأصفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسبابه: الاستهانة بالمسيء، وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب، كما حكى عن مُصعب بن الزبير: أنه لما ولي العراق، جلس يوماً لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز؟ وهو الذي قتل أباه الزبير، ف قيل له: أيها الأمير، إنه

قد تباعد في الأرض، فقال: أَوْ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنِّي أَقِيدُهُ بِأَيِّ عَبْدِ اللَّهِ، فليظهر آمناً،
ليأخذ عطائه موقراً، فعَدَّ الناس ذلك من مستحسن الكبر. ومثل ذلك قول بعض
الزعماء في شعره:

أَوْ كَلِمَا طَنَّ الذِّبَابُ طَرَدَتْهُ إِنَّ الذِّبَابَ إِذَنْ عَلَيَّ كَرِيمٍ
وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال: والله ما منعه من جوابي إلا
هواني عليه، وفي مثله يقول الشاعر:

نَجَا بِكَ لَوْ مَكَ مِنْجَى الذِّبَابِ حَتَّى مَقَاذِيرُهُ أَنْ يَنَالَا
وأسمع رجل ابن هبيرة، فأعرض عنه، فقال له الرجل: إياك أعني، فقال له:
وعنك أعرض. وفي مثله يقول الشاعر:

فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عَرَضَ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال عمرو بن علي:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهَ فَلَا تَجِبْهُ فَخَبِرْ مِنْ إِجَابَتِهِ السَّكُوتُ
سَكَتٌ عَنِ السَّفِيهِ فَظُنْ أَنِّي عَيَّيْتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّيْتُ
والخامس من أسبابه: الاستحياء من جزاء الجواب. وهذا يكون من صيانة النفس،
وكمال المروءة. وقد قال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلي بصورته،
والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض الأدباء: ما أفحش حلیم، ولا
أوحش كريم. وقال لقيط بن زُرارة:

وَقُلْ بَنِي سَعْدٍ فَمَا لِي وَمَا لَكُمْ تُرْقُونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُ وَأَعْتَقُ
أَغْرَكُمُو أَنِّي بِأَحْسَنِ شِمَةٍ بَصِيرٍ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَابَيْتَنِي فَقَهَّرْتَنِي هَنِيئًا مَرِيئًا أَنْتَ بِالْفَحْشِ أَحْذَقُ

والسادس من أسبابه: التفضل على السَّبَّابِ. فهذا يكون من الكرم، وحب التألف،
كما قيل للإسكندر: إِنْ فَلَانًا وَفَلَانًا يَنْقُصَانِكَ وَيُثْلِبَانِكَ. فلو عاقبتها، فقال: هما بعد
العقوبة عذر في تنقصي وثلي، فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً. وقد حكي عن الأحنف
ابن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط، إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن

كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدرتي عنه، وإن كان نظيري
نفضلت عليه، فأخذه الخليل، فنظمه شعراً فقال:

سألزُم نفسي الصّفح عن كلّ مذنبٍ وإن كُثرت منه إليّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مُقاومٌ
فأما الذي فوقني فأعرفُ قدره وأتبسّع فيسه الحقّ والحق لازمٌ
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت، إن الفضل بالفخر حاتمٌ

والسابع من أسبابه: استكفاف الساب، وقطع السباب، وهذا يكون من الحزم، كما
حكى أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرًا، فقال له
ضرار: والله لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

وحكي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة التُّهري: من أحق
الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس، قال: صدقت، فمن أعقل الناس؟ قال: من لم
يتجاوز الصمت في عقوبة الجاهل. وقال الشعبي: ما أدركت أمي فأبرها، ولكن لا
أسب أحداً فيسبها. وقال بعض الحكماء: في إعراضك صون أعراضك. وقال بعض
الشعراء:

وفي الحلم رَدْعٌ للسفيه عن الأذى وفي الخُرْقِ إغراء فلا تكُ أخرقاً
فتندم إذ لا تنفعك ندامة كما ندم المغبون لما تفرّقوا
وقال آخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمني أصم وأذني غير صماء
والثامن من أسبابه: الخوف من العقوبة على الجواب. وهذا يكون من ضعف
النفس، وربما أوجه الرأي، واقتضاه الحزم، وقد قيل في منشور الحكم: الحلم حجاب
الآفات. وقال الشاعر:

أرفق إذا خفت من ذي هفوة خرقاً ليس الحكيم كمن في أمره خرق
والتاسع من أسبابه: الرعاية ليد سالفة، وحرمة لازمة، وهذا يكون من الوفاء،
وحسن العهد. وقد قيل في منشور الحكم: أكرم الشيم أرحامها للذم. وقال الشاعر:

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذى الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وترى اللئيم بجانب الإنصاف
والعاشر من أسبابه: المكر، وتوقع الفرص الخفية، وهذا يكون من الدهاء. وقد
قيل في منشور الحكم: من ظهر غضبه قلّ كيده. وقال بعض الأدباء: غضب الجاهل في
قوله، وغضب العاقل في فعله. وقال بعض الحكماء: إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته
جواباً، وأوجعته عقاباً. وقال إياس بن قتادة:

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم
وقال بعض الشعراء:

وَلَلْكَفِّ عَنْ شَمِّ اللَّئِيمِ تَكْرِمًا أَضَرَ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يَشْتَمُ
فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم، وبعض الأسباب أفضل من بعض، وليس إذا
كان بعض أسبابه مفضولاً به، ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة، وإنما
الأهمل بالإنسان أن يدعو للحلم أفضل أسبابه، وإن كان الحلم كله فضلاً. وإن عرا
عن أحد هذه الأسباب كان ذلاً، ولم يكن حليماً، لأننا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط
النفس عند هيجان الغضب، فإذا فقد الغضب لسمع ما يفضب، كان ذلك من ذل
النفس، وقلة الحمية. وقد قالت الحكماء: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن، لا
يعرف الجواد إلا في العُسرة، والشجاع إلا في الحرب، والحليم إلا في الغضب. وقال
الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وقال آخر:

مَنْ يَدْعِي الْحِلْمَ أَغْضَبَهُ لَتَعْرِفَهُ - لَا يُعْرِفُ الْحِلْمَ إِلَّا سَاعَةَ الْغَضَبِ
وأنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله ﷺ:
ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدرًا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلم إذا ما أورد الأمر أصدرًا
فلم يُنكر ﷺ قوله عليه؛ ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة، حتى استوى

حالاته قبل الإغصاب وبعده ، فقد عَدِمَ من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر ، لأنها خصال مركبة من الغضب ، فإذا عدِمها الإنسان هان بها ، ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ، ولا لوفور حلمه في القلوب موقع . وقد قال المنصور : إذا كان الحلم مَفْسُدة كان العفو مَعْجزة . وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار . وقال مصعب بن الزبير : ما قلّ سفهاء قوم إلا ذلّوا . وقال أبو تمام الطائي :

والحرب تركب رأسها في مشهد عدلُ السفيه به بألف حلم

وليس هذا القول إغراء بتحكم الغضب ، والانقياد إليه عند حدوث ما يغضب ، فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل ، أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ، ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه ، كف ثورته بحزمه ، وأطفأ ثأثرته بحلمه ، ووكل من استحق المقابلة إلى غيره ، ولا يعدم مسيء مكافئاً ، كما لن يعدم محسن مجازياً . والعرب تقول دخل بيتاً ما خرج منه : أي إن خرج منه خير دخله خير ، وإن خرج منه شر دخله شر .

وأنشد ابن زُرَيد عن أبي حاتم :

إذا أمِنَ الجَهالُ جَهْلَكَ مرةً	فعرضك للجَهل غُثمّ من الغُثمّ
فُعُثمّ عليه الحلم والجَهل والقُة	بمنزلة بين العداوة والسّلم
إذا أنت جارتِ السفيه كما جرى	فأنت سفيه مثله غيرُ ذي حلم
ولا تَعْصِبَنَّ عِرْضَ السفيه وداره	بحلم فإن أعيا عليك فبالصّرم
فيرجوك تاراتٍ ويخشاك تارةً	ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فإن لم تجد بداً من الجَهل فاستعنْ	عليه بِجُهل فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب . وهذا التدبير إنما يستعمل فيها لا يجد الإنسان بداً من مقارنته ، ولا سبيل إلى اطراحه ومتاركته ؛ إما لخوف شره ، أو للزوم أمره ؛ فأما من أمكن اطراحه ، ولم يضرّ إبعاده ، فالهوان به أولى ، والاعراض عنه أصوب ؛ فإذا كان على ما وصفت ، استفاد بتحريك الغضب فضائله ،

وأمن بكف نفسه عن الانقياد له ردائله، وصار الحلم مدبراً للأمور المغضبة، بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب، ولا يلحقه زياده بفقد الحلم، ولو عَزَبَ عنه الحلم حتى انقاد لغضبه، ضل عنه وجه الصواب فيه، وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه، حتى يصير بليد الرأي، مغمور الروية، مقطوع الحجة، مسلوب العزاء، قليل الحيلة، مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده، حتى يصير أضرّ عليه مما غضب له. وقد قال بعض الحكماء: من كثر شَطَطه كثر غلطه.

وروي أن سلمان قال لعلّي رضي الله عنه: ما الذي يباعدني عن غضب الله عز وجل؟ قال: ألا تغضب. وقال بعض السلف: أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل إذا غضب، وقال بعض البلغاء: من ردّ غضبه، هدّ من أغضبه. وقال بعض الأدباء: ما هيّج جاشك كغيط أجاشك وقال رجل لبعض الحكماء: عظمي، قال: لا تغضب.

فينبغي لذي اللب السوي، والحزم القوي، أن يتلقى قوّة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل عوادي شيرته مجزّمه فيردها، ليحظى بالنجلاء الحيّرة، ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الأدباء: في إغضائك راحة أعضائك: وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها، وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها، والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه، والحزن يتحرك من خارج الجسد إلى داخله، فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب، لبروز الغضب، وكمون الحزن، وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه، والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه، ولذلك أفضى الحزن إلى الموت، ولم يفض إليه الغضب، فهذا فرق ما بين الحزن والغضب.

واعلم أن لتسكين الغضب إذا هجم أسباباً، يستعان بها على الحلم، منها أن يذكر الله عز وجل، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه ويأخذ بنديه، فعند ذلك يزول الغضب. قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. قال عكرمة: يعني إذا غضبت. وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]: ومعنى قوله يَنْزَغَنَّكَ: أي يغضببنك، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم: يعني أنه سميع بجهل من جهل، عليم

بما يذهب عنك الغضب .

وذكر أن في التوراة مكتوباً : يا بن آدم اذكرني حين تغضب ، أذكرك حين أغضب ، فلا أحمقك فيمن أحمق . وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً ، ودفعه إلى وزير له ، وقال : إذا غضبت فتاولنيه ، وكان فيه : مالك والغضب ، وإنما أنت بشر ، ارحم من في الأرض يرحك من في السماء . وقال بعض الحكماء : من ذكر قدرة الله ، لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين ، أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك ، وبالذي هو أقدر على عقابك منك على عقابي لَمَّا عفوت عني ، فعفا عنه لَمَّا ذكره قدرة الله تعالى .

وروي : « أَنَّ رجلاً شكَا إلى رسول الله ﷺ القسوة ، فقال : اطلع في القبور ، واعتبر بالنشور » . وكان بعض ملوك الطوائف إذا غضب ، ألقي عنده مفاتيح تُرب الملوك ، فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رضي الله عنه : من أكثر من ذكر الموت ، رضي من الدنيا باليسير ، ومنها ، أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها إلى حالة غيرها ، فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال ، والتنقل من حال إلى حال ، وكان هذا مذهب المأمون إذا غضب أو شتم ، وكانت الفرس تقول : إذا غضب القائم فليجلس ، وإذا غضب الجالس فليقم .

ومنها : أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ، ومَدَمَة الانتقام .

وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دماً ، وأخرى منك تحقن دماً ، وإن نفاذ أمرك مع كلامك ، فاحترس في غضبك من قولك أن تخطيء ، ومن لولئك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ، فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلمًا . وقال بعض الحكماء : الغضب على من لا تملك عجز ، وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الأدباء : إياك وعزة الغضب ، فإنها تُفضي إلى ذل العذر . وقال بعض الشعراء :

وإذا ما أعترتك في الغضب العزّة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها : أن يذكر ثواب العفو ، وحسن الصفح ، فيقهر نفسه على الغضب ، رغبة في الجزاء والثواب ، وحذراً من استحقاق الذم والعقاب . روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« ينادي مناد يوم القيامة : مَنْ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَقُمْ ، فيقوم العافون عن الناس ، ثم تلا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقال رجاء بن خَيَوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث : إن الله قد أعطاك ما تحب من الضفر ، فأعط الله ما يحب من العفو . وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « الخير ثلاث خصال ، فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان ، من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرج غضبه من حق ، وإذا قدر عفا » .

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاماً ، فقال عمر : أردت أن يستغفرني الشيطان ، لعزة السلطان ، فأناك منك اليوم ما تناله مني غداً ، انصرف رحك الله .

ومنها : أن يذكر انعطاف القلوب عليه ، وميل النفوس إليه ، فلا يرى إضاعة ذلك بتغفير الناس عنه ، وبعدهم منه ، فيكف عن متابعة الغضب ، فيرغب في التآلف وجيل الثناء .

وروى ابن أبي ليلى ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ازداد أحد بعفو إلا عزا ، فاعفو يُعزَّم الله » وقال بعض البلغاء : ليس من عادة الكرام ، سرعة الانتقام ، ولا من شروط الكرم ، إزالة النعم .

وقال المأمون لإبراهيم المهدبي : إني شاورت في أمرك ، فأشاروا عليّ بقتلك ، إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت القتل للآزم حرمتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة ، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عُوذتَه من العفو ، فإن عاقبت فلك نظير ، وإن عفوت فلا نظير لك ، وأنشأ يقول :

البرّ بي منك وطأ العذرَ عندك لي	فما فعلتُ لم تعدلُ ولم تَلِم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي	مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروف مننتَ به	إني لفي اللؤم أحطى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به	فلا عدمتك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس: في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آ عمران: ٦١]. وقال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ [النحل: ١٠٥]. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال للحسن بن علي رضي الله عنهما: «د ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة». ورؤي عنه ﷺ أن قال: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه، وأقصر من عنانه، وألزم طريق الحق مقوله، و يعود الخطل. مفصله» ورؤي صفوان بن سليم قال: «قليل للنبي ﷺ: أ يكون المؤمن جباناً؟ قال نعم، قيل: أ يكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أ يكون كذاباً؟ قال: لا» وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ [البقرة ٤٢]: أي لا تخلطوا الصدق بالكذب. وقيل في منثور الحكم: الكذاب لص، لأ اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك. وقال بعض الحكماء: الحرّس خير من الكذب، وصدق اللسان أول السعادة. وقال بعض البلغاء: الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الأدباء: لا سيف كالحق، ولا عون كالصدق. وقا بعض الشعراء:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أم ولا راحة، ولذلك قيل: من قلّ صدقه قلّ صديقه، والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضي، كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبل؛ فالصدق ه الإخبار عن الشيء على ما هو عليه والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما ه عليه، ولكل واحد منهما دواع، فدواعي الصدق لازمة، ودواعي الكذب عارضة؛ لأ الصدق يدعو إليه عقل موجب، وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل، ويصدع الشرع؛ ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة؛ حتى تصير متواترة، ولم يجز أ تستفيض الأخبار الكاذبة؛ لأن اتفاق الناس في الصدق والكذب إنما هو لاتفا

الدواعي، فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها، حتى إذا نقلوا خبراً، وكانوا عدداً ينتفي عن مثلهم المواطأة، وقع في النفس صدقه، لأن الدواعي إليه نافعة، واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن، ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذا، لأن الدواعي إليه غير نافعة، وربما كانت صارة، وليس في جاري العادة، أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة، ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق، لجواز اتفاق دواعيهم، ولم يجوز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم، وإذا كان للصدق والكذب دواع، فلا بد من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيها.

أما دواعي الصدق: فمنها العقل، لأنه موجب لقبح الكذب، لا سيما إذا لم يجلب نفعاً، ولم يدفع ضرراً. والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسناً، ويمنع من إتيان ما كان مستقبحاً، وليس ما استحسّن من مبالغات الشعراء حتى صار كذباً صراحاً، استحساناً للكذب في العقل، كالذي أنشدني الأزدي لبعض الشعراء:

توهمه فكري فأصبح خدّه وفيه مكان الوهم من فكري أثرُ
وصافحه كفي فآلم كفه فمن لَمَسَ كفي في أنامله عَقْرُ
ومرّ بقلبي خائطراً نجرحته ولم أر شيئاً قط يجرحه الفكرُ
وكقول العباس بن الأحنف، وإن كان بدون هذه المبالغة:

تقول وقد كتبت دقيق خطي إليها لِمَ تَجَنَّبْتَ الجليلاً^(١)
فقلت لها نَحَلْتُ فصار خطي مساعداً لكَاتبه نحيلاً

لأنه خرج مخرج المبالغة في التشبيه: والاقتدار على صنعة الشعر، وإن شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب، فلذلك استحسّن في الصنعة، ولم يستقبح في العقل، وإن كان الكذب مستقبحاً فيه.

ومنها: الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب، لأن الشرع لا يجوز أن يرد

(١) الدقيق والجليل في البيت: اصطلاحان من اصطلاحات كتاب الدواوين فالقلم الدقيق. الذي يكتب به الخط الدقيق. والقلم الجليل: ما يكتب به الخط الواسع الجهير.

يارخاص ما حظره العقل، بل جاء الشرع زائداً على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب، لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جرّ نفعاً، أو دفع ضرراً؛ والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعاً، ولا يدفع ضرراً.

ومنها : المروءة، فإنها مانعة من الكذب، باعثة على الصدق، لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرهاً، فأولى من فعل ما كان مستقبحاً.

ومنها : حب الاشتهار بالصدق، حتى لا يُردّ عليه قول، ولا يلحقه ندم، وقد قال بعض البلغاء : ليكن مرجعك إلى الحق، ومنزَعُك إلى الصدق، فالحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين. وقال بعض الشعراء :

عود لسانك قول الصدق تحظّ به إن اللسان لما عودت معتاد
موكّل بتقاضي ما سننت له في الخير والشرّ فانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب: فم منها اجتلاب النفع، واستدفاع الضرر، فيرى أن الكذب أسلم وأغنى، فيرخص لنفسه فيه اغتراراً بالخُدع، واستشفافاً للطَّمَع، وربما كان الكذب أبعد ما يؤمل، وأقرب لما يخاف، لأن القبيح لا يكن حسناً، والشر لا يصير خيراً، وليس يجنى من الشوك العنب، ولا من الكرم الحنظل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « تحرّوا الصدق، وإن رأيتم أن فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم أن فيه النجاة، فإن فيه الهلكة ». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعني الصدق - وقلما يضع - أحب إليّ من أن يرفعني الكذب، وقلما يفعل. وقال بعض الحكماء : الصدق منجيّك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنت. وقال الجاحظ : الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان، فيهن تمام كل دين، وصلاح كل دنيا، وأضدادهما سبب كل فرقة، وأصل كل فساد.

ومنها : أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذباً، وكلامه مستظرفاً، فلا يجد صدقاً يعذب، ولا حديثاً يستظرف، فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة، ولا طرائفه معجزة.

وهذا النوع أسوأ حالاً مما قبل، لأنه يصدر عن مهانة النفس، ودناءة الهمة. وقد

قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده. وقال ابن المقفع: لا تنهاون بإرسال الكذبة من الهزل، فإنها تسرع إلى إبطال الحق.

ومنها: أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه، فيسمه بقبايح يخترعها عليه، ويصفه بفضائح ينسبها إليه، ويرى أن معرفة الكذب غنم، وأن إرسالها في العدو سهم وسم، وهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين، لأنه قد جمع بين الكذب المغير والشر المضر، ولذلك ورد الشرع برّد شهادة العدو على عدوه.

ومنها: أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها، فصار الكذب له عادة، ونفسه إليه منقاداً، حتى لو رام مجانية الكذب عسر عليه، لأن العادة طبع ثان. وقد قالت الحكماء: من استحلّ رضاع الكذب عسر فطامه. وقيل في منثور الحكم: لا يلزم الكذاب شيء إلا غلب عليه.

واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه.

فمنها: أنك إذا لقنته الحديث تلقنه، ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده.

ومنها: أنك إذا شككته فيه تشكك، حتى يكاد يرجع فيه، ولولاك ما تخالجه الشك فيه.

ومنها: أنك إذا رددت عليه قوله حصر وارتبك، ولم يكن عنده نصرّة المحتجين، ولا برهان الصادقين. ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الكذب كالسراب.

ومنها: ما يظهر عليه من ريبة الكذابين، ويتم عليه من ذلة المتوهمين، لأن هذه أمور لا يمكن الإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها. ولذلك قالت الحكماء: البينان أتم من اللسان. وقال بعض البلغاء: الوجوه مرايا، تريك أسرار البرايا.

وقال بعض الشعراء

تريك أعينهم ما في صدورهم
إن العيون يؤدّي سرّها النظر
وإذا اتسم بالكذب نُسيبت إليه شوارد الكذب المجهولة، وأضيفت إلى أكاذيبه

زيادات مفتعلة، حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه، فيجمع بين معرفة الكذب منه، ومضرة الكذب عليه. وقد قال الشاعر:

حَسْبُ الكَذُوبِ مِنَ البَلِيَّةِ بَعْضُ مَا يُحْكِي عَلَيْهِ
فَإِذَا سَمِعْتَ بِكَذِبَةٍ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبْتَ إِلَيْهِ

ثم إنه إن تحرى الصدق اتهم، وإن جانب الكذب كذب، حتى لا يُعتقد له حديث مصدق، ولا كذب مستنكر. وقد قال الشاعر:

إِذَا عُرِفَ الكَذَابُ بِالكَذِبِ لَمْ يَكَدْ يُصَدِّقُ فِي شَيْءٍ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا
وَمِنْ آفَةِ الكَذَابِ نِسْيَانُ كِذْبِهِ وَتَرَاهُ إِذَا حَفِظَ إِذَا كَانَ حَازِقًا

وقد وردت السنة بإرخاص الكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، على وجه التورية والتأويل، دون التصريح به، فإن السنة لا ترد بإباحة الكذب، لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سئل رسول الله ﷺ، وقد تطرف برداء، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجل: ممن أنت؟ قال: من ماء، فوري عن الإخبار بنسبه، بأمر محتمل، فظن السائل أنه عني القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد رسول الله ﷺ أنه من الماء الذي يخلق منه الإنسان، فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه، وصدق في خبره. وكالذي حكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه كان يسير خلف رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فقالوا يا أبا بكر من هذا؟ فقال: هاد يهديني السبيل، فظنوا أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الخير، فصدق في قوله، ووري عن مراده.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في المعارض لندوحة عن الكذب» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن في المعارض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب. وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿لَا تَوَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣] إنه لم ينس، ولكنه معارض الكلام. وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يصرح فيه بالكذب.

واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة، ويزيد عليه في الأذى والمضرة، وهي الغيبة، والنميمة، والسعاية.

فأما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر، يحدثان عن حسد وغدر. قال الله تعالى: ﴿ولا يغضب بعضكم بعضاً، أوجب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتاً﴾ [الحجرات: ١٢]؟ يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتاً، لا تحل غيبته حياً. وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وجعلتا تغتابان الناس، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فقال: «صامتا عما أحل لهما، وأفطرتا على ما حرم عليهما».

وروت أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب، كان حقا على الله عز وجل أن يُحرّم لحمه على النار». وقال عدي بن حاتم: الغيبة رَغِي اللثام. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: الغيبة فاكهة النساء. وقال رجل لابن سيرين رحمه الله: إني اغتبتك، فاجعلني في حلّ، فقال: ما أحب أن أحل لك ما حرّم الله عليك. وقال ابن السمّك: لا تُعنِ الناس على عيبك بسوء غيبك. وقال الشاعر:

لا تلمس من مساوي الناس ما ستروا فيهلك الله سترنا عن مساويك
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيك
وربما عذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقا، ويُعلن فسقا، ويستشهد بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة: الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلن بفسقه» فيبعد من الصواب، ويجانب الأدب: لأنه وإن كان بالغيبة صادقا، فقد هتك سترنا كان بصونه أولى، وجاهر من أسرّ وأخفى، وربما دعا المغتاب ذلك إلى إظهار ما كان يستره، والمجاهرة بما كان يضمّره، فلم يُفده ذلك إلا فساد أخلاقه، من غير أن يكون فيه صلاح لغيره. وقد قيل لأنو شيوان: ما الذي لا خير فيه؟ قال: ما ضرّني ولم ينفع غيري، أو ضرّ غيري ولم ينفعني، فلا أعلم فيه خيرا.

وقيل في منشور الحكم: لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب. وقد روى العلاء ابن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «هي أن تقول لأخيك ما فيه، فإن كنت صادقا فقد اغتبتته، وإن كنت كاذبا فقد

بَهْتَهُ». وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]: إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه.

ودخلت امرأة على النبي ﷺ مستفتية، فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ما أقصرها! فقال: مهلاً إياك والغيبة. فقالت: يا رسول الله إنما قلت ما فيها. قال: أجل، ولولا ذلك لكان بُهتاناً. وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم؟ فقال: اللئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب. فأما الخبر فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء، ولا يكون الإنكار غيبة لأنه نهي عن منكر، وفرق بين إنكار المجاهر وغيب المسائر.

وأما النميمة فهي: أن تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشرا، وتضم إلى لؤمها دناءة وغدرا، ثم تؤول إلى تقاطع المتواصلين، وتباعد المتقاربين، وتباغض المتحابين. وروى شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد، عن النبي ﷺ، أنه قال: «ألا أخبركم بشراكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من شراركم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب». وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغار، ملعون كل قَتَات، ملعون كل مَتَان».

الشغار: المحرّش بين الناس يُلقِي بينهم العداوة. والقَتَات: النمام. وقيل النمام الذي يكون مع القوم يتحدثون، فيتم حديثهم. والقَتَات أيضاً: هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون، فيتم حديثهم. والمنان: هو الذي يصنع الخير ويؤمن به. وقيل في منثور الحكم: النميمة سيف قاتل. وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شر من واش.

فأما السّعاية فهي شر الثلاثة، لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة، ولؤم النميمة، التغرير بالنفوس والأموال، والقدح في المنازل والأحوال. وروى ابن قتيبة أن النبي ﷺ قال: «الجنة لا يدخلها ديّوث ولا قَلّاع».

الديوث: هو الذي يجمع بين الرجال والنساء، سمي بذلك لأنه يديث بينهم. والقَلّاع: هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء، سمي بذلك لأنه يأتي الرجل

المتمكن عند الأمير ، فلا يزال يقع فيه حتى يَنقَلعه .

وقال بعض الحكماء : الساعي بين منزلتين قبيحتين : إما أن يكون صدق فقد - ن الأمانة ، وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء : الصدق يزين كل أحد إلا السُّعة ، فإن الساعي أذمُّ : وآثم ما يكون إذا صدق . وقال بعض البلغاء : النميمة دناءة ، والسعاية رداءة ، وهما رأس الغدر ، وأساس الشر ، فتجنب سبلهما ، واجنب أهلها . ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه : نحن نرى قبول السعاية شراً منها ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، فاتقوا الساعي ، فإنه إن كان في سعائته صادقاً ، كان في صدقه آثماً ، إذ لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة . وقال الإسكندر لرجل سعى إليه برجل : أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك ؟ قال : لا . قال : فكفَّ عن الشرّ يكفَّ عنك الشر . ورُوِيَ أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أن في بلدك ساعياً ، ولست أمطركَ وهو في أرضك . فقال : يا رب دلّني عليه حتى أخرجه . فقال : يا موسى أكره النميمة وأنتم .

الفصل السادس : في الحسد والمنافسة

اعلم أن الحسد خلق ذميم ، مع إضراره بالبدن ، وإفساده للدين ، حتى لقد أمر الله بالاستعانة من شره . فقال تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ [الفلق : ٥] . وناهيك بحال ذلك شراً . ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : البغضاء والحسد ، هي الحالقة ، حالقة الدين ، لا حالقة الشعر ، والذي نفس محمد بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » . فأخبر ﷺ بحال الحسد ، وأن التجاؤب ينفيه ، وأن السلام يبعث على التحابب ، فصار السلام إذن نافياً للحسد ، وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول . وقال الله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم ﴾ [فصلت : ٣٤] . قال مجاهد : معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء .

وقال الشاعر :

قد يلبث الناس حيناً ليس بينهم وُدٌّ فيزرعه التسليم واللطفُ

وقال بعض السلف. الحسد أول ذنب عُصِي الله به في السماء ، يعني حسد إبليس
لآدم عليه السلام ، وأول ذنب عُصِي الله به في الأرض ، يعني حسد ابن آدم لأخيه
حتى قتله . وقال بعض الحكماء : من رضي بقضاء الله تعالى لم يُسْخِطْه أحد ، ومن قنع
بعطائه لم يدخله حسد وقال بعض البلغاء : الناس حاسد ومحسود ، ولكل نعمة حسود .
وقال بعض الأدباء : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود ، نَفْس دائم ، وهم لازم ،
وقلب هائم ؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

إِن الحسودَ الظلومَ فِي كُربٍ يخالهِ من يراه مظلوما
ذَا نَفْس دائِم على نَفْس يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنيء ، يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ،
ويختص بالمخالط والمصاحب ، لكانت النزاهة عنه كرماً ، والسلامة منه مَغْنًا ، فكيف
وهو بالنفس مُضِرّ ، وعلى الهمّ مُصِيرّ ، حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف ، من غير
نكاية في عدوّ ، ولا إضرار بمحسود .

وقد قال معاوية رضي الله عنه : ليس في خصال الشر أعدل من الحسد ، يقتل
الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود . وقال بعض الحكماء : يكفيك من الحاسد أن يغتم في
وقت سرورك . وقيل في منثور الحكم : عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الأصمعيّ : قلت
لأعرابيّ : ما أطول عُمرِكَ ؟ قال : تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشرّيح القاضي :
إني لأحسّدك على ما أرى من صبرك على الخصوم ، ووقوفك على غامض الحكم .
فقال : ما نفعك الله بذلك ولا ضَرَّني . وقال عبدالله بن المعتز رحمه الله تعالى :

اصبرْ على كيد الحسو دِ فَإِن صبرك قاتلُهُ
فالنار تأكل بعضَهَا إِن لم تجد ما تأكلُهُ

وحقيقة الحسد : شدة الأذى على الخيرات تكون للناس الأفاضل ، وهو غير
المنافسة ، وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد ، وليس الأمر على ما
ظنوا ، لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر عليهم ، والحسد
مصروف إلى الضرر ، لأن غايته أن يعدّم الأفاضل فضلهم ، من غير أن يصير الفضل
له ، فهذا الفرق بين المنافسة والحسد ، فالمنافسة إذن فضيلة لأنها داعية إلى اكتساب

الفضائل، والافتداء بأخيار الأفاضل. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « المؤمن يَغِيْطُ، والمنافق يَحْسُدُ ». وقال الشاعر:

نَافِسٌ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَهْلُ الْعِلَا فَإِنَّمَا الدُّنْيَا أَحَادِيْثُ
كُلُّ أَمْرِيَّ فِي شَأْنِهِ كَادِحٌ فَوَارِثٌ مِنْهُمْ وَمُورِثُ
واعلم أن دواعي الحسد ثلاثة: أحدها بُغْضُ المحسود، فيأسى عليه بفضيلة تظهر، أو منقبة تشكر، فيثير حسداً قد خامر بغضاً، وهذا النوع لا يكون عاماً وإن كان أضرها، لأنه ليس يبغض كل الناس.

والثاني: أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه، فيكره تقدمه فيه، واختصاصه به، فيثير ذلك حسداً لولاه لكفَّ عنه، وهذا أوسطها، لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا، وإنما يختص بحسد من علا، وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة، ولكنها مع عجز، فلذلك صار حسداً.

والثالث: أن يكون في الحاسد شُحٌّ بالفضائل، وبخل بالنعم، وليست إليه، فيَمْنَعُ منها، ولا بيده، فيَدْفَعُ عنها، لأنها مواهب قد منحها الله من شاء، فيسخط على الله عز وجل في قضاؤه، ويحسد على ما مَنَحَ من عطائه، وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر، ومِنَحَه عليه أظهر. وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها، إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية، فإن اقترن بشرّ وقدرة، كان بُوراً وانتقاماً، وإن صادف غجزاً ومهانة كان جهداً وسقاماً. وقد قال عبد الحميد: الحسود من الهمّ كساقِي السَّمِّ، فإن سرى سمه، زال عنه همه.

واعلم أنه بحسب فضل الإنسان، وظهور النعمة عليه، يكون حسد الناس له، فإن كثّر فضله كثّر حساده، وإن قلّ قلّوا، لأن ظهور الفضل يثير الحسد، وحدوث النعمة يضاعف الكَمَدَ، ولذلك قال النبي: « استعينوا على قضاء الحوائج بسترها، فإن كل ذي نعمة محسود ». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما كانت نعمة الله على أحد إلا وجه لها حاسداً. فلو كان الرجل أقوم من القِدْحِ لما عَدِمَ غامزاً. وقد قال الشاعر:

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غِيْظًا بِمَا يَحْسُدُ

وربما كان الحسد منبهاً على فضل المحسود ونقص الحسود، كما قال أبو تمام الطائي:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة طُويت أتاح لها لسانَ حَسودٍ
لولا اشتعال النار فيما جاورتُ ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العودِ
لولا التخوفُ للعواقب لم يزلُ للحاسد النعمَى على المحسودِ
فأما ما يستعمله من كان غالباً عليه الحسد، وكان طبعه إليه مائلاً لينتفي عنه
ويُكفاه، ويسلم من ضرره وعدّواه فأمور هي له حَسَم، إن صادفها عَزَم.

فمنها: اتباع الدين في اجتنابه، والرجوع الى الله عز وجل في آدابه، فيقهر نفسه
على مذموم خلقها، وينقلها عن لثيم طبعها وإن كان نقل الطباع عسيراً، ولكن
 بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب، ويُحبّب منها ما أتعّب، وإن تقدم قول
القاتل: مَنْ رَبَّه خَلَقَهُ كيف يُخَلِّي خُلُقَهُ! غير أنه إذا عانى تهذيب نفسه، تظاهر
بالتخلق دون الخلق، ثم بالعادة يصير كالخلق.

قال أبو تمام الطائي:

فلم أَجِدِ الأخلاقَ إِلَّا تَخَلَّقاً ولم أَجدِ الإفضالَ إِلَّا تَفَضُّلاً
ومنها: العقل الذي يستبج به من نتائج الحسد ما لا يرضيه. ويستنكف من هُجْنه
مساويه. فيذلّل نفسه أنفة. ويطهرها حمية. فتدعن لرشدها. وتجيّب إلى صلاحها.
وهذا إنما يصح لدى النفس الأبية. والهمة العلية وإن كان ذو الهمة يحلّ عن دناءة
الحسد.

وقد قال الشاعر:

أَيّ لَه نفسان: نفس زكية ونفس إذا ما خافت الظلم تَشْمُسُ
ومنها: أن يستدفع ضرره. ويتوقّى أثره. ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ. ومن الحسد
أبعد؛ فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكمدّه، ليكون أطيّب نفساً، وأهنأ عيشاً. وقد
قيل: العجب لغفلة الحساد، عن سلامة الأجساد! وقد قال الشاعر:

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقعٌ

ومنها: ما يرى من نفور الناس عنه، وبعدهم منه، فيخافهم إما على نفسه من
عداوة، أو على عرضه من ملامة، فيتألفهم بمعالجة نفسه، ويراهم إن صلحوا أجدى
نفعاً، وأخلص وداً. وقال ابن العميد رحمه الله تعالى:

داوى جَوَىَّ بجَوَىٍّ وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاء
وقال المؤمل بن أميل:

لا تحسبوني غنياً عن مودتكم إني إليكم وإن أيسرتُ مفتقرُ
ومنها: أن يساعد القضاء، ويستسلم للمقدور، ولا يرى أن يغالب قضاء الله،
ف يرجع مغلوباً، ولا أن يعارضه في أمره، فيردُّ محروماً مسلوباً. وقد قال أردشير بن
بابتك إذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه. وقال محمود الوراق:

قَدَّرَ اللهُ كَائِنَ حِينَ يُقْضَى رَدَّةُ
قَدْ مَضَى فِيكَ عِلْمُهُ وانتهى ما يريدهُ
وأخو الحزم حَزْمُهُ ليس مما يزيدهُ
فأرد ما يكون إن لم يكن مّا تريده

فإن أظفرت السعادة بأحد هذه الأسباب، وهَدَّتْهُ المِراشِد إلى استعمال الصواب، سلم
من سَقَامِهِ، وخلص من غَرَامِهِ، واستبدل بالنقص فضلاً، واعتاض من الذمّ حِداً،
وَلَمَّنَ اسْتَنْزَلَ نفسه عن مَذْمُومَةٍ، وصرفها عن لائِئِمَةٍ، هو أظهر حِزْماً، وأقوى عِزْماً،
من كَفَتِ النفس جهادها، وأعطته قيادها؛ ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله
عنه: خياركم كلُّ مُفْتَنٍّ. نَوَّاب.

وإن صدَّتْهُ الشهوة عن مَرَاشِدِهِ، وَأَضَلَّهُ الحِرْمَان عن مقاصده، فانقاد للطبع اللئيم،
وغلب عليه الخلق الذميم، حتى ظهر حسده، واشتد كمدّه، فقد باء بأربع مَذَامَ:

إحداهن: حشرات الحسد، وسقام الجسد، ثم لا يجد لحسرتة انتهاء، ولا يؤمل
لسقامه شفاء. وقال ابن المعتز: الحسد داء الجسد.

والثانية: انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة، لانحراف الناس عنه، ونفورهم منه.
وقد قيل في منشور الحكم: الحسود لا يسود.

والثالثة : مَقَّتْ الناس له ، حتى لا يجد فيهم حبا ، وعداوتهم له ، حتى لا يرى فيهم وليا ، فيصير بالعداوة مأثورا ، وبالمقت مزجورا ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه » .

والرابعة : إسقاط الله تعالى في معارضته ، واجتناء الأوزار في مخالفته ، إذ ليس يرى قضاء الله عدلا ، ولا لنعمه من الناس أهلا ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عبدالله بن المعتز : الحاسد مغتاط على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه ، طالب ما لا يجده ؛ وإذا بلي الإنسان بمن هذه حاله من حساد النعم . وأعداء الفضل . استعاذ بالله من شره . وتوقى مصارع كيده ، وتحرز من غوائل حسده ، وأبعد عن ملابسته وإدانته ، لعضل دائه ، وإعواز دوائه . فقد قيل : حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها . وقال بعض الحكماء : من ضرَّ بطبعه فلا تأنس بقربه ، فإن قلب الأعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد : أسد تقاربه خير من حمود تراقبه . وقال محمود الوراق :

أعطيت كل الناس من نفسي الرضا إلا الحسود فإن به أعياني
ما إن لي ذنبا إليه علمته إلا تظاهروا نعمه الرحمن
وأبى فما يرضيه إلا ذلتي وذهاب أموالي وقطع لساني

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا يسلم أحد منهم : الطيرة ، وسوء الظن ، والحسد ؛ فإذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ » .

فصل : وأما آداب المواضعة والاصطلاح ف ضربان : أحدهما : ما تكون المواضعة في فروعه ، والعقل موجب لأصوله .

والثاني : ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله ، وذلك متضح في الفضول التي نذكرها إذا سیرت ، وهي ثمانية :

الفصل الأول : في الكلام والصمت

اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ، ويخبر بمكنونات السرائر ، لا يمكن استرجاع بواده ، ولا يُقدَّر على ردِّ شوارده ؛ فحق على العاقل أن يحترز من

زَلَّه ، بالإمساك عنه ، أو بالإقلال منه . رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « رَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَنَغِمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ » وقال ﷺ لمعاذ : « يَا مُعَاذُ أَنْتَ سَلِمٌ مَا سَكَتَ ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَعَلَيْكَ أَوْلُكَ » وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل . وقال بعض الحكماء : الزم الصمت تعدد حكيمًا ، جاهلًا كنت أو علما . وقال بعض الأدباء : سَعِدَ مَنْ لِسَانُهُ صَمُوتٌ ، وَكَلَامُهُ قُوتٌ . وقال بعض العلماء : مَنْ أَعْوَزَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الْعَاقِلُ أَلَّا يَتَكَلَّمَ إِلَّا لِحَاجَتِهِ ، أَوْ لِحُجَّتِهِ ، وَلَا يَفْكُرُ إِلَّا فِي عَاقِبَتِهِ ، أَوْ فِي آخِرَتِهِ . وقال بعض البلغاء : الزم الصمت ، فإنه يَكْسِبُكَ صِفُوَ الْمَحَبَّةِ ، وَيُؤَمِّنُكَ سَوَاءَ الْمَغَبَّةِ وَتُلْبَسُكَ ثُوبُ الْوَقَارِ ، وَيَكْفِيكَ مُؤْنَةُ الْإِعْتِذَارِ . وقال بعض الفصحاء : اعقل لسانك إلا عن حقّ توضّحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكّرها . وقال الشاعر :

رَأَيْتَ الْعَزَّ فِي أدبٍ وَعَقْلٍ وَفِي الْجَهْلِ الْمَذَلَّةَ وَالْهَوَانَ
وَمَا حَسَنَ الرِّجَالَ لَهُمْ بِحَسَنِ إِذَا لَمْ يُسَعِدِ الْحَسَنَ الْبَيَانَ
كَفَى بِالْمَرْءِ عِيَا أَنْ تَرَاهُ لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانٌ

واعلم أن للكلام شروطا ، لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها ، ولا يعرَى من النقص إلا بعد أن يستوفيها ، وهي أربعة :

فالشرط الأول : أن يكون الكلام لداع يدعو إليه ، إما في اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر .

والشرط الثاني : أن يأتي به في موضعه ، ويتوخى به إصابة فرصته .

والشرط الثالث : أن يقتصر منه على قدر حاجته .

والشرط الرابع : أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به . فهذه أربعة شروط ، متى أُخِلَّ المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها . وسنذكر تعليل كل شرط منها بما يبيىء عن لزومه .

فأما الشرط الأول ، وهو الداعي إلى الكلام ، فلأن ما لا داعي له هذيان ، وما لا سبب له هُجْر ، ومن سامح نفسه في الكلام إذا عَنَ ، ولم يراع صحة دواعيه ، وإصابة

معانيه ، كان قوله مرذولاً ، ورأيه معلولاً ، كالذي حكى ابن عائشة : أن شاباً كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت ، فأعجب ذلك الأحنف ، فخلت الحلقة يوماً فقال له الأحنف : تكلم يا بن أخي فقال : يا عم ، أرأيت لو أن رجلاً سقط من شرف هذا المسجد مثل كان يضربه شيء ؟ فقال يا بن أخي ليتنا تركناك مستورا ، ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشنّي :

وَكَايْنُ تَرَى مِنْ صَامَتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الْفَتَى نَصْفٌ وَنَصْفٌ فَوَادُهُ فَلَمْ يَهَيِّقْ إِلَّا صُورَةَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ
وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه : أن رجلاً كان يجلس إليه ، فيطيل الصمت . فقال له أبو يوسف : ألا تسأل ؟ قال : بلى ، متى يفطر الصائم ؟ قال : إذا غربت الشمس . قال : فإن لم تغرب إلى نصف الليل ؟ قال : فتبسم أبو يوسف رحمه الله ، وتمثل ببيت الخَطَفِي جدّ جرير :

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ الْعَيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتُ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَوْلِ أَعْلَمًا
وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْعَيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةٌ لُسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وما أطرفك به عني : أني كنت يوماً في مجلس بالبصرة ، وأنا مقبل على تدريس أصحابي ، إذ دخل عليّ رجل مسن ، قد ناهز الثمانين أو جاوزها . فقال لي : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها . فقلت : أسأل عافاك الله ، وظننته يسأل عن حادث نزل به . فقال : أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو ؟ فإن هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنها إلا علماء الدين ، فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله ، وبدر إليه قوم منهم بالإنكار ، والاستخفاف ، فكففتهم وقلت : هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلت عليه وقلت : يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم ، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله . فحينئذ أقبل عليّ وقال : جزاك الله خيراً ، ثم انصرف مسروراً ، فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولد هذين .

فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا الكلام عن جهلهم ، وأعربوا بالسؤال عن نقصهم ، إذ لم يكن لهم داع إليه ، ولا روية فيما تكلموا به ، ولو صدر عن روية ودعا إليه داع

لسلموا من شَيْئِهِ . وبرئوا عن عيبه ، ولذلك قال النبي ﷺ : « لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم ، وإن كان عليه أمسك ، وقلب الجاهل من وراء لسانه ، يتكلم بكل ما عرض له » .

وقال عمر بن عبد العزيز : من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياهُ . وقال بعض الحكماء : عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك ، أو يتلف نفسك ، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ، ويسرع إلى الجواب . وقال أبو تمام الطائي :

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من تبّع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام ، ويقول : إذا جالست الجاهل فأنتصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنتصت لهم ، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم ، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم .

وأما الشرط الثاني : فهو أن يأتي بالكلام في موضعه ، لأن الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به ، وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنه هذيان وهُجر ؛ فإن قدم ما يقتضي التأخير كان عَجَلَةً وخُرْقًا ، وإن أخر ما يقتضي التقديم كان تَوَانِيًا وعجزًا ، لأن لكل مقام قولًا ، وفي كل زمان عملاً . وقد قال الشاعر :

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعدها نَزَر

وأما الشرط الثالث : وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته ، فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة ، ولم يقدر بالكفاية ، لم يكن لحده غاية ، ولا لقدرة نهاية ، وما لم يكن من الكلام محصوراً كان إما حصراً إن قَصُر ، أو هذراً إن كَثُر . وروى أن أعرابياً تكلم عند رسول الله ﷺ وطول . فقال النبي ﷺ : « كم دون لسانك من حجاب ؟ قال شفتاي وأسناني . قال : فإن الله عز وجل يكره الانبعاث في الكلام ، فنضّر الله وجه امرئ أوجز في كلامه ، فاقصر على حاجته » .

وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر الكلام ويقلّ السكوت . فقال : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين واساناً واحداً ، ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به . وقال

بعض الحكماء : من كثر كلامه كثرت آثامه وقال ابن مسعود : أنذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء : كلام المرء بيان فضله ، وترجان عقله ، فاقصره على الجميل ، واقتصر منه على القليل . وإياك وما يُسَخِّطُ سلطانك ، ويوحش إخوانك ، فمن أسخط سلطانه تعرّض للمنية ، ومن أوحش إخوانه ، تبرأ من الحرية . وقال بعض الشعراء :

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدى عيوب ذوي العيوب المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان : تقصير يكون حصراً ، وتكثير يكون هذراً ، وكلاهما شين ، وشين الهذر أشنع ، وربما كان في الغالب أخوف . قال النبي ﷺ : « وهل يكبّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلاّ حصادُ ألسنتهم » . وقال بعض الحكماء : مقتل الرجل بين فكّيه . وقال بعض البلغاء : الحصر خير من الهذر ، لأنّ الحصر يضعف الحاجة ، والهذر يتلف المهجة ؛ وقد قال الشاعر :

رأيت اللسان على أهليه إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً

وقال بعض الأدباء : يا ربّ ألسنة كالسيوف ، تقطع أعناق أصحابها ، وما ينقص من هيشات الرجال يزد في بهائها وألبائها . وقد ذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة ، وزاد على حدّ الكفاية ، وكان صواباً لا يشوبه خطأ ، وسليماً لا يعتوره زلل ، فهو البيان ، والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك ، وقد ذمّ الكلام في مجلسه : كلاً . إن من تكلم فأحسن ، قدر على أن يسكت فيحسن ، وليس من سكت فأحسن ، قدر على أن يتكلم فيحسن . ووصف بعضهم الكاتب فقال : الكاتب من إذا أخذ شيئاً كفاه ، وإذا وجد طوماراً أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بُنيّ إذا أقللت من الكلام ، أكثرت من الصواب . فقال : يا أبت ، فإن أنا أكثرت وأكثرت ؟ يعني كلاماً وصواباً فقال : يا بُنيّ ما رأيت موعظاً أحقّ بأن يكون واعظاً منك . وأنشيدت لأبي الفتح البستي :

تكلمّ وسدّد ما استطعت فإنما كلامك حيّ والسكوت جهاد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لإيَّاس بن معاوية: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، فقال: أفتسمعون صواباً أو خطأ؟ قالوا: لا بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خير، وقال أبو عثمان الجاحظ: للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملا، فذلك الفاضل هو الهذر. وصدق أبو عثمان، لأن الإكثار منه وإن كان صواباً، يُملِّ السامع، ويُكِلِّ الخاطر، وهو صادر عن إعجاب به، لولاه لأقصر عنه؛ ومن أعجب بكلامه استرسل فيه، والمسترسل في الكلام كثير الزلل، دائم العثار. وقال بعض الحكماء: من أعجب بقوله. أصيب بعقله، وليس لكثرة الهذر رجاء بقابل خوفه، ولا نفع يوازي ضرره، لأنه يخاف من نفسه الزلل، ومن سامعية السامة والممل؛ وليس في مقابلة هذين حاجة داعية، ولا نفع مرجو. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أبغضكم إلي المتفيهق المكثار، والملح المهذار». وسأل رجل حكماً فقال: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتيت الصمت. فقال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتيت الكلام.

وقال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كافياً، كان الإكثار عيًّا، وإن كان الإكثار واجباً، كان التقصير عجزاً. وقيل في منشور الحكم: إذا تم العقل نقص الكلام. وقال بعض الأدباء: من أطال صمته، اجتلب من الهيبة ما ينفعه، ومن الوخشة ما لا يضره. وقال بعض البلغاء عيًّا تسلم منه، خير من منطق تندم عليه، فاقصر من الكلام على ما يقيم حاجتك، ويبلغ حاجتك، وإياك وفُضُوله، فإنه يُزِلَّ القَدَم، ويورث الندم. وقال بعض الفصحاء: فم العاقل مُلْجَم، إذا همَّ بالكلام أحجم؛ وفم الجاهل مُطْلَق، كلما شاء أطلق؛ وقال بعض الشعراء:

إِنَّ الْكَلَامَ يَغُرُّ الْقَوْمَ جَلُوتُهُ حَتَّى يَلِجَ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وأما الشرط الرابع: وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به، فلأن اللسان عنوان الإنسان، يُترجم عن مجهوله، ويُبهرن عن محصولة، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حَرِيًّا، وبتقويم لسانه مَلِيًّا. روي عن النبي ﷺ أنه قال لعنه العباس: «يعجبني جالك. قال: وما جمال الرجل يا رسول الله؟ قال: لسانه» وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان؟ هل كان إلا بهيمة مُهْمَلَة، أو صورة مُمَثَّلَة. وقال بعض الحكماء: اللسان وزير الإنسان. وقال بعض البلغاء: يُستدل على عقل الرجل بقوله، وعلى أصله

بفعله . وقال بعض الشعراء :

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تكنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وليس يصح اختيار الكلام، إلّا لمن أخذ نفسه بالبلاغة، وكلفها لزوم الفصاحة، حتى يصير متدرّباً بها، معتاداً لها. فلا يأتي بكلام مستكرّه اللفظ، ولا مختلّ المعنى، لأنّ البلاغة ليست على معان مفردة، ولا لألفاظها غاية، وإنما البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة، مستودعة في ألفاظ فصيحة؛ فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة؛ وقد قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: اختيار الكلام، وتصحيح الأقسام. وقيل ذلك للرومي. فقال: حسن الاختصار عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي فقال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل للعربي، فقال: ما حسن إيجازه، وقل مجازه. وقيل للبدوي، فقال ما دون السّحر، وفوق الشعر، يفتّ الخردل، ويحطّ الجندل. وقيل للحصري، فقال: ما كثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه.

وقال ابن المقفع: البلاغة قلة الحصر، والجرأة على البشّر. وسأل الحجاج ابن القريّة عن الإيجاز؟ قال: أن تقول فلا تُبطيء، وأن تصيب فلا تخطيء. وقال الشاعر:

خيرُ الكلام قليلٌ على كثيرٍ دليلٌ
والعبيّ معنًى قصيرٌ يحويه لفظ طويلٌ
وفي الكلام فضُولٌ وفيه قالٌ وقيلٌ

وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه.

أحدها: إيضاح تفسيرها، حتى لا تكون مشكّلة ولا مُجمّلة.

والثاني: استيفاء تقسيمها، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو فيها.

والثالث: صحة مقابلاتها؛ والمقابلة تكون من وجهين. أحدهما: مقابلة المعنى بما يوافقه، وحقيقه هذه المقاربة، لأنّ المعاني تصير متشاكّلة. والثاني، مقابلته بما يضاده، وهو حقيقة المقابلة، وليس للمقابلة إلا أحد هذين الوجهين الموافقة في الإئتلاف، والمضادة مع الاختلاف. فأما فصاحة الألفاظ، فتكون بثلاثة أوجه:

أحدها: مجانبة الغريب الوحشي، حتى لا يَمْجَّه سَمْعٌ، ولا يَنْفِرَ منه طَبْعٌ.

والثاني: تنكُّب اللفظ المستبدل، والعدول عن الكلام المسترَدَّل، حتى لا يستسقطه خاصيٌّ، ولا ينبو عن فهمه عاميٌّ، كما قال الجاحظ في كتاب البيان: «أما أنا فلم أر قوماً أمتلَّ طريقة في البلاغة من الكتَّاب، وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكون متوعِّراً وحشياً، ولا ساقطاً عامياً».

والثالث: أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة. أما المطابقة فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال بشر بن الْمُعْتَمِر في وصيته في البلاغة: إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حائلة من مركزها، بل وجدتها قَلِقة في مكانها، نافرة عن موضعها، فلا تُكْرِهها على القرار في غير موضعها، فإنك إن لم تتعاطَ قريض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور، لم يَعيكَ يترك ذلك أحد، وإذا أنت تكلفتها، ولم تكن حاذقاً فيها، عابك من أنت أقل عيباً منه، وأزرى عليك من أنت فوقه.

وأما المناسبة فهي: أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ، إما لعُرف مستعمل، أو لاتفاق مستحسن، حتى إذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ، كانت نافرة عنها، وإن كانت أفصح وأوضح، لاعتیاد ما سواها.

وقال بعض البلغاء: لا يكون البليغ بليغاً، حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك، من لفظه إلى سمعك. وأما معاطاة الإعراب، وتجنُّب اللحن، فإنما هو من صفات الصواب، والبلاغة أعلى منه رتبة، وأشرف منزلة، وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء، فضلاً عن أن يكون في عداد البلغاء.

واعلم أن للكلام آداباً إن أغفلها المتكلم، أذهب رونق كلامه، وطَمَسَ بهجة بيانه، ولها الناس عن محاسن فضله، بمساوئ أدبه، فعدلوا عن مناقبه، بذكر مثالبه.

فمن آدابه ألاَّ يتجاوز في مدح، ولا يسرف في ذم، وإن كانت النزاهة عن الذم كرمًا والتجاوز في المدح مَلَقاً يصدر عن مهانة؛ والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر، وكلاهما شين، وإن سلِم من الكذب.

يُرَوِّى أَنَّهُ لَمَّا قَدَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ تَمِيمٌ، سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنُ الْأَهِمِّ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ، فَمَدَحَهُ، فَقَالَ قَيْسٌ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَنِّي خَيْرُ مِمَّا وَصَفَ، وَلَكِنْ حَسَدَنِي، فَذَمَّهُ عَمْرُو، وَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَ فِي الْأَوَّلَى، وَمَا كَذَبْتَ فِي الْآخَرَى؛ لِأَنِّي رَضِيتُ فِي الْأَوَّلَى، فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ، وَسَخِطْتُ فِي الْآخَرَى، فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا عَلِمْتُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا». عَلَى أَنَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ، لَا سِيَّامَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا، وَذَمَّ تَحْنُقًا.

وَحُكِّيَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، أَنَّهُ قَالَ: سَهَرَتْ لَيْلَتِي أَفْكَرَ فِي كَلِمَةٍ أَرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أَسْخَطَ بِهَا رَبِّي، فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنْ الرَّجُلُ لِيَدْخُلَ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيُخْرِجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَسْمَعُ ابْنُ الرَّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا، وَيَبَالِغُ فِي مَدْحِهِ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرًا لَا مَرِيءَ فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَأَقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ الظَّنُّو نَ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ
فِيضُولُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتَهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

وَمِنْ آدَابِهِ: أَلَّا تَبْعَثَهُ الرِّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى الْإِسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ، يَعْجِزُ عَنْهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهَا، فَإِنْ مَنَ أَطْلَقَ بِهَا لِسَانَهُ. وَأَرْسَلَ فِيهَا عِنَانَهُ، وَلَمْ يَسْتَنْقِلْ مِنَ الْقَوْلِ، مَا يَسْتَنْقِلُهُ مِنَ الْعَمَلِ، صَارَ وَعْدُهُ نَكْنَأً، وَوَعِيدُهُ عَجْزًا.

وَحُكِّيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَرَّ بِعَصْفُورٍ يَدُورُ حَوْلَ عَصْفُورَةٍ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا يَقُولُ لَهَا؟ قَالُوا: لَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ: قَالَ: إِنَّهَا يُخَاطِبُهَا لِنَفْسِهِ، وَيَقُولُ لَهَا: زَوِّجِي نَفْسَكَ، أَسْكُنْكَ أَيْ غُرْفِ دِمَشْقَ شَتَّى. قَالَ سُلَيْمَانُ: كَذَبَ الْعَصْفُورُ، فَإِنْ غُرْفَ دِمَشْقَ مَبْنِيَّةٌ بِالصَّخُورِ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْكُنَهَا هُنَاكَ، وَلَكِنْ كُلُّ خَاطِبٍ كَاذِبٌ.

وَمِنْ آدَابِهِ: أَنَّهُ إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ، فَإِنْ أُرْسِلَ الْقَوْلُ اخْتِيَارًا، وَالْعَمَلُ بِهِ اضْطِرَارًا، وَلَأَنَّ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ: أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا

لم يفعل. وقال بعض الحكماء: أحسن الكلام ما لا يُحتاج فيه إلى الكلام؛ أي يكتفي بالفعل من القول. وقال محمود الورّاق:

القول ما صدّقه الفعلُ والفعل ما وكّده العقلُ
لا يثبتُ القولُ إذا لم يكن يُقلّله من تحته الأصلُ

ومن آدابه: أن يراعي مخارج كلامه، بحسب مقاصده وأغراضه، فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللطف، وإن كان ترهيباً خلطه بالخشونة والغُف، فإن لين اللفظ في الترهيب، وخشونته في الترغيب، خروج عن موضعها، وتعطيل للمقصود بهما، فيصير الكلام لغوّاً، والغرض المقصود لهوّاً. وقد قال أبو الأسود الدؤلي لابنه: يا بُنيّ، إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك.

ومن آدابه: ألا يرفع بكلامه صوتاً مستكراً، ولا ينزعج له انزعاجاً مستهجنّاً، وليكفّ عن حركة تكون طيشاً، وعن حركة تكون عيّاً، فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة.

وقد حُكي أن الحجاج قال لأعرابي: أخطيب أنا؟ قال: نعم لولا أنك تكثر الردّ، وتشير باليد، وتقول: أما بعد.

ومن آدابه: أن يتحافى هُجر القول، ومستقبّح الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يُستقبّح صريحه، ويُستَهجن فصيح، ليلبّغ الغرض ولسانه نزه، وأدبه مَصُون: وقد قال محمد بن عليّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان: ٧٢] قال: كانوا إذا ذكروا الفروج كنوا عنها. وكما أنه يصون لسانه عن ذلك، فهكذا يصون عنه سمعه، فلا يسمع خناً، ولا يصغي إلى فحش، فإن سماع الفحش داعٍ إلى إظهاره، وذريعة إلى إنكاره، وإذا وُجد عن الفحش مُعرضاً، كفّ قائله، وكان إعراضه أحد النكيرين، كما أن سَماعه أحدُ الباعثين.

وأنشدني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي:

تحرّ من الطَّرْقِ أوساطها وعدّ عن الوضعِ المشتبه

وَسَمِعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكَ لِقَائِهِ فَاَنْتَبِهْ

ومما يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ الْقَوْلِ وَهَجْرِهِ، فِي وَجوبِ اجْتِنَابِهِ، وَلِزُومِ تَنكِهِهِ، مَا
كَانَ شَنِيعَ الْبَدِيهَةِ، مُسْتَنَكَّرَ الظَّاهِرِ، وَإِنْ كَانَ عَقِبَ التَّأَمُّلِ سَلَامًا، وَبَعْدَ الْكَشْفِ
وَالرُّوْيَةِ مُسْتَقِيمًا، كَالَّذِي رَوَاهُ الْأَزْدِيُّ عَنِ الصُّوَلِيِّ لِبَعْضِ الْمُتَكَلِّفِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ :

إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ، بِاللَّهِ سَيِّرِي
أَنْتَ رَبِّي، وَإِلَهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ كَافِرٌ: أَيُّ لَا بَسَ، لِأَنَّ الْكَفْرَ: التَّغْطِيَةَ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْكَافِرُ بِاللَّهِ
كَافِرًا، لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَقَوْلُهُ بِاللَّهِ سَيِّرِي: يَقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ.
وَقَوْلُهُ أَنْتَ رَبِّي: يَعْنِي رَبِّي وَلَدَكَ، مِنَ التَّرْبِيَةِ. وَإِلَهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ. كَمَا أَنَّهُ
رَازِقُ الْوَلَدِ الْكَبِيرِ فَانْظُرْ إِلَى هَذَا التَّكْلُفِ الشَّنِيعِ. وَالتَّعَمُّقِ الْبَشِيعِ. مَا اعْتَاظَ مِنْ حَيْثُ
الْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ، إِلَّا لَوْ مَا إِنْ حَسُنَ فِيهِ الظَّنُّ، أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ
الْإِرْتِيَابُ، وَقَلِمَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خَلِيعِ بَطَرٍ، وَمُرْتَابِ أَشْرٍ: فَأَمَّا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « لَا تَصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ » فَخَارَجَ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِنَ التَّلْيِيسِ، وَفِي
تَأْوِيلِهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَرَادَ النَّهْيَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ الْمَحْدُودِ بِ، مَأْخُذٍ مِنَ النَّبُوَّةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَرَادَ الطَّرِيقَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ رَسُلُ اللَّهِ أَنْبِيَاءَ، لِأَنَّهُمُ الطَّرِيقُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا زَالَ
عَنْهُ التَّلْيِيسُ إِذْ قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْلٍ غَيْرِهِ تَلْيِيسًا شَنِيعًا، لِأَنَّ
مَوْضُوعَ خُطَابِهِ، وَشَوَاهِدَ أَحْوَالِهِ، يَصْرَفَانِ كَلَامَهُ عَنِ التَّجَوُّزِ وَالِاسْتِرْسَالِ فِي أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ
إِلَى مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَرُدَّ بِهِ شَرْعٌ، وَيُنْهَى عَنْهُ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ، وَلِذَلِكَ
افْتَرَقَ وَجُودَهُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ.

وَمِنْ آدَابِهِ: أَنْ يَجْتَنِبَ أَمْثَالَ الْغَوَاغِي، وَيَتَخَصَّصَ بِأَمْثَالِ الْعُلَمَاءِ الْأَدْبَاءِ. فَإِنْ
لِكُلِّ صَنْفٍ مِنَ النَّاسِ أَمْثَالًا تَشَاكَلَهُمْ، فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا، وَتَشْبِيهًا
مُسْتَقْبَحًا، وَلِلْسَّقَاطِ أَمْثَالٌ، فَمِنْهَا تَمْثِيلُهُمْ لِلشَّيْءِ الْمُرِيبِ كَمَا قَالَ الصَّنَوْبَرِيُّ:

إذا ما كنتَ ذا بولٍ صحيحٍ ألا فاضربْ به وجهَ الطيبِ .
ولذلك علتان : إحداهما : أن الأمثال من هواجس الهمم ، وخطرات النفوس ، ولم يكن لذي الهمة الساقطة إلا مثَل مردول ، وتشبيه معلول .

والثانية : أن الأمثال مستخرجة من أحوال الممثلين بها ، فبحسب ما هم عليه ، تكون أمثالهم ، فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة ، وأمثال العامة ، وربما ألف المتخصص مثلاً عامياً ، أو تشبيهاً ركيكاً ، لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل ، فيسترسل في ضربه مثلاً ، فيصير به مثلاً ، كالذي حُكي عن الأصمعي : أن الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب ، فقال : على الخبر سقطت يا أمير المؤمنين . فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله جنبيك ! أتخاطب أمير المؤمنين هذا الخطاب ! فكان الفضل ابن الربيع مع قلة علمه ، أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء ، من الأصمعي الذي هو واحد عصره ، وقريع دهره .

وللأمثال من الكلام موقعٌ في الأسماع ، وتأثير في القلوب ، لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ، ولا يؤثر تأثيرها ، لأن المعاني بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها امانة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة ، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل رسله ، وأوضح بها الحجة على خلقه ، لأنها في العقول معقولة ، وفي القلوب مقبولة ، ولها أربعة شروط :

أحدها : صحة التشبيه .

والثاني : أن يكون العلم بها سابقاً ، والكل عليها موافقاً .

والثالث : أن يسرع وصولها للفهم ، ويعجل تصوُّرها في الوهم ، من غير ارتياء في استخراجها ، ولا كد في استنباطها .

والرابع : أن تناسب حال السامع ، لتكون أبلغ تأثيراً ، وأحسن موقعاً ، فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة ، كانت زينة للكلام ، وجلاء للمعاني ، وتدبراً للأفهام .

الفصل الثاني: في الصبر والجزع

اعلم أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصبر على الملمات، والرفق عند التوازل، وبه نزل الكتاب، وجاءت السنة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم، وصابروا عدوكم. ورابطوا: فيه تأويلان. أحدهما: على الجهاد. والثاني: على انتظار الصلوات. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يُحِبُّ الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوُضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلك الرباط». فنزل الكتاب بتأكيد الصبر، فيما أمر به، ونذّب إليه، وجعله من عزائم التقوى، فيما افترضه وحثّ عليه. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر من الكروب، وعون على الخطوب». وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو. وقال عبد الحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الصبر والشكر بعيان، ما باليت أيّهما ركبت: وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أفضل العدة الصبر على الشدة. وقال بعض البلغاء: من خير خلالك، الصبر على اختلالك. وقيل في منشور الحكم: من أحبّ البقاء، فليعدّ للمصائب قلب صبوراً. وقال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع الكُرّه، تدرك الحظوظ. وقال عبيد بن الأبرص:

صَبَرَ النَّفْسَ عِنْدَ كُلِّ مُلَمٍّ إِنَّ فِي الصَّبْرِ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
لَا تَضْيِقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقْدُ تَكْ شَفُ غَمَاؤُهَا بغيرِ احتِيَالِ
رُبَّ مَا تَجَزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ رِي لَهُ فَرْجَةٌ كَحُلِّ الْعِقَالِ

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة: الصبر صبران، فاللثام أصبر أجساماً، والكرام أصبر نفوساً. وليس الصبر الممدوح صاحبه، أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل، لأن هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوبا، وللأمر منحملاً، ولجأشه عند الحفاظ مُرتبطاً.

واعلم أن الصبر على ستة أقسام، وهو في كل قسم منها محمود.

فأول أقسامه وأولها: الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتفاء عما نهى الله عنه لأن به تخلص الطاعة، وبخلوص الطاعة يصح الدين، وتؤدي الفروض، ويستحق الثواب، كما قال في مُحْكَم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. ولذلك قال النبي ﷺ: «الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد» وليس لمن قلَّ صبره على طاعة حظ من برٍّ، ولا نصيب من صلاح. ومن لم ير لنفسه صبرًا، يكسبها ثوابًا، ويدفع عنها عقابًا، كان مع سوء الاختيار، بعيدًا من الرشاد، حقيقًا بالضلال. وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه، أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه؟ وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى:

أراك امرأً ترجو من الله عَفْوَه وأنت على ما لا يُحِبُّ مُقِيمٌ
تَدُلُّ على التقوى وأنت مُقَصِّرٌ فيا مَنْ يداوي الناس وهو سقيمٌ

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفِرط الجزع، وشدة الخوف، فإن من خاف الله عز وجل صَبَرَ على طاعته، ومن جَزَعَ من عقابه، وقف عند أوامره.

والقسم الثاني: الصبر على ما تقتضيه أوقاته، من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد أكدَّه الهمُّ بها، فإن الصبر عليها يُعْقِبُه الراحة منها، وَيَكْسِبُه المثوبة عنها، فإن صبر طائعاً، وإلا احتمل همًّا لازماً، وصبرَ كارهاً آتماً. وَرَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من لم يرض بقضائي، ويصبر على بلائي، فليختر ربًّا سِوَايَ». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس: إنك إن صَبَرْتَ، جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جَزَعْتَ، جرى عليك القلم وأنت مأزور. وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره، فقال:

وقال عليٌّ في التمازي لأشعثٍ. وخاف عليه بعض تلك المائِمِ
أتصبرُ للبلوى عَزَاءً وَخَشْيَةً فتُوجَرُ، أو تسلو سُلُوَ البهائمِ؟

وقال شبيب بن شبة للمهدي: إن أحق ما تصبر عليه، ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً.
وأنشد:

ولئنْ تُصَبِّكَ مُصِيبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا عَظُمَتْ مُصِيبَةٌ مُبْتَلًى لَا يَصْبِرُ!
وقال آخر :

تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجَعٌ كَمَا صَبَّرَ الظَّمَانُ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ
وليس اصطباري عنك صبرًا استطاعةً ولكنه صبرٌ أمرٌ من الصبرِ
والقسم الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوزَ تنله من
مسرة مأمولة، فإن الصبر عنها يُعِيبُ السلو منها، والأسف بعد اليأس خرقٌ. وروى
عن النبي ﷺ أنه قال: « من أعطي فشكر، ومنع فصبر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر،
فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون ».

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله، مثل ما لا يخطر ببالك فلم
تقله. وقال بعض الشعراء:

إذا ملك القضاء عليك أمرا فليس يحلّه غيرُ القضاء
فما لك والمقام بدار ذلٍّ ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء: إن كنت تجزع على ما فات من يدك، فاجزع على ما لا يصل
إليك، فأخذه بعض الشعراء. فقال:

لا تطل الحزن على فائتي فقلما يجدي عليك الحزن
سيان محزون على فائتي ومضمير حزننا لما يكن

والقسم الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه، من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من
نكبة يخشاها، فلا يتعجل همّ ما لم يأت، فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من
الخوف مدفوع. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « بالصبر يتوقع الفرج، ومن يؤمن
قرع باب يلج ». وقال الحسن البصري رحمه الله: لا تحملنّ على يومك همّ غدك،
فحسب كل يوم همّه. وأنشد الجاحظ لحارثة بن زيد:

إذا الهم أمسى وهو داء فأمضيه ولست بمضيه وأنت تعادله
ولا ينزلن أمر الشديدة بامريء إذا همّ أمر أعوقته عواذله
وقل للفؤاد إن تجد بك ثورة من الروع فافرّخ أكثر الهم باطله

والقسم الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها، فإنه إن أدهشه التوقع لها، وأذهله التطلع إليها، انسدت عليه سُبُل المطالب، واستفزه تسويل المطامع، فكان أبعد لرجائه، وأعظم لبلائه؛ وإذا كان مع الرغبة وقورا، وعند الطلب صبرا، انجلت عنه غمّة الدهش، وانجابت عنه حيرة الوله، فأبصر رؤده، وعرف قصده. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ضياء» - يعني - والله أعلم - أنه يكشف ظلم الحيرة، ويوضح حقائق الأمور. وقال أكرم بن صيفي: من صبر ظفّر. وقال ابن المقفع: كان مكتوبا في قصر أردشير: الصبر مفتاح الدرك. وقال بعض الحكماء: بحسن التأني تسهل المطالب. وقال بعض البلغاء من صبر نال المني، ومن شكر حصّن النعمي. وقال محمد بن بشير:

إن الأمور إذا سُدت مطالبها فالصبر يفتق منها كل ما ارتجبا
لا تيأسن وإن طالّت مُطالبه إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومُدمن القرع للأبواب أن يلجبا

والقسم السادس: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف، فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء، وتُستدفع مكاييد الأعداء، فإن من قل صبره، عزّب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر ما تكره خيرا كثيرا. واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر». وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مستأصل الحدّثان، والجزع من أعوان الزمان. وقال بعض الحكماء: بمفتاح عزيمة الصبر، تُعالج مغاليق الأمور. وقال بعض البلغاء: عند انسداد الفرّج، تبدو مطالع الفرّج. وروى ابن عباس رضي الله عنهما، أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما استكدت شياطينه في البناء شكّوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ألسنم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل؟ قالوا: بلى. قال: ففي ذلك راحة. فبلغ ذلك سليمان، على نبينا وعليه السلام، فشنغلهم ذاهبين وراجعين، فشكّوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ألسنم

تستريحون بالليل؟ قالوا! بلى قال: ففي هذا راحة لكم، نصفَ دهركم. فبلغ ذلك سليمان عليه السلام، فشغلهم بالليل والنهار، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: الآن جاءكم الفرج. فلما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميتاً على عصاه. فإذا كان هذا في نبي من أنبياء الله، يفعل بأمره، ويقف على حده، فكيف بما جرت به الأقدار من يد عاديه، وساقه القضاء من حوادث نازلة، هل تكون مع التناهي إلا منقرضة، وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة.

وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه :

خليلي لا والله ما من مُلَمَّةٍ تدوم على حَيٍّ وإن هي جَلَّتِ
فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها ولا تُكثِرِ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
فكم من كريم قد بُلي بنوائبٍ فصابرها حتى مضت واضمحلتِ
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرةٍ تلقيتها بالصبر حتى تجَلَّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلما رأْتُ صبري على الذلّ ذَلَّتِ
فقلت لها يا نفسُ موقى كريمةً فقد كانت الدنيا لنا ثم ولَّتِ
ولتسهل المصائب، وتخفيف الشدائد أسباب، إذا قارنت حزماً، وصادفت عزماً،
هان وقعها، وقل تأثيرها وضررها.

فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء، وتقضي المسار، وأن لها آجالاً منصرمة، ومَدَدًا منقضية، إذ ليس للدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء. وروى ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « ما مثلي ومثل الدنيا إلا كمثل راکب، مال إلى ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها ».

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الدنيا، فقال: تَغَرُّ وتَضُرُّ وتُمِرُّ. وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا، فقال: إذا أقبلت أدبرت. وقال عمرو بن عبّيد: الدنيا أمد، والآخرة أبد. وقال أنوشروان: إن أحبيت أن لا تغتم، فلا تقتن ما به تهتم. فأخذه بعض الشعراء، فقال:

المبر ان الدهر من سوء فعله يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
من سره ألا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء :

لِحِكْمِنَا بِقِرَاطٍ خَيْرُ قَضِيَّةٍ وَوَصِيَّةٍ تَنْفِيهِ الِهِمُومَ الرُّكْدَا
قَالَ : الِهِمُومُ تَكُونُ مِنْ طَبَعِ الْوَرَى فِي لُبِّثٍ مَا فِي طَبْعِهِ أَنْ يَنْفَدَا
فَإِذَا اقْتَنَيْتَ مِنَ الزَّجَاجَةِ قَابِلًا لِلْكَسْرِ فَانْكَسَرَتْ فَلَا تَكُ مُكْمَدَا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم :

إِنَّمَا الدُّنْيَا هَبَاتٌ وَعَوَارٍ مُسْتَرْدَّةٌ
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ

وَلَا قُتِلَ بُزْرَجِيهْرٌ وَجُدَ فِي جَيْبٍ قَمِيصُهُ رَقْعَةً فِيهَا مَكْتُوبٌ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ جَدًّا ،
فَفِيمَ الْكَدِّ ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ دَوَامٌ ، فَفِيمَ السُّرُورِ ؟ وَإِذَا لَمْ يَرِدِ اللَّهُ دَوَامُ مَلِكٍ ، فَفِيمَ
الْحِيلَةِ ؟ وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

رَأَيْتُ حَيَاةَ الْمَرْءِ رَهْنًا بِمَوْتِهِ وَصَحْتُهُ رَهْنًا كَذَلِكَ بِالسَّقَمِ
إِذَا طَابَ لِي عَيْشٌ تَغْصَنَ طَيْبُهُ بِصَدَقٍ يَقِينِي أَنْ سِيْذْهَبُ كَالْحُلْمِ
وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشٍ يَرَاعِي زَوَالَهُ فَذَلِكَ فِي بؤْسٍ وَإِنْ كَانَ فِي نَعْمٍ

وَمِنْهَا : أَنْ يَتَصَوَّرَ انْجِلَاءَ الشَّدَائِدِ ، وَانْكَشَافَ الِهِمُومِ ، وَأَنَّهَا تَتَقَدَّرُ بِأَوْقَاتٍ لَا
تَنْصَرِمُ قَبْلُهَا ، وَلَا تَسْتَدِيمُ بَعْدَهَا ، فَلَا تَقْصُرُ بِجَزَعٍ ، وَلَا تَطُولُ بِصَبْرٍ ، وَأَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ
بِهَا ، يَذْهَبُ مِنْهَا بِشَطَرٍ ، وَيَأْخُذُ مِنْهَا بِنَصِيبٍ ، حَتَّى تَنْجَلِيَ وَهُوَ عَنْهَا غَافِلٌ .

وَحُكِّيَ أَنَّ الرَّشِيدَ حَبَسَ رَجُلًا ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ بَعْدَ زَمَانٍ ، فَقَالَ لِلْمَوْكَلِّ بِهِ : قُلْ لَهُ
كُلَّ يَوْمٍ يَمِضِي مِنْ نَعِيمِكَ ، يَمِضِي مِنْ بؤْسِي مِثْلُهُ ، وَالْأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَالْحُكْمُ لِلَّهِ تَعَالَى .
فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى بَعْضُ الشُّعْرَاءِ ، فَقَالَ :

لَوْ أَنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ يَدُومُ لَكُمْ ظَنَنْتُ مَا أَنَا فِيهِ دَائِمًا أَبَدًا
لَكُنْتَنِي عَالَمٌ أَنِّي وَأَنْتُمْ سَنَسْتَجِدُّ خِلَافَ الْحَالَتَيْنِ غَدًا

وَأَنشَدَتْ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

عَوَاقِبُ مَكْرُوهِ الْأُمُورِ خِيَارُ وَأَيَّامُ ضُرِّ لَا تَدُومُ قِصَارُ
وَلَيْسَ بِيَاقٍ بِؤْسُهَا وَنَعِيمُهَا إِذَا كَرَّ لَيْلٌ ثُمَّ كَرَّ نَهَارُ

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة :

ألم تر أن ربك ليس تُحْصَى أياديه الحديثُ والقديمة
تسلّ عن المموم فليس شيء يقوم ولا همومك بالمقيمة
لعلّ الله ينظر بعد هذا إليك بنظرة منه رحيمة

ومنها: أن يَعْلَمَ أن فيما وُقِيَ من الرزايا، وكُفِيَ من الحوادث، ما هو أعظم من رزيته، وأشد من خادثته، لِيُعْلَمَ أنه ممنوح بحسن الدفاع، ولذلك قال النبي ﷺ : « إن لله تعالى في أثناء كلِّ مِحْنَةٍ مِئْحةٌ ». وقيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نِعْمَتَيْنِ: خيرٍ منشور، وشرٍّ مستور. وقال بعض الشعراء:

لا تَكْرِهِ المَكْرُوءَ عن حُلُولِهِ إنَّ العَوَاقِبَ لم تزلْ متباينة
كم نعمة لا تستقلّ بشكرها لله في طَيِّ المَكَارِهِ كَامِنَةٌ

ومنها: أن يتأسّى بذوي الغير، ويتسلّى بأولي العبر، ويعلم أنهم الأكثرون عَدَدًا، والأسرعون مَدَدًا، فيستجدّ من سلوة الأسي، وحسن الغزَا، ما يخفف شَجْوَهُ، ويُقِلُّ هَلْعَهُ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصَّقُّوا بذوي الغير، تتسع قلوبكم. وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء، قال البُحْثَرِيُّ:

فلا عَجَبٌ للأَسَدِ إن ظفرت بها كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم
فحربةٌ وحشيّ سقتْ حمزة الرَدَى وموتُ عليٍّ من حُسام ابن مُلْجَم
وقال أبو نُواس:

المرء من مصائب لا تنقضي حتّى يُوارى جسمه في رمسه
فمُوجَلّ يلقى الرَدَى في أهله ومُعَجَّل يلقى الرَدَى في نفسه

ومنها: أن يعلم أن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت، مَشُوبٌ بالخدر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا، حتى تُعْقِبَ بفراقها ترحاء؛ فعلى قدر السرور يكون الحزن. وقد قيل في منشور الحكم: المفروح به،

هو المحزون عليه . وقيل : مَنْ بلغ غاية ما يجب ، فليتَوَقَّع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء : مَنْ علم أن كل نائبة إلى انقضاء ، حَسُنَ عَزَاؤُهُ عند نزول البلاء . وقيل للحسن البَصْرِي رحمه الله : كيف ترى الدنيا ؟ قال : شغلني تَوَقُّعُ بِلَائِهَا ، عن الفرح بِرَخَائِهَا . فأخذه أبو العتاهية ، فقال :

تَزِينُهُ الْأَيَّامُ إِن أَقْبَلْتُ شِدَّةَ خَوْفٍ لِتَصَارِيفِهَا
كَأَنَّهَا فِي حَالِ إِسْعَافِهَا تُسْمِعُهُ وَقْعَةَ تَخْوِيفِهَا

ومنها : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ سروره مقرون بمساءة غيره ، وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره ، إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب ، وتصل صاحباً بفراق صاحب ، فتكون سرورا لمن وصلته ، وحزنا لمن فارقتة ، وقد قال النبي ﷺ : « مَا قُرِعَتْ عَصَا عَلَى عَصَا ، إِلَّا قَرِحَ لَهَا قَوْمٌ ، وحزن آخرون » . وقال البُخْتَرِيُّ :

مَتَى أَرَتِ الدُّنْيَا نِبَاهَةً خَامِلٍ فَلَا تَرْتَقِبْ إِلَّا خُمُولَ نَبِيهِ
وقال المتنبي :

بَدَا قَضَتْ الْأَيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ
وأنشد بعض أهل الأدب :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إِذَا اخْضَرَّتْ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ
فَلَا تَفْرَحَنَّ مِنْهَا لِشَيْءٍ تَفِيدُهُ سِيْذْهَبُ يَوْمًا مِثْلَ مَا أَنْتَ ذَاهِبُ
وما هذه الأيام إِلَّا فجائعٌ وما العيش واللذات إِلَّا مصائبُ

ومنها : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ طَوَارِقَ الْإِنْسَانِ مِنْ دَلَائِلِ فَضْلِهِ ، وَمِجَنَّهُ مِنْ شَوَاهِدِ نُبُلِهِ ، وذلك لِإِحْدَى عِلَّتَيْنِ : إِمَّا لِأَنَّ الْكَمَالَ مُعْزِزٌ ، وَالنَّقْصَ لَا زِمَ ، فَإِذَا تَوَاتَرَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ ، صَارَ النَّقْصُ فِيهَا سَوَاءً . وَقَدْ قِيلَ : مَنْ زَادَ فِي عَقْلِهِ ، نَقَصَ مِنْ رِزْقِهِ . وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا انْتَقِصَتْ جَارِحَةٌ مِنْ إِنْسَانٍ ، إِلَّا كَانَتْ ذَكَاةً فِي عَقْلِهِ » . وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

مَا جَاوَزَ الْمَرْءُ مِنْ أَطْرَافِهِ طَرَفًا إِلَّا تَخَوَّنَتْهُ النِّقْصَانُ مِنْ طَرَفٍ
وأنشدني بعض أهل الأدب لإبراهيم بن هلال الكاتب :

إذا جمعتُ بينَ امرأَيْنِ صِنَاعَةً فأحببتُ أنَ تدري الذي هو أحذقُ
 فلا تتفقَدُ منها غيرَ ما جرت به لهما الأرزاقُ حينَ تفرَّقُوا
 فحيثُ يكونُ النقصُ فالرزقُ واسعٌ وحيثُ يكونُ الفضلُ فالرزقُ ضيقُ
 وإما لأنَ ذا الفضلِ محسودٌ ، وبالأذى مقصودٌ ، فلا يسلمُ في بره من مُعادٍ ،
 واشتطاطِ مناوٍ . وقال الصنوبري :

مَحَنَ الْفَتَى يُخْبِرُنَ عَنْ فَضْلِ الْفَتَى كالنارِ خَبْرَةً بِفَضْلِ الْعَنْبَرِ
 وقلما تكونُ محنةُ فاضلٍ إلا منَ جهةٍ ناقصةٍ ، وبلوىُ عالمٍ إلا على يدِ جاهلٍ ، وذلكُ
 لاستحكامِ العداوةِ بينها بالمباينةِ ، وحدوثِ الانتقامِ لأجلِ التقدمِ ، وقد قال الشاعرُ :
 فلا غَرورَ أنَ يُمنَى عليمٌ بجاهلٍ فمنَ ذَنبِ التَّئِينِ تنكسِفُ الشمسُ
 ومنها : ما يعتاضه من الارتياضِ بنوائبِ عصره ، ويستفيده من الحُنْكةِ ببلاءِ دهره ،
 فيصلُبُ عودَه ، ويستقيمُ عمودُه ، ويكملُ بأدنى شدته ورخائه ، ويتعظُ بحالةِ عَفْوهِ
 وبلائه .

حكى عن ثعلبٍ قال : دخلتُ على عُبيدِ الله بنِ سليمان بن وهبٍ وعليه خَلَعُ الرضا
 بعد النكبةِ ؛ فلما مثَّلتُ بين يديه قال لي : يا أبا العباس ، اسمع ما أقول :

نوائبُ الدهرِ أدبني وإنما يُوعِظُ الأديبُ
 قد دُفَّتْ حُلُوهَا وذُفَّتْ مُرُّهَا كذاكَ عيشُ الْفَتَى ضُرُوبُ
 لم يَمْضِ بؤْسٌ ولا نعيمٌ إلا وليَ فيهما نصيبُ
 كذاكَ من صاحبِ الليالي تغذوه من دَرِّهَا الخطوبُ

فقلت : لمن هذه الأبيات ؟ قال : لي .

ومنها : أن يختبرَ أمورَ زمانه ، ويتنبه على صلاحِ شأنه ، فلا يغترَّ برِخاءِ ، ولا يطمعَ
 في استواء ، ولا يؤملَ أن تبقى الدنيا على حالة ، أو تخلو من تقلبٍ واستحالة ، فإن من
 عرف الدنيا ، وخبر أحوالها ، هان عليه بؤسُها ونعيمُها . وأنشد بعضُ الأدباءِ :

إني رأيتُ عواقبَ الدنيا فتركتُ ما أهوى لما أخشى
 فكُفرتُ في الدنيا وعالمِها فإذا جيعُ أمورها تَفَنَّى

وبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا كلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى
أَسْنَى مَنَازِلَهَا وَأَرْفَعُهَا فِي الْعِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَهْوَى
تَعْفُو مَسَاوِيهَا مُحَاسِنَهَا لَا فَرْقَ بَيْنَ النَّعِيِّ وَالْبُشْرَى
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَوْلَى
أَتْرَاكَ تَدْرِي كَمْ رَأَيْتَ مِنْ أَلْ أَحْيَاءَ ثُمَّ رَأَيْتَهُمْ مَوْتَى

فإذا ظفر المصاب، بأحد هذه الأسباب، تخففت عنه أحزانه، وتسهلت عليه أشجانه، فصار وشيك السلوة، قليل الجزع، حسن العزاء. وقال بعض الحكماء: من حاذر لم يهلع، ومن راقب لم يجزع، ومن كان متوقفاً، لم يكن متوجعاً. وقال بعض الشعراء:

مَا يَكُونُ الْأَمْرُ سَهْلًا كُلَّهُ إِنَّمَا الدُّنْيَا سُرُورٌ وَحُزُونٌ
هَوْنُ الْأَمْرِ تَعِشُ فِي رَاحَةٍ قَلَّ مَا هَوْنَتْ إِلَّا سِيهُونٌ
تَطْلُبُ الزَّاحِلَةَ فِي دَارِ الْعَنَاءِ ضَلَّ مَنْ يَطْلُبُ شَيْئًا لَا يَكُونُ

فإن أغفل نفسه عن دواعي السلوة، ومنعها من أسباب الصبر، تضاعف عليه من شدة الأسى، وهم الجزع، ما لا يطيق عليه صبرا، ولا يجد عنه سلوا. وقال ابن الرومي:

إِنِ الْبَلَاءُ يُطَاقُ غَيْرَ مُضَاعَفٍ فَإِذَا تَضَاعَفَ صَارَ غَيْرَ مُطَاقٍ

فإذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه، وأمدّه هلعه بالذرائع الداعية إليه، فقد سعى في حنقه، وأعان على تلفه.

فمن أسباب ذلك: تذكّر المصاب حتى لا يتنساه، وتصوّره حتى لا يعزّب عنه، ولا يجدّ من التذكار سلوة، ولا يخلط مع التصوّر تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدّموع بالتذكّر. وقال الشاعر:

« وَلَا يَبْعَثُ الْأَحْزَانُ مِثْلَ التَّذْكَرِ »

ومنها: الأسف وشدة الحسرة، فلا يرى من مصابه خلفاً، ولا يجد لمفقوده بدلاً، فيزاد بالأسف ولها، وبالْحَسْرَةِ هَلَعًا. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا

فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴿ [الحديد : ٢٣] . وقال بعض الشعراء :

إذا بُليتَ فتقٌ بالله وارَضَ به إن الذي يكشف البَلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرئ حيلةٌ فيما قضى الله
اليأس يقطعُ أحياناً بصاحبه لا تيأسن فإن الصانع الله

ومنها : كثرة الشكوى ، وبث الجزع ، فقد قيل في قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جليلاً ﴾ [المعارج : ٥] إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث . روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « ما صبر من بث » . وحكى كعبُ الأحبار ، أنه مكتوب في التوراة : من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس ، فإنما يشكو ربه . وحكى أن أعرابية دخلت من البادية ، فسمعت صُراخاً في دار ، فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسان . فقالت : ما أراهم إلّا من ربهم يستغيثون ، وبقضائه يتبرّمون ، وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل في منشور الحكم : من ضاق قلبه أتسع لسانه . وأنشد بعض أهل العلم :

لا تُكثر الشكوى إلى الصديق وارجع إلى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعراء :

لا تشكُ دهرَكَ ما صحَحْتَ به إن الغنى هو صحة الجسم
هيك الخليفة كنتَ منتفعاً بغضارة الدنيا مع السقم
ومنها : اليأس من جبر مُصابه ، ودرك طِلابه ، فيقترن بحزن الحادثة قنوط الإياس ، فلا يبقى معها صبر ، ولا يتسع لها صدر . وقد قيل : المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومي :

إصبري أيتها النفس س فإن الصبر أحجى
رُبما خاب رجاء وأتى ما ليس يُرجى

وأنشدني بعض أهل العلم :

أتحسب أن البؤس للحر دائم ولو دام شيء عده الناس في العجب
لقد عرقتك الحادثات ببؤسها وقد أدبت إن كان ينفعلك الأدب

ولو طلب الإنسان من 'صَرَفَ دَهْرِهِ دَوَامَ الذي يَخْشَى لأَعْيَاه ما طَلَبَ ومنها: أن يَغْرِى بملاحظة من حِيطت سلامته، وحُرِست نعمته، حتى التحف بالأمن والدعة، واستمتع بالثروة والسعة، ويرى أنه قد خُصَّ من بينهم بالرزية، بعد أن كان مساوياً، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً، فلا يستطيع صَبْرًا على بَلْوَى، ولا يلزم شكرًا على نُعْمَى، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه من الرزية، وسواه في الحادثة، لتكافأ الأمران، فهان عليه الصبر، وحان منه الفرج. وأنشدت لامرأة من العرب:

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ صَبْرًا	إن بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حُرًّا	لم يكن بالأمس حُرًّا
ملك الصبر فأضحى	مالكًا خيرًا وشرًّا
اشرب الصبر وإن كا	ن من الصبر أمرًا

وأنشدت لبعض أهل الأدب:

يُرَاعُ الْفَتَى لِلخُطْبِ تبدو صدوره	فيأسى وفي عقباه يأتي سروره
ألم ترَ أن الليلَ لما تراكمتْ	دُجَاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبنَ اليأسَ إن كنتَ عالمًا	ليبا فإن الدهر شَتَّى أموره

واعلم أنه قلَّ من صَبَرَ على حادثة، وتماسك في نكبة، إلا كان انكشافها وشيكا، وكان الفرج منه قريبا.

أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حُيس في السجن خمس عشرة سنة، حتى ضاقت حيلته، وقل صبره، فكتب إلى بعض إخوانه، يشكو له طول حبسه، فردَّ عليه جوابَ رقعته بهذا:

صَبْرًا أبا أيوب صَبْرَ مُبْرَحٍ	فإذا عجزتَ عن الخطوب فمن لَهَا؟
إن الذي عقد الذي انعقدت له	عُقْدُ المكاره فيك يَمْلِكُ حَلَّهَا
صَبْرًا فإن الصبر يعقب راحة	ولعلَّهَا أن تنجلي ولعلَّهَا

فأجابه أبو أيوب يقول:

صَبَّرْتَنِي وَوَعِظْتَنِي وَأَنَا لَهَا وَسْتَجَلِي بَلْ لَا أَقْبُولُ لَعَلَّهَا
وَيَحُلُّهَا مِنْ كَانَ صَاحِبَ عَقْدِهَا كَرَمًا بِهِ إِذَا كَانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا
فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّجْنِ إِلَّا أَيَّامًا ، حَتَّى أَطْلُقَ مُكْرَمًا .

وَأَنشَدَ ابْنُ دُرَيْدٍ عَنْ أَبِي حَاتِمٍ :

إِذَا اشْتَمَلْتَ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّنَدُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتِ الْمَكَارَهُ وَاطْمَأْنَنْتِ وَأَرَسْتُ فِي مَكَاتِنِهَا الْخَطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهَهَا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوُثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَوْصُولُ بِهَا الْفَرْجُ الْقَرِيبُ

الفصل الثالث: في المشورة

اعلم أن من الحزم لكل ذي لب، ألا يُبرم أمراً، ولا يُمضي عزمًا، إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه ﷺ، مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال قتادة: أمره بمشاورتهم تألفاً لهم، وتطييباً لأنفسهم. وقال الضحاك: أمره بمشاورتهم، لِمَا علم فيها من الفضل وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون، ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنياً. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «المشورة حصن من الندامة، وأمان من الملامة». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور، فيستدها برأيه؛ ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي؛ ورجل حائر بائر، لا يأتمر رُشداً، ولا يطيع مُرشداً. وقال عمر بن عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معها رأي، ولا يفقد معها حزم. وقال سيف بن ذي يزن: من أعجب برأيه لم يشاور، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً؛ وقال عبد

الجميد : المشاور في رأيه ، ناظر من ورائه . وقيل في منشور الحكم : المشاورة راحة لك ، وثعب على غيرك . وقال بعض الحكماء . الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الأذباء : ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار . وقال بعض البلغاء : من حقّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء ، فالرأي الفذّ ربما زلّ ، والقعل الفرد ربما ضلّ . وقال بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعنْ برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فإن الخوافي قوة للقوادم
فإذا عزم على المشاورة ، ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال :

إحداهنّ : عقل كامل ، مع تجربة سالفة ، فإنه بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : احذر مشاورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً ، فإنه يؤشك أن يورطك بمشاورته ، فيسبق إليك مكرّ العاقل ، وتوريطُ الجاهل .

وقيل لرجل من عبس ما أكثر ضوابطكم ؟ قال : نحن ألف رجل ، وفينا حازم ، ونحن نطيعه ، فكأننا ألف حازم . وكان يقال : إياك ومشاورة رجلين : شابّ معجب بنفسه ، قليل التجارب في غيره ؛ أو كبير قد أخذ عن عقله ، كما أخذ من جسمه . وقيل في منشور الحكم : كل شيء يحتاج إلى العقل ، والعقل يحتاج إلى التجارب ، ولذلك قيل : الأيام تهتك لك عن الأستار الكامنة : وقال بعض الحكماء : التجارب ليست لها غاية ، والعاقل منها في زيادة . وقال بعض الحكماء : من استعان بذوي العقول ، فاز بدرك المأمول . وقال أبو الأسود الدؤلي :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا صاحب فحق له من طاعة بنصيب
والخلاصة الثانية : أن يكون ذا دين وتقى ، فإن ذلك عماد كل صلاح ، وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدّين ، فهو مأمون السريرة ، موفّق العزيمة ، روى عكرمة عن

ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَمْرًا فَشَاوِرْ فِيهِ أَمْرًا مُسْلِمًا ، وَفَقِّهِ إِلَهَ لَأَرْشِدَ أَمُورَهُ » .

والخصلة الثالثة : أن يكون ناصحاً ودوداً ، فإن النصيح والمودة يصدقان الفكرة ، ويُمحضان الرأي . وقد قال بعض الحكماء : لا تشاور إلا الحازم غير الحسود ، واللييب غير الحقود ؛ وإياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى الأفن ، وعزمهن إلى الوهن . وقال بعض الأدباء : مشورة المشفق الحازم ظفر ، ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء :

أَصْفَ ضَمِيرًا لِمَنْ تَعَاشَرُهُ وَاسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تَشَاوَرُهُ
وَأَرْضَ مَنْ الْمَرْءُ فِي مَوَدَّتِهِ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفُ النَّاسَ لَا يَجِدُ أَحَدًا تَنْصَحُ مِنْهُمْ لَهُ سِرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَلَّا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

والخصلة الرابعة : أن يكون سليم الفكر ، من هم قاطع ، وغم شاغل ، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم ، لا يسلم له رأي ، ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل في منصور الحكم كل شيء يحتاج إلى العقل ، والعقل يحتاج إلى التجارب . وكان كسرى إذا دهمته أمر ، بعث إلى مرازبته فاستشارهم ، فإن قصروا في الرأي ، ضرب قهارمته وقال : أبطأتم بأرزاقيهم ، فأخطأوا في آرائهم وقال صالح بن عبد القدوس :

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نَصِيحٍ وَمَقْدُرَةٍ فِي مُشْكَلِ الْأَمْرِ فَاخْتَرِ ذَاكَ مُنْتَصِحًا
والخصلة الخامسة : ألا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ، ولا هوى يساعده ، فإن الأغراض جاذبة ، والهوى صاذ ، والرأي إذا عارضه الهوى ، وجاذبته الأغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْأَيَّامَ مَنْ كَانَ جَاهِلًا وَيُرْدِي الْهَوَىٰ ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَيْبُ
وَيُحْمَدُ فِي الْأَمْرِ الْفَتَىٰ وَهُوَ خَطِيئٌ وَيُعْذَلُ فِي الْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ
فَإِذَا اسْتَكْمَلْتَ هَذِهِ الْخِصَالَ الْخَمْسَ فِي رَجُلٍ ، كَانَ أَهْلًا لِلْمَشُورَةِ ، وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ ، فَلَا تَعْدِلُ عَنْ اسْتِشَارَتِهِ ، اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ ، وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ ، فَإِنْ رَأَيْ غَيْرَ ذِي الْحَاجَةِ أَسْلَمَ ، وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ أَقْرَبَ ،

لخلوص الفكر، وخلق الخاطر، مع عدم الهوى، وارتفاع الشهوة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله، التودد إلى الناس، وما استغنى مستبد برأيه، وما هلك أحد عن مشورة، فإذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال لقمان الحكيم لابنه: شاور من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجّانا. وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك، فشاوره ليكمل لك الرأي. وقال بعض الأدباء: من استغنى برأيه ضلّ، ومن اكتفى بعقله زلّ. وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاسترشاد، أحد من الصواب مع الاستبداد. وقال الشاعر:

خليليّ ليس الرأي في صدر واحدٍ أشيراً عليّ بالذي تـريـانِ
ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه شاور في أمره، ظهر للناس ضعف رأيه، وفساد رويته، حتى افتقر إلى رأي غيره، فإن هذه معاذير النوكى، وليس براد الرأي للمباهاة به، وإنما يراود للانتفاع بنتيجته، والتحرّز من الخطأ عند زلله، وكيف يكون عارا ما أدى إلى صواب، وصدّ عن خطأ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لقّحوا عقولكم بالمذاكرة، واستعينوا على أموركم بالمشاورة» وقال بعض الحكماء: من كمال عقلك، استظهارك على عقلك. وقال بعض البلغاء: إذا أشكلت عليك الأمور، وتغير لك الجمهور، فارجع إلى رأي العقلاء، وافزع إلى استشارة العلماء، ولا تأنف من الاسترشاد، ولا تستنكف من الإستمداً، فلأن تسأل وتسلم، خير لك من أن تستبد وتندم.

وينبغي أن تكثر من استشارة ذوي الألباب، لاسيما في الأمر الجليل، فقلما يضلّ عن الجماعة رأي، أو يذهب عنهم صواب، لأن إرسال الخواطر الثاقبة، وإجالة الأفكار الصادقة، لا يعزّب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في منشور الحكم: من أكثر المشورة، لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً وإن كان الخطأ من الجماعة بعيداً.

فإذا استشار الجماعة، فقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه، وانفرد كل واحد منهم به،

فمذهب الفُرس أن الأوّلَى اجتماعهم على الارتياء، وإجالة الفكر، ليدكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره، وأنتجه فكره، حتى إذا كان فيه قدحٌ عورض، أو توجّه عليه ردّ نوقض، كالجدل الذي تكون فيه المناظرة، وتقع فيه المنازعة والمشاجرة، فإنه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خللٌ إلا ظهر، ولا زللٌ إلا بان.

وذهب غيرهم من أصناف الأمم، إلى أن الأوّلَى استسرار كل واحد بالمشورة، ليجيل كل واحد منهم فكره في الرأي طمعا في الخطوة بالصواب، فإن القرائح إذا انفردت استكدها الفكر، واستفرغها الاجتهاد، وإذا اجتمعت فوّضت، وكان الأول من بدائنها متبوعاً. ولكل واحد من المذهبين وجه، ووجه الثاني أظهر.

والذي أراه في الأوّلَى: غير هذين المذهبين على الإطلاق، ولكن ينظر في الشورى، فإن كانت في حال واحدة: هل هي صواب أم خطأ؟ كان اجتماعهم عليها أولى، لأن ما تردّد بين أمرين، فالمراد منه الاعتراض على فساد، أو ظهور الحجة في صلاحه، وهذا مع الاجتماع أبلغ، وعند المناظرة أوضح. وإن كانت الشورى في خطب قد استبهم صوابه، واستعجم جوابه، من أمور خافية، وأحوال غامضة، لم يحصرها عدد، ولم يجمعها تقسيم، ولا عرف لها جواب يُكشف عن خطئه وصوابه. فالأوّلَى في مثله: انفرد كل واحد بفكره، وخلّوه بخاطره، ليجتهد في الجواب، ثم يقع الكشف عنه، أخطأ هو أم صواب؟ فيكون الاجتهاد في الجواب منفرداً، والكشف عن الصواب مجتمعاً، لأن الانفرد في الاجتهاد أوضح، والاجتماع على المناظرة أبلغ، فهكذا هذا.

وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس، فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه، ثم يعرض المستشار ذلك على نفسه، مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد، فإذا تصفح أقاويل جميعهم، كشف عن أصولها وأسبابها، وبحث عن نتائجها وعواقبها،

حتى لا يكون في الأمر مقلداً، ولا في الرأي ملوّضاً. فإنه يستفيد بذلك، مع ارتياضه بالاجتهاد، ثلاث خصال:

إحداهن: معرفة عقله، وصحة رَوَيْتِهِ. والثانية: معرفة عقل صاحبه، وصواب رأيه. والثالثة: وضوح ما استعجم من الرأي، وافتتاح ما أغلق من الصواب.

فإذا تقرر له الرأي أمضاه، ولا يؤاخذهم بعواقب الإكداء فيه، فإنما على الناصح الاجتهاد، وليس عليه ضمان النجح، لا سيما والمقادير غالبية، ومتى عُرِفَ منه تعقّب المشير، وُكِّلَ إلى رأيه، وأسلم إلى نفسه، صار فرداً لا يُعَانِ برأي، ولا يُمَدِّ بمشورة، وقد قالت الفرس في حكمها: أضعفُ الحيلة، خير من أقوى الشدة، وأقلُ النَّائِي خَيْر من أكثر العَجَلَة، والدَّوْلَة رسول القضاء المبرم وإذا استبدَّ الملك برأيه عميت عليه المراشد. وإذا ظَفِرَ برأي من خامل لا يراه للرأي أهلاً، ولا للمشورة مستوجباً، اغتشمه عفواً، فإن الرأي كالضلالة: تؤخذ أين وُجِدَتْ، ولا يَهُونُ لمهانة صاحبه فيطرح، فإن الدرّة لا يضعها مهانة غائصها، والضلالة لا تُتْرَكُ لِدَلَّةِ واجديها. وليس يُراد الرأي لمكان المشير به، فيراعى قدره، وإنما يُراد لانفتاح المستشير، وأنشد أبو العيْناء عن الأصمعيّ:

النصحُ أرخص ما باع الرجالُ فلا تَرُدُّدٌ على ناصحٍ نصَّحاً ولا تَلَمُّ
إنَّ النصائحَ لا تخفى مناهجها على الرجالِ ذوي الألباب والفهم
ثم لا وجه لمن تقرر له رأي أن يَنِيَّ في إمضائه، فإن الزمان غادر، والفرص منتهزة، والثقة عجز. وقيل للملك زال عنه ملكه: ما الذي سَلَبَكَ مُلْكَكَ؟ قال: تأخيري عملَ اليوم لغدٍ. وقال الشاعر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ عزيمةً ولا تكُ بالتَّردُّدِ للرأي مُفسِداً
فإني رأيت الرِّيثَ في العزمِ هُجْنةً وإنفاذَ ذي الرأي العزيمةَ أرشداً
وينبغي لمن أنزل منزل المستشار، وأحلَّ محلَّ الناصح المَوَادَّ، حتى صار مأمول النجح، مَرَجُو الصواب، أن يؤدِّيَ حقَّ هذه النعمة، بإخلاص السريرة، وكفاي، على

الاسسلام ببذل النصح. فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « إن من حق المسلم على المسلم اذ استنصحه أن بنصحه ». وربما أبطرته المشاورة، فأعجب برأيه، فاحذره في المشاورة. فليس للمعجب رأي صحيح، ولا روية سليمة، وربما شح في الرأي، لعداءه أو حسد. فوری أو مكر، فاحذر العدو، ولا تثق بحسود، ولا عذر لمن أسنشاره عدو أو صديق، أن، يكم رأيا وقد استرشد، ولا أن يخون وقد أوثمن.

رَوَى محمد بن المنكدر عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: « المستشير معان، والمستشار مؤثمن ». وقال سليمان بن يزيد:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحا وعلى أخيك نصيحة لا ترد
ولا سغي أن يشير قبل أن يُستشار، إلا فيما مس، ولا أن يتبرع بالرأي إلا فيما لزم، فإنه لا بنفك من أن يكون رأيا متهما أو مطرحا، وفي أي هذين كان وصمة، وإنما يكون الرأي مقبولا إذا كان عن رغبة وطلب، أو كان لباعث وسبب. رَوَى أبو بلال العجلي، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: « قال لقمان لابنه: يا بني، إذا استشهدت فاشهد، وإذا استعنت فأعن، وإذا استشirt فلا تعجل حتى تنظر ». وقال بيهس الكلابي:

من الناس من إن يستشرك فتجتهد له الرأي يستغشك مالا تتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

الفصل الرابع: في كتمان السر

اعلم أن كتمان الأسرار، من أقوى أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح. رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « استعينوا على الحاجات بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود ». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: سرّك أسيرك، فإن تكلمت به صيرت أسيره. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، كن جوادا بالمال في موضع الحق، ضنينا بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء، الإنفاق في وجه البر، والبخل بمكتوم السر. وقال بعض الأدباء: من كتم سره، كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه. وقال بعض البلغاء: ما أسرك، ما كتمت سرّك! وقال بعض الفصحاء: ما لم تغيبه الأضالع،

فهو مكشوف ضائع . وقال بعض الشعراء ، وهو أنس بن أسيد :

ولا نُفَشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا
فإني رأيت وُشَاةَ الرِّجَالِ لَئِنْ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

وكم من إظهار سرّ أراق دم صاحبه ، ومنع من ينل مطالبه ، ولو كتمه كان من سطوته آمنا ، وفي عواقبه سالما ، ولنجاح حوائجه راجيا .

وقال أنوشروان : مَنْ حَصَّنَ سِرَّهُ ، فَلَهُ بِتَحْصِينِهِ خَصْلَتَانِ : الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات ، وإظهار الرجل سرّ غيره أقبح من إظهار سرّ نفسه ، لأنه يبوء بإحدى وصفتين : الخيانة إن كان مؤتمنا ، أو النيمة إن كان مستودعا . فأما الضرر فربما استويا فيه ، أو تفاضلا وكلاهما مذموم ، وهو فيها ملوم .

وفي الاهترسال بإبداء السر دلائل على ثلاث أحوال مذمومة :

إحداها : ضيق الصدر ، وقلة الصبر ، حتى إنه لم يتسع لسر ، ولم يقدر على صبر .

وقال الشاعر :

إذا المرءُ أَفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ ولامَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَهُوَ أَحَقُّ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ فَصدرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ

والثانية : الغفلة عن تحذّر العقلاء ، والسهو عن يقظة الأذكياء . وقد قال بعض الحكماء : انفر بسرّك ، ولا تُودِعْهُ حازما فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون .

والثالثة : من ارتكبه من الغرّ ، واستعمله من الخطر . وقد قال بعض الحكماء : سرّك من دمك ، فإذا تكلمت به فقد أرقته .

واعلم أن من الأسرار ما لا يُستغنى فيه عن مطالعة صديق مُساهم ، واستشارة ناصح مسالم ، فليختر العاقل لسره أمينا ، إن لم يجد إلى كتمه سبيلا ، وليتحرّر في اختيار من يأتمنه عليه ، ويستودعه إياه ، فليس كل من كان على الأموال أمينا ، وكان على الأسرار مؤتمنا ، والعفة عن الأموال ، أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار ، لأن الإنسان قد يُذيع سر نفسه ، بمبادرة لسانه ، وسقط كلامه ، ويشح باليسير من ماله ، حفظاً له ، وضناً به ، ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا ، في جنب ما حفظه من يسير ماله ، مع

عِظَم الضرر الداخل عليه ؛ فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشد تعذراً ، وأقل وجوداً من أمناء الأموال ، وكان حفظ المال ، أيسر من كتم الأسرار ، لأن أحرار الأموال منيعة ، وأحرار الأسرار بارزة ، يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : القلوب أوعية الأسرار ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ مفاتيح سرّه .

ومن صفات أمين السر : أن يكون ذا عقل صاّد ، ودين حاجز ، ونصح مبذول ، ووّد موفور ، وكتوما بالطبع ؛ فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة ، وتوجب حفظ الأمانة ؛ فمن كملت فيه فهو عتقاء مُغْرَب . وقيل في منشور الحكم : قلوب العقلاء ، حصون الأسرار . وليحذر صاحب السر أن يُودِع سره من يتطلع إليه ، ويؤثر الوقوف عليه ، فإن طالب الوديعة خائن .

وقيل في منشور الحكم : لا تُنكح خاطب سِرِّك .

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا تُبذِغ سراً إلى طالبِهِ منك فالطالبُ للسّرِّ مُذِيعٌ

وليحذر كثرة المستودعين لسره ، فإن كثرتهم سبب الإذاعة ، وطريق إلى الإشاعة ، لأمرين :

أحدهما : أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير مُعْوز ، ولا بدّ إذا كثروا من أن يكون فيهم من أخلّ ببيعها .

والثاني : أن كل واحد منهم يجد سبيلاً إلى نفي الإذاعة عن نفسه ، وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه ذنب ، ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء : كلما كثرت خزان الأسرار ، ازدادت ضياعاً . وقال بعض الشعراء :

وسرّك ما كان عند امرئٍ وسرّ الثلاثة غير الخفي

وقال آخر :

فلا تنطّق بسرّك كلّ سرٍّ إذا ما جاوز الإثنين فاشي

ثم لو سلم من إذاعتهم ، لم يسلم من إدلائهم واستطالتهم ، فإن لمن ظفّر بسرٍّ من قرط

الإدلال، وكثرة الاستطالة، ما إن لم يحجزه عنه عقل، ولم يكفه عنه فضل، كان أشد من ذل الرق، وخضوع العبد. ولذلك قال بعض الحكماء: من أفشى سره، كثر عليه المتأمرون، فإذا اختار، وأرجو أن يوفق للاختيار، واضطُرَّ إلى استيداع سره، وليته كُفِّي الاضطرار، وجب على المستودع له، أداء الأمانة فيه، بالتحفظ والتناسي له، حتى لا يخطر له ببال، ولا يدور له في خلد، ثم يرى ذلك حُرْمَةً يَرْعَاهَا، ولا يدلُّ إدلال اللئام.

وحكي أن رجلاً أسرَّ إلى صديق له حديثاً، ثم قال: أفهمت؟ قال: بل جهلت قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجدد المخبر، وأحلف للمستخير. وقال بعض الشعراء:

ولو قدّرت على نسيان ما اشتملتُ مني الضلوع على الأسرار والخبر
لكنتُ أولَ من ينسى سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خطر
وحكي أن عبد الله بن طاهر، تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر، فقال ابنه:
ومستودعي سرّاً تضمنت سرّه فأودعته من مستقرّ الحشا قبراً
ولكنني أخفيه عني كأنني من الدهر يوماً ما أحطت به خبراً.
وما السرُّ في قلبي كميث بحفرةٍ لأنّي أرى المدفون ينتظر النّشراً^(١)

(١) في هامش الأميرة عند هذا الموضع بقلم المرحوم العلامة الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم ما نصه:
لا يخفى ما في هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك. والرواية الصحيحة ما ذكره الصفدي في
شرح لامية العجم، نقلاً عن صاحب هذا الكتاب، قال ما نصه:

وحكي الماوردي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر، فقال:
ومستودعي سرّاً تضمنت سرّه فأودعته من مستقرّ الحشا قبراً
فقال ابنه وهي صبي:

وما السر في قلبي كشوا بحفرة لأنّي أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكنني أخفيه عني كأنني من الدهر يوماً ما أحطت به خبراً

الفصل الخامس: في المَزاح والضحك

اعلم أن للمُزاح إزاحة عن الحقوق، ومُخَرَّجاً إلى القطيعة والمعقوق، يصيِّم المازح، ويؤذي المُزاح. فوصمة المازح: أن يذهب عنه الهيبة والبهاء، ويُجَرِّىء عليه الغوغاء والسفهاء.

وأما أذية المازح، فلأنه معقوق بقول كَرِهه، وفعل مُمِصٍّ، إن أمسك عنه أحزن قلبه، وإن قابل عليه، جانب أدبه، فحقَّ على العاقل أن يتقيته، ويُنزّه نيسه عن وصمة مساويه.

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «المزاح استدراج من الشيطان، واختداع من الهوى» وقال عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح، فإنه حَمَقَةٌ تُورِثُ ضَعْفَةً. وقال بعض الحكماء: إنما المزاح سَبَابٌ، إلّا أن صاحبه يضحك. وقيل: إنّها سُمِّيَ المزاح مُزَاحاً، لأنه يُزِيحُ عن الحق. وقال إبراهيم النخعي: المزاح من سَخَفٍ أو بَطَرٍ. وقيل في منشور الحكم: المزاح يأكل الهيبة، كما تأكل النار الخطب. وقال بعض الحكماء: من كثّر مُزَاحه، زالت هيئته، ومن كثّر خلافه، طابت غيِّبته. وقال بعض البلغاء: من قلَّ عقله، كثُرَ هَزَلُهُ.

وذكر خالد بن صفوان المزاح. فقال: يَصُكُّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ بِأَشَدِّ مِنَ الْجَنْدَلِ، وَيُنْشِقُّهُ أَحْرَفُ مِنَ الْخُرْدَلِ، وَيَفْرُغُ عَلَيْهِ أَحَرَّ مِنَ الْمَرْجَلِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنْتُ أَمَازِحُكَ. وقال بعض الحكماء: خير المزاح لا ينال، وشرُّه لا يُقَالُ، فنظمه السَّابُورِيُّ في قصيدته الجامعة للأداب، فقال وزاد:

شَرُّ مُزَاحٍ الْمَرْءُ لَا يُقَالُ	وخيِّره يا صاح لا يُنَالُ
وَقَدْ يُقَالُ كَثْرَةُ الْمُزَاحِ	من الفتي تدعو إلى التلاحي
إِنَّ الْمُزَاحَ بِدَوِّهِ حَلَاوَةٌ	لكنما آخره عَدَاوَةٌ
يَجْتَدُّ مِنْهُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ	ويجتري بسُخْفِهِ السَّخِيفُ

وقال أبو نواس:

خَلَّ جَنِييَكَ. لِرَامٍ	وامض عنه بسلام
مُتْ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ	لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ الْـ جَمِّ فَاهُ بِلِجَامٍ
رَبَّمَا اسْتَفْتَحَ بِالْمَزِّ حِ مَغَالِيْقُ الْحِمَامِ
وَالْمَنَايَا أَكَلَاتٍ شَارِبَاتٍ لِلْأَنَامِ

واعلم أنه قلما يعرّي من المزاح من كان سهلاً ، فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين ، لا ثالث لهما .

إحداهما : إيناس المصاحبين ، والتودّد إلى المخالطين ، وهذا يكون بما أنس من جميل القول ، وبسط من مستحسن الفعل . وقد قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ، ويجرّئ عليك السفهاء ، وإن التقصير فيه يفرض عنك المؤانسين ، ويوحش منك المصاحبين .

والحالة الثانية : أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم ، وأحدث به من هم ، فقد قيل : لا بد للمصدور أن ينفض ، وأنشدت لأبي الفتح البستي :

أَفِذْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً تَجِمُّ وَعَلَّهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتهَ الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ

وقد كان النبي ﷺ يمزح على هذا الوجه ، روي عنه ﷺ أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً » ، فمن مزاحه ﷺ ؛ ما روي أن عجوزاً من الأنصار أتته ، فقالت : يا رسول الله ادع لي بالمغفرة . فقال : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز ؟ فصرخت ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ [الواقعة : ٣٥] وأتته أخرى في حاجة لزوجها ، فقال لها : ومن زوجك ؟ فقالت : فلان ، فقال لها : الذي في عينه بياض ، فقالت : لا . فقال : بلى . فانصرفت عجلت إلى زوجها ، وجعلت تتأمل عينيه ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : أخبرني رسول الله ﷺ أن في عينيك بياضاً . فقال : أما ترين بياض عيني أكثر من سوادها ؟

وأتى رجل عليّ بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، فقال : إني احتلمت على أُمِّي ..
نقال : أقيموه في الشمس ، واضربوا ظله الحدّ .

وسئل الشعبي عن أكل لحم الشيطان . فقال : نحن نرضى منه بالكفاف . وقيل له : ما اسم امرأة ابليس لعنه الله ، فقال : ذلك يكاح ما شهدناه . وقال رجل لغلام : بكم تعمل معي ؟ قال : بطعامي . فقال له : أحسن قليلاً ، قال : فأصوم الاثنين والخميس .
 وحكي عن أبي صالح بن حسان - وكان محدثاً - أنه قال يوماً لأصحابه مازحاً :
 أفقه الناس وضاح اليمن في قوله :

إِذَا قُلْتُ هَاتِي نَوْلِي تَبَرَّمْتُ وَقَالَتْ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ فَعَلَ مَا حَرَّمَ
 فَمَا نَوَّلْتُ حَتَّى تَضَرَعْتُ عِنْدَهَا وَأُنْبَأْتُهَا مَا رَخَّصَ اللَّهُ فِي اللَّمَمِ
 فأما الخروج إلى حدّ الخلاعة فهجنة ومذمة ، كالذي حكي عن أبي معاوية
 الضرير - وكان محدثاً - أنه خرج يوماً إلى أصحابه ، وهو يقول :

فَإِذَا الْمَعْدَةُ جَاشَتْ فَارْمِهَا بِالْمِنْجَنِيْقِ
 بِثَلَاثٍ مِنْ تَبِيْذٍ لَيْسَ بِالْحَلْوِ الرَقِيْقِ

أما ترى كيف طرّق بخلاعته التهمة عن نفسه بهذا المزاح ، فيما لعله بريء منه ،
 وبعيد عنه .

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه مسترسلاً في مزاحه وروى ابن قتيبة في
 المعارف ، أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة ، فيركب حاراً قد شدّ عليه برذعة ،
 فيسير ، فيلقى الرجل فيقول : الطريق قد جاء الأمير ، وربما أتى الصبيان وهم يلعبون
 لعبة الأعراب ، فلا يشعرون حتى يلقي نفسه بينهم ، ويضرب برجله ، فيفزع الصبيان
 فينفرون .

وهذا خروج عن القدر المستسمح به ، ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل
 سائق ؛ وقد سكت صهيب بن سنان مزاحاً ، فقال له النبي ﷺ : أتأكل تمرّاً وبك رمّد ؟
 فقال : يا رسول الله ، إنما أمضغ على الناحية الأخرى . وإنما استجاز صهيب أن يعرض
 لرسول الله ﷺ بالمزح في جوابه ، لأن استخباره ﷺ قد كان يتضمن المزح ، فأجابه
 عن استخباره بما يوافقه ، مساعدة لغرضه ، وتقرباً من قلبه ، وإلا فليس لأحد أن يجعل
 جواب رسول الله ﷺ مزحاً ، لأن المزح هزل ، ومن جعل جواب رسول الله ﷺ

المبين عن الله عز وجل أحكامه، المؤدي إلى خلقه أوامره، هزلاً ولا مزحاً، فقد عصى الله ورسوله، وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى، من أن يكون بهذه المنزلة؛ فقد قال ﷺ: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفُرس، وبلال سابق الحبش»:

ومن مستحسن المزح، ومُستسمع الدعابة، ما حكى الزبير بن بكار، عن الكندي، أن القشيري وقف عليه شيخ من الأعراب، فقال: يا أعرابي، ممن أنت؟ فقال: من بني عَقِيل؛ قال: من أي عَقِيل؟ قال: من بني خفاجة. فقال القشيري:

رأيت شيخاً من بني خفاجة

فقال الأعرابي: ما شأنه؟ فقال:

لَهُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ حَاجَةٌ

فقال الأعرابي: ما هي؟ فقال:

كحاجة الديكِ إلى الدَّجَاجَةِ

فاستغرب الأعرابي، وقال: قاتلك الله! ما أعرفك بسرائر القوم.

فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته، ولسانه نزه، وعرضه مصون. وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة. وإن كان مستكره الفحوى، والنزاعة على مثله أولى. وليحذر أن يسترسل في ممازحة عدو، فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساوىء هزلاً وهو مُجَدِّد، ويفسح له في التشفي مزحاً وهو محقّ. وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحتَ عدوك، ظهرت له عيوبك.

وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة، مُذهِل عن الفكر في النوايب الملمة، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وسِم به خطر ولا مقدار. روى أبو إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يُميت القلب، ويذهب بنور الوجه» وروى عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف: ٤٩] أن الصغيرة الضحك، والكبيرة القهقهة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

من كثر ضحكك، قلت هيبتك. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا ضحك العالم ضحكك، مَجَّ من العلم مَجَّة. وقيل في منشور الحكم: ضحكة المؤمن غفلة من قلبه.

والقول في الضحك كالقول في المزاح: إن تجافاه الإنسان نفر عنه، وأوحش منه، وإن ألفه كانت حاله ما وصفناه، فليكن بدل الضحك عند الإيناس تبسماً وبشراً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التبسم دُعاة، وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك، الذي قد يكون استهزاء وتعجباً، وليس يُنكر منه المرة النادرة، لطارىء استغفل النفس عن دفعه. هذا رسول الله ﷺ وهو أملك الخلق لنفسه، وقدم تبسم حتى بدت نواجذه، وإنما كان ذلك منه ﷺ على الوجه الذي ذكرناه.

الفصل السادس: في الطيرة والفال

اعلم أنه ليس شيء أضرّ بالرأي، ولا أفسد للتدبير، من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة، أو نعيب غراب، يردّ قضاء، أو يدفع مقدوراً، فقد جهل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر ».

فالعدوى: ما يظنه الناس من تعدّي العلل والأمراض، فأخبر أنها لا تُعدي، فقل: يا رسول الله، إنا نرى الثَّقبَة من الجرب في مِشْفر البعير، فتتعدّى إلى جميعه. فقال ﷺ: فما أعدى الأول.

وأما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده، من أن القتل إذا طُلّ دمه، فلم يُدرك بثأره صاحته هامتة في القبر: اسقوني. قال الزُّبرقان بن بدر عنها:

يا عمرو إلا تدع شمتي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
وقال إبراهيم بن هرمة:

وكيف وقد صاروا عظاماً وأقبراً يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع إلى ورد الفناء كرامها
وأما الصفر فهو كالحية، يكون في الجوف يصيب الماشية والناس، وهو أعدى

عندهم من الجرب، وفيه يقول الشاعر :

لا يُمَسِّكُ السَّاقِ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا يَعْصُ عَلَى شُرُوفِهِ الصَّقَرُ
وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا ظننتم فلا تحققوا،
وإذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا »، وقال الشاعر :

طيرة الناس لا تردُّ قضاءً فاعذر الدهر لا تشبه بلّوم
أيّ يوم تخصّسه بسعودٍ والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يومٌ إلّا وفيه سُعود ونُحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة، وكانت العرب إذا أرادت سفراً، نفّرت
أوّل طائر تلقاه، فإن طار يمينه، سارت وتيمّنت، وإذا طار يسّره، رجعت وتشاءمت،
فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: « أقرّوا الطير على وكنّاتها ».

وحكى عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس رضي الله عنهما، فمرّ طائر يصيح،
فقال رجل من القوم: خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شرّ، وقال لبيد:

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصي ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد، لا سيما من عارضته المقادير في إرادته:، وصدّه
القضاء، عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا
عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عُذر خيبته، وغفل عن قضاء الله عز وجل
ومشيئته، فإذا تطير أحجم عن الإقدام، ويئس من الظفر، وظن أن القياس فيه
مُطرد، وأن العبرة فيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له
قصد.

فأما من ساعدته المقادير، ووافقه القضاء، فهو قليل الطيرة لإقدامه، ثقة بإقباله،
وتعويلاً على سعادته، فلا يصدّه خوف، ولا يكفه حذر، ولا يؤوب إلا ظافراً، ولا
يعود إلا مُنجحاً، لأن الغنم بالإقدام، والخيبة مع الإحجام، فصارت الطيرة من سيّات
الإدبار، وإطراحها من أمارات الإقبال. فينبغي لمن مُني بها وبلي، أن يصرف عن
نفسه وساوس التوَكّي، وذائع الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في

نقض عزائمه ، ومعارضة خالقه ، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب ، وأن رزق العبد طالب ، وأن الحركة سبب ، فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً ، ولا يدفع مقدوراً ، ولْيَمُضْ في عزائمه ، واثقاً بالله تعالى إن أُعْطِيَ ، وراضياً به إن مُنِع . فقد رَوَى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الإنسان ثلاثة : الطيرة ، والظن ، والحسد ، فمُخْرِجُهُ من الطيرة ألا يرجع ، ومُخْرِجُهُ من الظن ألا يحقق ، ومُخْرِجُهُ من الحسد ألا يبغي » . وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كَفَّارَةُ الطَّيْرِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحَكْمِ : الْحَيَرَةُ فِي تَرْكِ الطَّيْرِ ، وَلِيقُلْ إِنْ عَارَضَهُ فِي الطَّيْرِ رَيْبٌ ، أَوْ خَامَرَهُ فِيهَا وَهَمٌ ، مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ تَطَيَّرَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْخَيْرَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وَقَدْ رَوَى أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا نَزَلْنَا دَارًا وَكَثُرَ فِيهَا عَدَدُنَا ، وَكَثُرَتْ فِيهَا أَمْوَالُنَا ، ثُمَّ تَحَوَّلْنَا مِنْهَا إِلَى أُخْرَى ، فَقُلْتُ فِيهَا أَمْوَالُنَا ، وَقَلَّ فِيهَا عَدَدُنَا . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « ذَرُوهَا وَهِيَ ذَمِيمَةٌ » .

وليس هذا القول منه ﷺ على وجه الطيرة ، ولكن على وجه التبرك بما فارق ، وترك ما استوحش منه ، إلى ما أنس به .

فأما الفأل ففيه تقوية للعزم ، وباعث على الجِدِّ ، ومعونة على الظفر ؛ فقد تفاعل رسول الله ﷺ في غزواته وحروبه . وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ كَلِمَةً فَأَعْجَبَتْهُ ، فَقَالَ : أَخَذْنَا فَأَلَّكَ مِنْ فَيْكِ » .

فينبغي لمن تفاعل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ، ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سيلاً ، فقد قال النبي ﷺ : « إِنْ الْبَلَاءُ مَوْكَلٌ بِالْمَنْطِقِ » . رَوَى أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَكَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : يَا يُوسُفُ ، أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ قُلْتَ : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : ٣٣] ولو قلت : العافية أَحَبُّ إِلَيَّ لَعُوفِيَتْ . وَحُكِيَ أَنَّ الْمُؤَمَّلَ بْنَ أَمِيْلَ الشَّاعِرِ لَمَّا قَالَ يَوْمَ الْحَيَرَةِ :

شَفَّ الْمُؤَمَّلَ يَوْمَ الْحَيَرَةِ النَّظْرُ لَيْسَ الْمُؤَمَّلَ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ بَصَرُ
عَمِي ، فَأَتَاهُ آتٌ فِي مَنْامِهِ ، فَقَالَ لَهُ هَذَا مَا طَلَبْتَ . وَحُكِيَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ بْنَ

عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فمزق المصحف، وأنشأ يقول:

أَتُوْعِدُّ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جبارٌ عَنِيدٌ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبَّ خَرَّقَنِي الْوَلِيدُ
فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ، وصُلِبَ رأسه على قصره، ثم على سور بلده،
نعوذ بالله من البغي ومَصَارِعِهِ، والشيطان ومصايدِهِ، وهو حسْبُنَا وعليه توكلنا.

الفصل السابع: في المروءة

اعلم أن من شواهد الفضل، ودلائل الكرم: المروءة، التي هي حلية النفوس، وزينة
الهِمَمِ؛ فالمروءة، مُراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح
عن قصد، ولا يتوجه إليها ذمٌ باستحقاق. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من عامل
الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت
مُروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته». وقال بعض البلغاء: من شرائط المروءة: أن
يتعقّف عن الحرام، ويتصلّف عن الآثام، وينصِف في الحكم، ويكفّ عن الظلم، ولا
يطمع فيما لا يستحق، ولا يستطيل على من لا يستحق، ولا يُعين قوياً على ضعيف، ولا
يؤثر دَنيّاً على شريف، ولا يُسرُّ ما يعقُبه الوزرُ والإثم، ولا يفعل ما يُقبح الذكر
والاسم. وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة؟ فقال: العقل يأمرك
بالأنفع، والمروءة تأمرُك بالأجل.

ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من جدّ المروءة منطبعة، ولا عن المراعاة
مستغنية، وإنما المراعاة هي المروءة، لا ما انطبعت عليه من فضائل الأخلاق، لأن
غُرور الهوى، ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خلائقها، والأجل
من طرائقها، وإن سلمت منها، وبعيد أن تسلم إلا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعاً،
واستغنى عن تهذيبها تكلفاً وتطبعاً. وقال الشاعر:

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مُحْضٌ يَحْبُثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

ثم لو استكمل الفضل طبعاً، وفي المعوز أن يكون مُستَكَملاً، لكان في المستحسن

من عادات دهره، والموضوع من اصطلاح عصره، من حقوق المروءة وشروطها، ما لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة، ولا يُوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة؛ فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها: هي المروءة، وإذا كانت كذلك، فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها، إلا من تسهّلت عليه المشاق، رغبة في الحمد، وهانت عليه الملأ، حذراً من الذم، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم. وقال أبو تهم الطائي:

والحمدُ شهدٌ لا يُرى مُشارُهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مَنْ نَقِيحِ الْخَنْظَلِ
عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسِيهِ الَّذِي لَمْ يُؤِهِ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْمَحْمَلِ
وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ
وله أيضاً:

وإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: أحدهما: علو الهمة، والثاني: شرف النفس. أما علو الهمة، فلأنه باعث على التقدم، وداع إلى التخصيص، أنفة من خمول الضعة، واستنكاراً لمهانة النقص، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن الله يحبُّ معالي الأمور وأشرفها، ويكره دنيئها وسفاسفها». ورؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: لا تصغرُنْ هممكم، فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صِغَرِ الهِمَم. وقال بعض الحكماء: الهمة راية الجَدِّ. وقال بعض البلغاء: علو الهِمَم، بذر النعم. وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمراً، ظفر به أعظمها مروءة. وقال بعض العلماء: من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء، لم ينل جسيماً.

وأما شرف النفس، فإن به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب، لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة، لأنها عليه غير مطبوعة، وله غير ملائمة، فتصير منه أنفر، ولضده الملائم أثر. وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه! وإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة، وفي الفضائل راغبة، فإذا مازجها صارت طبعاً ملائماً، فتما واستقر؛ فأما من

مُنِي بَعَلُوا الْهَمَّةَ ، وَسَلِبَ شَرَفَ النَّفْسِ ، فَقَدْ صَارَ عُرْضَةً ، لِأَمْرِ أُعْزِزْتَهُ آلَتَهُ ، وَأَفْسَدْتَهُ
جَهَالَتَهُ ، فَصَارَ كَضَرِيرٍ يَرُومُ تَعْلَمُ الْكِتَابَةَ ، وَأَخْرَسَ يَرِيدُ الْخُطْبَةَ ، فَلَا يَزِيدُهُ الْاجْتِهَادُ
إِلَّا عَجْزًا ، وَالطَّلَبُ إِلَّا عَوْرًا ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ » .
وَقَبْلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : مَنْ أَسْوَأُ النَّاسِ حَالًا ؟ قَالَ : مَنْ بَعُدَتْ هِمَّتُهُ ، وَاتَّسَعَتْ أَمْنِيَّتُهُ ،
وَقَصُرَتْ آلَتُهُ ، وَقَلَّتْ مَقْدَرَتُهُ . وَقَالَ أَفْنُونُ التَّغْلِيّ :

وَلَا خَيْرَ فِيمَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَتَقْوَالِهِ لِلشَّيْءِ يَا لَيْتَ ذَالِيَا
لِعَمْرِكَ مَا يَدْرِي أَمْرٌ كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهَ وَاقِيَا

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : تَجَنَّبُوا الْمُنَى ، فَإِنَّهَا تَذْهَبُ بِبَهْجَةٍ مَا خَوَّلْتُمْ ، وَتَسْتَصْغِرُونَ بِهَا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . وَقِيلَ فِي مَثْوَرِ الْحُكْمِ : الْمُنَى مِنْ بَضَائِعِ النَّوْكَى ، فَإِنْ صَادَفَ بَهْمَتَهُ
حُظًّا نَالَ بِهِ أَمَلًا ، كَانَ فِيمَا نَالَ كَالْمَغْتَصَبِ ، وَفِيمَا وَصَلَ إِلَيْهِ كَالْمَتَغَلَّبِ ، إِذْ لَيْسَ فِي
الْحُظُوظِ تَقْدِيرٌ لِحَقٍّ وَلَا تَمْيِيزٌ لِمُسْتَحَقٍّ ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالسَّحَابِ الَّذِي قَدْ تَمَسَّكَ عَنْ مَنَابِتِ
الْأَشْجَارِ ، إِلَى مَغَاوِصِ الْبَحَارِ ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ صَادَفَ مِنْ خَيْثٍ وَطِيبٍ ؛ فَإِنْ صَادَفَ
أَرْضًا طَيِّبَةً نَفَعَ ؛ وَإِنْ صَادَفَ أَرْضًا خَبِيثَةً ضَرَّ ، كَذَلِكَ الْحُظُّ إِنْ صَادَفَ نَفْسًا شَرِيفَةً
نَفَعَ ؛ وَكَانَ نِعْمَةً عَامَةً ؛ وَإِنْ صَادَفَ نَفْسًا دَنِيَّةً ضَرَّ ، وَكَانَ نِقْمَةً طَائِفَةً .

حُكِيَ أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا عَلَى قَوْمٍ بِالْعَذَابِ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ : قَدْ
مَلَكَتْ سِفْلَتُهَا عَلَى عِلِّيَّتِهَا ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، كُنْتُ أَحَبُّ لَهُمْ عَذَابًا عَاجِلًا ، فَأَوْحَى اللَّهُ
تَعَالَى إِلَيْهِ : أَلَيْسَ هَذَا كُلُّ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ الْأَلِيمِ .

فَأَمَّا شَرَفُ النَّفْسِ إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ عُلْوِ الْهَمَّةِ ، فَإِنَّ الْفَصْلَ بِهِ عَاطِلٌ ، وَالْقَدْرُ بِهِ
خَامِلٌ ، وَهُوَ كَالْقُوَّةِ فِي الْجُلْدِ الْكَسِيلِ ، وَالْجَبَانِ الْفَشِيلِ ، تَضَعُ قُوَّتَهُ بِكَسَلِهِ ، وَجَلْدَهُ
بِفَشْلِهِ ؛ وَقَدْ قِيلَ فِي مَثْوَرِ الْحُكْمِ : مَنْ دَامَ كَسَلُهُ ، خَابَ أَمَلُهُ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ :
نَكَحَ الْعِجْزُ التَّوَانِي فَخَرَجَ مِنْهَا النَّدَامَةُ ، وَنَكَحَ الشُّؤْمُ الْكَسَلَ فَخَرَجَ مِنْهَا الْحَرَمَانُ .
وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ حَقَّهَا هَوَانًا بِهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَانَا
فَنَفْسُكَ أَكْرَمُهَا وَإِنْ ضَاقَ مَسْكَنُ عَلَيْكَ لَهَا فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَسْكَنًا
وَإِيَّاكَ وَالسَّكَنَى بِمَنْزِلِ ذِلَّةٍ يُعَدُّ مَسِيئًا فِيهِ مَنْ كَانَ مُحْسِنًا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى، من الهمة مع دناءة النفس؛ لأن من علت همته مع دناءة نفسه، كان متعلّياً إلى طلب ما لا يستحقّه، ومتخطياً إلى التماس ما لا يستوجهه، ومن شرفت نفسه مع صغر همته، فهو تارك لما يستحقّ، ومقتصر عما يجب له، وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب. وقد قيل لبعض الحكماء: ما أصعبُ شيء على الإنسان؟ قال: أن يعرف نفسه، ويكتم الأسرار، فإذا اجتمع الأمران، واقترن بشرف النفس علوّ الهمة، كان الفضل بهما ظاهراً، والأدب بهما وافراً، ومشاقّ الحمد بينهما مُسهّلة، وشروط المروءة بينهما متينة. وقد قال الحصين بن المنذر الرّقاشي:

إن المروءة ليس يدركُها أمرٌ ورث المكارم عن أبٍ فأضاعها
أمرتهُ نفسٌ بالدناءة والخنا ونهته عن سُبُل العلّا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلّة يَبني الكريمُ بها المكارمَ باعها
واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تُحصى، وأخفى من أن تظهر، لأن منها ما يقوم في الوهم حسّاً، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدّساً، ومنها ما يظهر بالفعل، ويخفي بالتغافل، فلذلك أعوز استيفاء شروطها، إلا جُملاً يتنبه الفاضل لها ليقظته، ويستدل العاقل عليها بفطرته، وإن كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها، وإنما نذكر في هذا الفصل، الأشهر من قواعدها وأصولها، والأظهر من شروطها، وحقوقها، محصوراً في تقسيم جامع، وهو ينقسم قسمين:

أحدهما شروط المروءة في نفسه. والثاني شروطها في غيره.

فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه، فيكون بثلاثة أمور:

وهي العفة، والنزاهة، والصيانة.

فأما العفة فنوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم فنوعان: أحدهما: ضبط الفَرْج عن الحرام، والثاني كف اللسان عن الأعراض. فأما ضبط الفرج عن الحرام، فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل، معرّة فاضحة، وهتكة واضحة، ولذلك قال النبي ﷺ: «من وُقِيَ شَرٌّ ذَبَذَبَهُ وَلَقَلَّقه وَقَبَّقَبه فقد وُقِيَ» تريد بذبذبه: الفرج، وبلقَلقه: اللسان، وبقبَّقَبه: البطن. ورُوي عن النبي

ﷺ أنه قال: «أحبّ العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن». وحكي أن معاوية رضي الله عنه سأل عمرا عن المروءة، فقال: تقوى الله تعالى، وصلة الرحم. وسأل المغيرة فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى؛ والخيرفة فيما أحل الله تعالى. وسأل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعمى، والعفو عند القدرة. فقال معاوية: أنت مني حقاً. وقال أنوشروان لابنه هرْمُز مَن الكامل المروءة؟ فقال: مَن حصّن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم، اجتنب المحارم. وقيل: عار الفضيحة يكدر لذتها.

وقد أنشدني بعض أهل الأدب، للحسن بن علي رضي الله عنهما:

الموتُ خيرٌ من ركوبِ العارِ والعارُ خيرٌ من دخولِ النارِ
واللهُ من هذا وهذا جاري

والداعي إلى ذلك شيْتان: أحدهما: إرسال الطرف، والثاني: اتباع الشهوة، وقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يا علي لا تتبّع النظرة النظرة، فإن الأولى لك، والثانية عليك» وفي قوله: لا تتبع النظرة النظرة تأويلان:

أحدهما: لا تتبع نظراً عينيك نظراً قلبك.

والثاني: لا تتبع الأولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي تُوقعها عمداً. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: إياكم والنظرة بعد النظرة، فإنها تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: العيونُ مصابيد الشيطان. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه، استدعى حتفه. وقال بعض الشعراء:

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفَكَ رائداً لقلبك يوماً أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُله أنت قادر عليه ولا من بعضه أنت صابرُ

وأما الشهوة فهي خادعة العقول، وغادرة الأبواب، ومُحَسِّنة القبائح، ومُسَوِّلة الفضائح، وليس عطباً إلاّ وهي له سبب وعليه ألب، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أربع مَنْ كُنَّ فيه وجبت له الجنة، وحُفِظَ من الشيطان: مَنْ ملك نفسه حين

يرغب، وحين يرهب وحين يشتهي، وحين يغضب».

وقهرها عن هذه الأحوال، يكون بثلاثة أمور:

أحدها: غرض الطَّرف عن إثارتها، وكفه عن مساعدتها، فإنه الرائد المحرك، والقائد المَهْلِك. رَوَى سعيد بن سنان، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، أنه قال: «تَقَبَّلُوا إِلَيَّ بَسْتِ أَتَقْبَلُ إِلَيْكُمْ بِالْجَنَّةِ، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: إذا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ، وإذا وَعَدَ فَلَا يَخْلِفُ، وإذا أَوْثَمِنَ فَلَا يَخُونُ، غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم».

والثاني: ترغيبها في الحلال عوضاً، وإقناعها بالمباح بدلاً، فإن الله ما حرَّم شيئاً إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه، لما علمه من نوازع الشهوة، وتركيب الفطرة، ليكون ذلك عوناً على طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أمرَ الله تعالى بشيء، إلا وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلا وأغنى عنه.

والثالث: إشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره، واتباعه في زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته، وتحذيرها ما حذر من معصيته، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزب عنه قِطْمِير، وأنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء، وبذلك نزلت كتبه، وبلَّغت رسله. روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وآخر ما نزل من التوراة: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وآخر ما نزل من الإنجيل: «شرُّ الناس من لا يبالي أن يراه الناس مُسيئاً». وآخر ما نزل من الزبور: «من يزرع خيراً يحصد زرعه غبطة». فإذا أشعرها ما وصفت، انقادت إلى الكف، وأذعنت بالاتقاء، فسلم دينه، وظهرت مُروءته، فهذا شرط.

وأما كف اللسان عن الأعراض، فلأن عدمه ملاذ السفهاء، وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكُلف. وإذا لم يقهر نفسه عنه بزادع كافٍ وزاجر صاّد تلبّط بمعاره ومحبّط بمضاره. وظن أنه لتجافي الناس عنه حمى يتقى، ورتبة تُرتقى: فهلك وأهلك. فلذلك قال النبي ﷺ: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم»، فجمع بين الدم والعرض لما فيه من إيغار الصدور. وإبداء الشرور. وإظهار البداء. واكتساب

الأعداء ، ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لموموق ، ولا مروءة للمحوظ ، ثم هو بها موزور ، ولأجلها مهجور مزجور . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « شرّ الناس من أكرمه الناس آتقاء لسانه » . وقال بعض الحكماء : إنما هلك الناس بفضول الكلام ، وفضول المال .

وما قدّح في الأعراض من الكلام نوعان ، أحدهما : ما قدح في عرض صاحبه ، ولم يتجاوز إلى غيره ، وذلك شيئان : الكذب ، وفحش القول والثاني : ما تجاوزه إلى غيره ، وذلك أربعة أشياء : الغيبة ، والنميمة ، والسّعاية ، والسّب ، بقذف أو شتم ؛ وربما كان النسب أنكاهها للقلوب ، وأبلغها أثرا في النفوس ؛ ولذلك زجر الله عنه بالحدّ تغليظاً ، وبالتفسيق تشديداً وتصعيباً ؛ وقد يكون ذلك لأحد شيئين : إما انتقام يصدر عن سفه ، أو بذاء يحدث عن لؤم . وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « المؤمن غير كريم ، والفاجر خيبٌ لئيم » . وقال ابن المقفع : الاستطالة لسان الجهالة ، وكف النفس عن هذه الحال بما يصدّها من الزواجر أسلم ، وهو بذى المروءة أجل ؛ فهذا شرط .

وأما العفة عن المآثم فنوعان :

أحدهما : الكف عن المجاهرة بالظلم ، والثاني : زجر النفس عن الإساءة بخيانة .

فأما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك ، وطغيان متلف ، وهو يؤول إن استمرّ إلى فتنة أو جلاء ، فأما الفتنة في الأغلب فتحيط بصاحبها ، وتنعكس على البادئ بها ، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروع ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولا يحقّ المكر السيئ إلا بأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] . ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال : « الفتنة نائمة ، فمن أيقظها صار طعاماً لها » . وقال جعفر بن محمد : الفتنة حصّاد للظالمين . وقال بعض الحكماء : صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً ، وأسوأ شيء عملاً . وقال بعض الشعراء :

وكنّت كعنز السوء قامت لحتفها إلى مديّة تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء : فقد يكون من قوة الظالم ، وتطاول مدته ، فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء ، كالنار إذا وقعت في يابس الشجر ، فلا تبقى معها مع تمكّنها شيئاً ، حتى إذا أفتت ما وجدت ، اضمحلت وخذت ، فكذا حال الظالم : مهلك ثم هالك . والباعث

على ذلك شيان: الجراءة والقسوة، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا الفضل والمعروف عند الرِّحَاء من أمتي، تعيشوا في أكنافهم» والصادق عن ذلك: أن يَرَى آثار الله تعالى في الظالمين، فإن له فيهم عيبراً، ويتصوّر عواقب ظلمهم، فإن فيها مُزْدَجراً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أصبح ولم يَتَوَظَّلْ أحد، غَفَرَ الله له ما اجترم». وَرَوَى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ، اتق دعوة المظلوم، فإنه إنما يسأل الله حقه، وإن الله لا يمنع ذا حقّ حقه». وقيل في مشور الحكم: ويل للظالم من يوم المظالم. وقال بعض البلغاء: من جار حكمه، أهلكه ظلمه. وقال بعض الشعراء:

وما مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلَىٰ بَظَالِمٍ

وأما الإسرار بالخيانة فضعة، لأنه يبذل الخيانة مهين، ولقلة الثقة به مستكين. وقيل في مشور الحكم: من يَخُنْ يَهْنُ. وقال خالد الرَّبْعِيّ: قرأت في بعض الكتب السالفة: أن مِمَّا تُعَجِّلُ عقوبته ولا تُؤَخِّرُ، الأمانة تُخَانُ، والإحسان يُكْفَرُ، والرحم تُقَطَّعُ، والبغي عَلَى الناس؛ ولو لم يكن من ذم الخيانة إلا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة، لكفاه زاجراً، ولو تصوّر عُقْبَى أمانته، وَجَدَتْهُ ثِقته، لعلم أن ذلك من أرباح بضائع جاهه، وأقوى شفعاء تقدّمه، مع ما يجده في نفسه من العزّ، ويقابل عليه من الإعظام. وقد رَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «أَدِّ الأمانة إلى مَنْ ائتمنك. ولا تَخُنْ مَنْ خانك» وَرَوَى سعيد بن جبّير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] يعنون أن أموال العرب حلال لهم، لأنهم من غير أهل الكتاب. قال رسول الله ﷺ: «كذب أعداء الله؟ ما مِنْ شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ، إلّا الأمانة، فإنها مُؤَدَاة إلى البرّ والفاجر». ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً، ولا ما يُبْديه من العِفة غُروراً، فينهتك الزور، وينكشف الغرور، فيكون مع هَتَكه للتدليس أقبح، ولعمرة الرياء أفضح. وقد رَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تَزَالُ أمتي بخير ما لم تر الأمانة مَغْنًا، والصدقة مَغْرَمًا» وقال بعض الحكماء: من التمس أربعاً بأربع، التمس ما لا

يكون: مَنْ التمس الجزاءَ بالرياء، التمس ما لا يكون، ومن التمس مودة الناس بالغلظة، التمس ما لا يكون؛ ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء، التمس ما لا يكون؛ ومن التمس العلم براحة الجسد، التمس ما لا يكون.

والداعي إلى الخيانة شيثان: المهانة، وقلة الأمانة، فإذا حسمها عن نفسه بما وصفت، ظهرت مروءته. فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة.

وأما النزاهة فنوعان: أحدهما: النزاهة عن المطامع الدنية. والثاني: النزاهة عن مواقف الرِّيبة. فأما المطامع الدنية، فلأن الطمع ذل، والدناءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طمع. وقال بعض الشعراء:

لا تَخْضَعَنَّ لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين
واستَرْزِقِ الله مما في خَزَائِنِهِ فإنما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيثان: الشره، وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً، لأجل شرهه، ولا يستنكف مما مُنِعَ وإن كان حقيراً، لقلة أنفته. وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدراً، ويرى المال أعظم خطراً، فيرى بذل أهون الأمرين لأجلها مَغْماً، وليس لمن كان المال عنده أجلاً، ونفسه عليه أقل، إصغاء لتأنيب، ولا قبول لتأديب. وروى أن رجلاً قال يارسول الله أوصني. قال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع، فإنه فقر حاضر. وإذا صَلَّيت صلاة فصل صلاة مُودَّع، وإياك وما يُعْتَذَرُ منه» وقال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا مُنَاهُ وهَمُّهُ سَبَّهُ الْمَنَى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيثان: اليأس، والقناعة. وقد رَوَى هُبَيدُ الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي: أَنْ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ إِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُدْرِكُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ». فهذا شرط.

وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلي حمد وذم، والوقوف بين حالتي سلامة وسقم، فتوجه إليه لائمة المتوهمين، ويناله ذلة المريبين، وكفى بصاحبها موقفاً، إن صح افتضح، وإن لم يصح امتنن. وقد قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وسئل محمد بن علي عن المروءة؟ فقال: ألا تعمل في السرّ عملاً تستحي منه في العلانية. وقال حسان بن أبي سنان: ما وجدت شيئاً هو أهون من الورع. قيل له: وكيف؟ قال: إذا ارتبّت بشيء تركته.

والداعي إلى هذه الحال شيان: الاسترسال، وحسن الظن. والمانع منها شيان: الحياء والحذر. وربما انتفت الريبة بحسن الثقة، وارتفعت التهمة بطول الخبرة. وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام: أنه رآه بعض الخواريث، وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور، فقال: يا روح الله ما تصنع هنا؟ فقال الطبيب إنما يداوي المرضى. ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقاً إلى الاسترسال، وليكن الحذر عليه أغلب، وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب، فما كل ريبة ينفىها حسن الثقة. هذا رسول الله ﷺ، وهو أبعد خلق الله من الرّيب، وأصونهم من التّهم، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها، وكان معتكفاً، فمرّ به رجلان من الأنصار، فلما رأياه أسرع، فقال لهما: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله! أوفيك شكّ يا رسول الله؟ فقال مه: إن الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه، فخشيت أن يقذف في قلبكما سوءاً. فكيف من تخالجت فيه الشكوك، وتقابلت فيه الضنون؟ فهل يعزى في مواقف الريب من قاذح محقق، ولائم مصدق. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا لم يشق المرء إلا بما عمل، فقد سعد». وإذا استعمل الحزم، وغلب الحذر، وترك مواقف الرّيب، ومظان التهم، ولم يقف موقف الاعتذار، ولا عذر لمختار، لم يختلج في نزاهته شك، ولم يقدح في عرضه إفك. وقد قال الشاعر:

أصونك أن أدلّ عليك ظناً لأن الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون، مؤنة المتوقف، أيسر من تكلف المتعسف. وقال بعض الحكماء: من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع.

وأنشدني بعض أهل الأدب، لأبي بكر الصولي رحمه الله، قوله:

أَحْسَنْتُ ظَنِي بِأَهْلِ دَهْرِي فَحَسَنُ ظَنِّي بِهِمْ دَهْأِي
لَا آمَنُ النَّاسَ بَعْدَ هَذَا مَا الْخَوْفُ إِلَّا مِنَ الْأَمَانِ
فهذا شرط استوفينا فيه نَوْعِي النزاهة.

وأما الصيانة، وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان. أحدهما: صيانة النفس بالتماس كفايتها، وتقديم مادتها، والثاني: صيانتها عن تحمّل المَن، والاسترسال في الاستعانة، فأما التماس الكفاية، وتقديم المادة، فلأن المحتاج إلى الناس كلّ مهتَضَم، وذليل مستثقل، وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمده، ليقم أودّ نفسه، ويدفع ضرورة وقته، ولذلك قالت العرب في أمثالها: كَلْبٌ جَوَّالٌ خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ. وما يستمده نوعان: لازم ونَدْب. فأما اللازم فما قام بالكفاية، وأفضى إلى سدّ الخلة؛ وعليه في طلبه ثلاثة شروط:

أحدها: استطابته من الوجوه المباحة، وتوقى المحظورة، فإن المواد المحرّمة مستخبّطة الأصول، محوقة المحصول، إن صَرَفَهَا فِي بَرٍّ لَمْ يُؤْجَرْ، وإن صَرَفَهَا فِي مَدْحٍ لَمْ يُشْكَرْ، ثم هو لأوزارها محتقِب، وعليها معاقب. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَعْجَبُكَ رَجُلٌ كَسَبَ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَإِنْ أَنْفَقَهُ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ أَمْسَكَهُ فَهُوَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ». وقال بعض الحكماء: شر المال ما لزمك إثم مكسبه، وحُرِمَتْ أَجْرَ انْفَاقِهِ.

ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مسكين، فقال: انظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم. وقال عليّ بن الجهم:

سَرٌّ مَنْ عَاشَ مَالُهُ فَإِذَا حَا سَبَّحَهُ اللَّهُ سَرَّةَ الْإِعْدَامِ

والثاني: طلبه من أحسن جهاته، التي لا يلحقه فيها غَضٌّ، ولا يتدنّس له بها عَرَضٌ؛ فإن المال يراد لصيانة الأعراض، لا لابتنالها، ولعز النفوس، لا لإذلالها. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا حبذا المالُ أصونُ به عرضي، وأرضي به ربي.

وقال أبو بشر الضرير:

كَفَى حَزْناً أَنْتَنِي أَرْوْحُ وَأَغْتَدِي وَمَالِي مِنْ مَالٍ أَصُونُ بِهِ عِرْضِي
وَأَكْثَرَ مَا أَلْقَى الصَّدِيقَ بِمَرْحَبَاً وَذَلِكَ لَا يَكْفِي الصَّدِيقَ وَلَا يُرْضِي
وسئل ابن عائشة عن قول النبي ﷺ : « اطلبوا الخواج من حسان الوجوه » ، فقال :
معناه من أحسن الوجوه التي تحلّ.

والثالث : أن يتأتى في تقدير مادته ، وتدبير كفايته ، بما لا يلحقه خلل ، ولا يناله
زلل ، فإن يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعاً ، وأحسن موقعاً ، من
كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير ، وإصابة التدبير أجدى نفعاً ، وأحسن موقعاً ،
من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير ، كالبذر في الأرض ، إذا روعي يسيره زكا ،
وإن أهمل كثيره اضمحلّ وقال محمد بن علي رضي الله عنه : الكمال في ثلاثة : العفة في
الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير في المعيشة . وقيل لبعض الحكماء : فلان
غني ، فقال : لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره في ماله .

فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية ، فقد أدى حق المروءة في
نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء
لابنه : يا بني ، لا تكن على أحد كلاً ، فإنك تزداد ذُلّاً ، واضرب في الأرض عوداً
وبدءاً ، ولا تأسف لما كان فذهب ، ولا تعجز عن الطلب لو صَبَّ ولا نصَّب ، فهذا
حال اللازم . وقد كان ذوو الهمم العلية ، والنفوس الأبية ، يرون ما وصل إلى الإنسان
كسباً ، أفضل مما وصل إليه إراثاً ، لأنه في الإرث في جدوى غيره ، وبالكسب مُجْدٍ
إلى غيره ، وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر . وقال كشاجم :

لَا أَسْتَلِذُّ الْعَيْشَ لَمْ أَدَأْبْ لَهُ طَلَبَا وَسَعِيَا فِي الْهَوَاجِرِ وَالْفَلَسِ
وَأَرَى حَرَامًا أَنْ يُوَاتِنِي الْغِنَى حَتَّى يَحَاوِلَ بِالْعَنَاءِ وَيُلْتَصِّسَ
فَاصْرِفْ نَوَالِكَ عَنْ أَخِيكَ مُوقَّراً فَالِلِثِّ لَيْسَ يُسَيِّغُ إِلَّا مَا افْتَرَسَ

وأما الندب فهو : ما فضل عن الكفاية ، وزاد على قدر الحاجة ، فإن الأمر فيه معتبر
بجال طالبه ، فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء ، وتقاصر عن مطاولة النظراء ،
وانقبض عن منافسة الأكفاء ، فحسبه ما كفاه ، فليس في الزيادة إلا شره ، ولا في
الفضول إلا نهم ، وكلاهما مذموم . وقد قال النبي ﷺ : « خيرُ الرزق ما يكفي ، وخيرُ

الذكر الخفي» .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الدنيا كلٌّ على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود : المستغني عن الدنيا بالدنيا ، كمطفىء النار بالتبن . وقال بعض الحكماء : اشتر ماء وجهك بالقناعة ، وتسَلَّ عن الدنيا بتجافئها عن الكرام . فإن كان ممن مُنيّ بعلوِّ الهمم ، وتحركت فيه أريحية الكرم ، وآثر أن يكون رأساً مقدماً ، وأن يُرى في النفوس مُعظِّماً ومفحِّحاً ، فالكفاية لا تُقَلِّه حتى يكون ماله فاضلاً ، ونائله فائضاً ، فقد قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : طعام مأكول ، ونائل مَبذول ، ويشر مقبول . وقد قال الأحنف بن قيس :

فلو مُدَّ سَرُوي بمال كثيرٍ لَجَدْتُ وَكنتُ له باذلاً
فإن المروءة لا تستطاعُ إذا لم يكن مألهاً فاضلاً

وأما صيانتها عن تحمل المِنن ، والاسترسال في الاستعانة ، فلأن المنة استرقاق الأحرار ، تُحدث ذلة في الممنون عليه ، وسطوة في المانِّ ، والاسترسال في الاستعانة تثقيل ، ومن ثَقُل على الناس هان ، ولا قدر عندهم لمهان .

وقال رجل لعمر رضي الله عنه : خدَمك بنوك ، فقال : أغناني الله عنهم . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن ، في وصيته : يا بني ، إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرّاً ، فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره ، وإن كان كلٌّ منه كثيراً . وقال زياد لبعض الدهاقين : ما المروءة فيكم ؟ قال : اجتناب الرِّيب ، فإنه لا ينبل مُريب ، وإصلاح الرجل ماله ، فإنه من مُروءته ، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله ، فإنه لا ينبل مَنْ احتاج إلى أهله ، ولا من احتاج أهله إلى غيره . وأنشد ثعلب :

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصديق لِقَاؤُهُ وَأَخُو الحوائج وَجْهُهُ مَمْلُولُ
وَأَخوكَ مَنْ وَقَرَّتْ مَا فِي كَيْسِهِ فَإِذَا عَيْشَتْ بِهِ فَأَنْتَ ثَقِيلُ

وإن كان الناس لُحمة لا يستغنون عن التعاون ، ولا يستقلون عن المساعد والمُظافر ، فإنما ذلك تعاون ائتلاف ، يتكفأون فيه ولا يتفاضلون ، وربما كان المستعين فيه مفضلاً ، والمُعِين مستفضلاً ، كاستعانة السلطان بجنده ، والمزارع بأكرته ، فليس من

هذا بدء، ولا لأحد عنه غنى، وإنما الذي يتصوّن عنه الكرام، تعاونُ التفضيل، فينتبضون عن أن يستعينوا، لئلا يكون عليهم يد، ويسارعون أن يُعينوا، لأن يكون لهم يد؛ ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال، فقد أوهَى مروهته، واستبذل صيانتَه، ومن دعاه الاضطرار لنائب الّتم، أو حادث هَجَم إلا الاستعانة بمن بنفسه به من خِناق كَرَبه، ويتخلّص به من وثاق نوائبه، فلا لوم على مضطرّ، فإن أغنته الاستعانة بالجاه، عن الاستعانة بالمال، فلا عُذر له في التعرّض للمال، ويعدِل إلى وُلاة الأمور، فإن الحوائج عندهم أنجح، وهي عليهم أسهل، وهم لذلك مندوبون، فهم لا يجدون لهم مساوياً، وليصبرنَّ على إبطائهم، فإن تراكم الأمور عليهم يشغلهم، إلا عن الملح الصّبور، ولذلك قيل: قدّم لحاجتك بعض لجأجتك. وقال أبو سارة سحيم بن الأعرف:

نَعْدُ قَرَابَةً وَنَعُدُّ صِهْرًا وَيُسَعِدُ بِالْقَرَابَةِ مَنْ رَعَاهَا
وما زُرناكَ من عَدَمٍ ولكن يَهْشُ إِلَى الْإِمَارَةِ مَنْ رَجَاهَا
وَأَيًّا مَا فَعَلْتَ فَإِنْ نَفْسِي تَعُدُّ صِلَاحَ نَفْسِكَ مِنْ غِنَاهَا

إن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه، كان له مع الضرورة فسحة، لكن إن وجده قرضاً مردوداً، لم يأخذه صلة وجوداً، فإن القرض مستمخ بآية المروءات. هذا رسول الله ﷺ، مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه، قد أقرض، ثم قضى فأحسن. وقال ﷺ: «من أعياه رزق الله تعالى حلالاً، فليستدين على الله وعلى رسوله». وقال ﷺ: «المستدين تاجر الله في أرضه». وقال البحري:

إِنْ لَمْ يَكُنْ كَثْرُ فُكُلٍ عَطِيَّةٍ يَبْلُغُ بِهَا بَاغِي الرِّضَا بَعْضَ الرِّضَا
أَوْ لَمْ يَكُنْ هَبَةٌ فَقَرْضٌ يُسَّرَتْ أَسْبَابُهُ، وَكُوَاهِبُ مَنْ أَقْرَضَا

ولئن كان الدّين رِقاً، فهو أسهل من رِق الإفضال. وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: من أراد البقاء ولا بقاء، فليباكر الغداء، وليخفف الرداء. قيل: وما خفة الرداء من البقاء؟ قال: قلة الدّين. فإن أعوزه ذلك إلا استسباحاً، فهو الرّق المذلّ، ولذلك قيل، لا مُروءة لِمُقِلّ. وقال بعض الحكماء: من قَبِلَ صِلَتَكَ فَقَدْ بَاعَكَ مُرُوءَتَهُ، وأذلّ لقدرك عِزّه وجلالته.

والذي يتأسك به الباقي من مروة الراغبين، واليسير التافه من صيانة السائلين، وإن لم يبق لذي رغبة مروة، ولا لسائل تصون: أربعة أمور، هي جهد المضطر: أحدها: أن يتجافى ضرع السائلين، وأنبهة المستقلين، فيذل بالضرع، ويحرم بالأبهة، وليكن من التجميل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات. وقد قيل لبعض الحكماء: متى يفحش زوال النعم؟ قال: إذا زال معها التجميل.

وأشدد بعض أهل الأدب لعل بني الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجوز وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التجميل

والثاني: أن يقتصر في السؤال على ما دعت إليه الضرورة، وقادته إليه الحاجة، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام، فيحرم باغتنامه، ولا يعذر في ضرورته، وقد قال بعض الحكماء: من ألف المسألة ألفه المنع.

والثالث: أن يعذر في المنع، ويشكر على الإجابة، فإنه إن منع فعملاً لا يملك، وإن أجيب فإلى ما لا يستحق. فقد قال النمر بن تَوَلَّب:

لا تغضبني على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب
والرابع: أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلاً، وكان النجاح عنده مأمولاً، فإن ذوي المكنة كثير، والمعين منهم قليل. ولذلك قال النبي ﷺ: «الخير كثير، وقليل فاعله».

والمرجو للإجابة من تكاملت فيه خصالها، وهي ثلاث:

إحداهن: كرم الطبع، فإن الكريم مساعد، واللئيم معاند. وقد قيل: المخذول من كانت له إلى اللئيم حاجة.

والثانية: سلامة الصدر، فإن العدو ألب على نكبتك، وحرب في نائبتك. وقد قيل: من أوغرت صدره، استدعيت شره، فإن رقت لك بكرم طبعه، ورحك بحسن ظفّره، فأعظم بها محنة: أن يصير عدوك لك راحم! وقد قال الشاعر:

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِينَا

والثالث: ظهور المُكْنَةِ، فإن من سأل ما لا يمكن فقد أحوال، وكان كمستنهض المسجون، ومستسيعف المديون، وكان بالردّ خليقاً، وبالحرمان حقيقاً. وقد قال عليّ كرم الله وجهه: (من لا يعرف «لا» حتى يقال له «لا»، فهو أحمق) ووصّى عبد الله ابن الأهمم ابنه فقال: يا بني لا تطلب الحوائج من غير أهلها، ولا تطلبها في غير حينها، ولا تطلب ما لست له مستحقاً فإنك إن فعلت ذلك كنت حقيقاً بالحرمان. وقال الشاعر:

وَلَا تَسْأَلَنَّ أَمْرًا حَاجَةً يَحَاوِلُ مِنْ رَبِّهَا مِثْلَهَا
فَيَتْرُكَ مَا كُنْتَ حَمَلْتَهُ وَيَبْذَا بِحَاجَتِهِ قَبْلَهَا

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه.

وأما شروط المروءة في غيره فثلاثة: المؤازرة، والمياسرة، والإفضال: أما المؤازرة فنوعان: أحدهما: الإسعاف بالجاه. والثاني: الإسعاف في النوائب. فأما الإسعاف بالجاه، فقد يكون من الأعلى قدراً، والأنفذ أمراً، وهو أرخص المكارم يمناً، وألطف الصنائع مَوْقِعاً، وربما كان أعظم من المال نفعا، وهو الظلّ الذي يلجأ إليه المضطرون. والحمى الذي يأوي إليه الخائفون، فإن أوطاه^(١) اتسع بكثرة الأنصار والشيخ، وإن قبضه^(٢) انقطع بنفور العاشية والتّبع، فهو بالبذل ينمي ويزيد، وبالكف ينقص ويبيد، فلا عذر لمن منح جاهاً أن ببخل به، فبكون أسوأ حالاً من البخيل بماله، الذي قد يُعِدُّه لنوائبه، ويستبقه للذته، ويكنّزه لذريّته. وبضدّ ذلك من بخل بجاهه، لأنه قد أضاعه بالسخ، وبدّده بالبخل، وحرّم نفسه غنيمةً مُكْنَتِهِ، وفرصة قدرته، فلم يعقبه إلا ندماً على فائت، وأسفاً على ضائع، ومقتاً يستحكم في النفوس، وذمّاً قد ينتشر في الناس، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله، وأحب خلق الله تعالى إليه، أحسنهم صنيعاً إلى عياله». وقال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمدُه عند زواله، وأحسن والدّولة لك، يُحسن لك والدّولة عليك؛ واجعل

(١) أوطاه: مهده وسهله. (٢) قبضه: طبقه وأمسكه.

زمان رخائك ، عُدَّة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء : من علامة الإقبال ، اصطناع الرجال . وقال بعض الأدباء : بذل الجاه أحد الحباءين . وقال ابن الأعرابي : العرب تقول : مَنْ أَمَلَ شيئاً هابه ، ومن جهل شيئاً عابه . وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس ، وشكر النعمة ، وضده من ضده ، وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلاً مشكوراً ، وإنما هو بائع جاهه ، ومعاوضٌ على نعم الله تعالى وآلائه ، فكان بالذم أحق .

وأنشد بعض الأدباء لعلِّي بن عباس الرومي ، رحمه الله :

لا تَبْذُلِ العُرْفَ حِينَ تَبْذُلُهُ كمشتري الحمد أو كمعتاضه
بل تَفْعَلِ العُرْفَ حِينَ تَفْعَلُهُ لجوهر العُرف لا لأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق ، يستكثر بها الشكر ، ويستمد بها المزيد من الأجر :

أحدها : أن يستسهل المعونة مسروراً ، ولا يستثقلها كارهاً ، فيكون بنعم الله تعالى متبرِّماً ، وإحسانه متسخّطاً ، فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تعالى عليه ، عَظُمَتْ مُؤْنَةُ النَّاسِ عليه » . فمن لم يحتمل تلك المؤنة ، عَرَّضَ تلك النعمة للزوال .

والثاني : بجانب الإستطالة ، وترك الامتنان ، فإنها من لؤم الطبع ، وضيق الصدر ، وفيها هدم الصنيع وإحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليوناني : مَنْ أَضِيقُ النَّاسَ طريقاً ، وأقلهم صديقاً ؟ قال : من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

والثالث : ألا يقرن بمشكور سعيه تقريعاً بذنب ، ولا توبيخاً على هفوة ، فلا يفي مَضَضُ التوبيخ ، بإدراك النَّجَحِ ، ويصير الشكر وَجْداً ، والحمد عيباً ، ولذلك قال النبي ﷺ : « أَقْبِلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ » . وقال النابغة الجعدي :

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا قليلٌ إذا ما الشيءُ وَلَّى فَادْبَرَا

وأما الإسعاف في النوائب ، فلأن الأيام غادرة ، والنوازل عائرة ، والحوادث عارضة ، والنوائب راکضة ؛ فلا يَعْذِرُ فيها إلا علم ، ولا يستنقذه منها إلا سليم . وقد قال عدِّي بن حاتم :

كفى زاجراً للمرء أيام دهره تروح له بالواعتات وتغتدي
 فإذا وجدَ الكريم مصاباً بجوادث دهره، حثه الكرم، وشكر النعم، على الإسعاف
 فيها بما استطاع سبيلاً إليه، ووجدَ قدرة عليه. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير
 من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله». وقيل لبعض الحكماء: هل شيء خير من
 الذهب والفضة؟ قال: مُعطيها.

والإسعاف في النوائب نوعان: واجب، وتبرع. فأما الواجب فما اختص بثلاثة
 أصناف وهم: الأهل، والإخوان، والجيران.
 أما الأهل فلمهاسة الرحم، وتعاطف النسب، وقد قيل: لم يسد من احتاج أهله إلى
 غيره. وقال حسان بن ثابت:

وإن امرأ نال المني لم ينل به قريباً ولا ذا حاجة لزهيذ
 وإن امرأ عاكى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغنى لحسود

وأما الإخوان فلمستحكم الوُدِّ، ومتأكد العهد وسئل الأحنف بن قيس عن
 المروءة فقال: صدق اللسان، ومواساة الإخوان، وذكر الله تعالى في كل مكان. وقال
 بعض حكماء الفرس: صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة، ونفسه عند النكبة،
 ويحفظك عند المغيب. ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان، فسأل عنهما،
 فقيل: هما صديقان، فقال: ما بال أحدهما فقير والآخر غني^(١).

وأما الجار فلدنوّ داره، واتصال مزاره؛ قال علي كرم الله وجهه: ليس حسن
 الجوار كفّ الأذى، بل الصبر على الأذى. وقال بعض الحكماء: من أجار جاره، أعانه
 الله وأجاره وقال بعض البلغاء: من أحسن إلى جاره، فقد دلّ على حسن نيّاره. وقال
 بعض الشعراء:

وللجار حق فاحترز من أداته وما خير جارٍ لم يزل لك مؤذياً
 فيجب في حقوق المروءة، وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة، تحمل أثقالهم،

(١) كان حقه أن يقول: «ما بال أحدهما فقيراً، والآخر غنياً» بالنصب على الحال. ولعلها بالرفع خبران عن
 منداين مخذوفين، أي هو فقير، وهو غني، والجملة في محل نصب على الحال.

وإسعافهم في نوائهم، ولا فسحة لذي مروءة عند ظهور المكنة، أن يكلمهم إلى غيره، أو يلجئهم إلى سؤاله، وليكن السائل عنهم كرم نفسه، فإنهم عيال كرمه، وأضياع مروءته، فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه إلى الطلب والرغبة، فهكذا من عاله كرمه، وأضافته مروءته. وقال بعض الشعراء:

حقّ على السيد المرجو نائله والمستجار به في العرب والعجم
ألاّ يُنيل الأفاصي صوب راحته حتى يخصّ به الأدنى من الخدم
إن الفرات إذا جاشت غواربه روى السواحل ثم امتدّ في الأمم

وأما التبرع ففيم من عدا هؤلاء الثلاثة، من البعداء الذين لا يُدئون بنسب، ولا يتعلّقون بسبب، فإن تبرع بفضل الكرم، وفائض المروءة، فنهض في حوادثهم، وتكفل بنوائهم، فقد زاد على شروط المروءة، وتجاوزها إلى شروط الرياسة. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله؟ قال: الإحسان إلى الناس.

وإن كفّ تشاغلاً بها لزم فلا لوم، ما لم يلجأ إليه مضطر، لأن القيام بالمثل معوز، والتكفل بالجميع متعذر، فهذا حكم المؤازرة.

وأما المياسرة فنوعان: أحدهما: العفو عن المفوات. والثاني: المساحة في الحقوق.

فأما العفو عن المفوات، فلأنه لا مبرأ من سهو وزلل، ولا سليم من نقص أو خلل، ومن رام سليماً من هفوة، والتمس بريئاً من نبوة، فقد تعدّى على الدهر بشططه، وخادع نفسه بغلظه، وكان من وجود بغيته بعيداً، وصار باقتراحه قرّداً وحيداً. وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه وقيل لأنوشروان: هل من أحد لا عيب فيه؟ قال: من لا موت له. وإذا كان الدهر لا يوجد ما طلب، ولا ينيله ما أحب، وكان الوحيد في الناس مرفوضاً قصياً والمنقطع عنهم وحشياً، لزمه مساعدة زمانه في القضاء، ومياسرة إخوانه في الصفح والإغضاء. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى أمرني بمداواة الناس، كما أمرني بأداء الفرائض». وقال بعض الأدباء: ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كرم: حسن المحضر، واحتمال الزلة، وقلة الميلال، وقال ابن الرومي:

فعدرك مبسوط لذنب مقدم وودك مقبول بأهل ومرحب

ولو بَلَّغْتَنِي عَنْكَ أَذْنِي أَقْمَتُهَا لَدِي مَقَامَ الْكَاشِحِ الْمَتَكْذِبِ
فَلَسْتُ بِتَقْلِيْبِ اللِّسَانِ مُصَارِمًا خَلِيلًا إِذَا مَا الْقَلْبُ لَمْ يَتَقَلَّبِ

وإذا كان الإغضاء حتمًا، والصفح كرمًا، ترتب بحسب الهفوة، وتنزل بقدر الذنب
والهفوات نوعان: صغائر وكبائر. فالصغائر مغفورة، والنفوس بها معذورة، لأن
الناس مع أطوارهم المختلفة، وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها، فكان الوجد فيها
مُطَرِّحًا، والعتب مستقبَّحًا. وقد قال بعض العلماء: من هجر أخاه من غير ذنب، كان
كمن زرع زرعًا، ثم حصده في غير أوانه. وقال أبو العتاهية:

وَشَرُّ الْأَخِلَاءِ مَنْ لَمْ يَزَلْ يِعَاتِبُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَذُمُّ
يُرِيكَ النُّصِيْحَةَ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَيُبْرِيكَ فِي السَّرِّ بَرِيَّ الْقَلَمِ

وأما الكبائر فنوعان: أن يهفو بها خاطياً، ويَزِلَّ بها ساهياً، فالخروج فيها مرفوع،
والعتب عليها موضوع؛ لأن هفوة الخاطيء هذر، ولومه هذر. وقال بعض الحكماء: لا
تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه. وقال الأحنف بن قيس: حقُّ الصديق
أن تحمل له ثلاثاً: ظلمَ الغَضَبِ، وظلمَ الدَّالَّةِ، وظلمَ الهفوة؛ وحكى ابن عَوْن أن
غلاماً هاشمياً عرِّد على قوم، فأراد عمه أن يسيء به، فقال: يا عم، إني قد أسأت
وليس معي عقلي، فلا تُسيء لي ومعلك عقلك، وقال أبو نواس:

لَمْ أُؤَاخِذْكَ إِذْ جَنَيْتَ لَأَنِّي وَائِقُ مِنْكَ بِالْإِخَاءِ الصَّحِيحِ
فَجَمِئْتُ الْعَدُوَّ غَيْرُ جَمِئِلٍ وَقِييْحُ الصَّدِيقِ غَيْرُ قِييْحِ

فإن تشبه خطأه بالعمد، وسهوه بالقصد، تثبت، ولم يَلْمُ بالتوهم فيكون ملوماً،
ولا يلوم بالظن فيصير مذموماً، ولذلك قيل: التثبت نصف العفو. وقال بعض
الحكماء: لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له. وقال بعض شعراء هذيل:

فَبَعْضُ الْأَمْرِ تَصْلِحُهُ بِبَعْضٍ فَإِنَّ الْغَيْثَ يَحْمِلُهُ السَّمِينُ
وَلَا تَعْجَلْ بِظَنِّكَ قَبْلَ خُبْرٍ فَعِنْدَ الْخُبْرِ تَنْقَطِعُ الظُّنُونُ
تَرَى بَيْنَ الرِّجَالِ الْعَيْنُ فَضْلًا وَفِيَا أَضْمُرُوا الْفَضْلُ الْمُبِينُ
كَلُونِ الْمَاءِ مَشْتَبَهَا وَلَيْسَتْ تُخْبِرُ عَنْ مَذَاقَتِهِ الْعُيُونُ

والثاني: أن يعتمد ما اجترم من كبائره، ويقصد ما اجترح من سيئاته. ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال:

فالحال الأولى: أن يكون موتوراً، قد قابل على وِيرة، وكافأ على مساءة، فاللائمة على من وتّره. عائدة، وإلى البادئ بها راجعة؛ لأن المكافئة أعذر، وإن كان الصفح أجمل، ولذلك قال النبي ﷺ: «إياكم والمشارّة، فإنها تميمت الغرّة، وتحبي الغرّة»: وقال بعض الحكماء: مَنْ فعل ما شاء، لقي ما لم يشأ. وقال بعض الأدباء: من نالته إساءتُك، همته مساءتُك. وقال بعض البلغاء: من أولع بقبح المعاملة، أوجع بقبح المقابلة. وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا وتّرتَ أمراً فاحذرْ عداوتَه مَنْ يزرع الشوك لا يحصدْ به عنباً
إن العدوَّ وإن أبدى مسالمةً إذا رأى منك يوماً فُرصةً وتّباً

والإغضاء عن هذا أوجب، وإن لم تكن المكافاة ذنباً؛ لأنه قد رأى عُقى إساءته، فإن واصل الشرّ واصلته المكافاة وقد قيل: باعتزالك الشرّ يعتزلُك، وبحسن النصفه يكثرُ الواصلون. وقال بعض الحكماء: من كنت السبب لبلائه، وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه. وقد قال أوس بن حجر:

إذا كنت لم تُعرض عن الجهل والحنأ أصبتَ حليماً أو أصابك جاهلٌ

والحال الثانية: أن يكون عدوّاً قد استحكمت شَحناؤه، واستوعرت سرّاءه، واستخشنت ضراءه، فهو يتربّص بدوائر السوء انتهازاً فُرصه، ويتجرع لِمهانة العجز مرارة غُصصه، فإذا ظفرَ بنائبة ساعدها، وإذا شاهدَ نعمة عاندها، فالبعد منه حذراً أسلم، والكف عنه مُتاركة أغنم. فإنه لا يُسلم من عواقب شرّه، ولا يُفلت من غوائل مكره. وقد قالت الحكماء: لا تَعَرَّضَنَّ لعدوك في دولته، فإذا زالت كُفيت شرّه. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال: إن الشرّ بالشرّ يُطفأ. فإن كان صادقاً فليوقد نارين. ولينظر: هل تُطفئُ إحداها الأخرى؟ وإنما يُطفئُ الخيرُ الشرّ، كما يطفئُ الماءُ النار. وقال جعفر بن محمد: كفاك من الله نصراً أن ترى عدوك يعصي الله فيك. وقال بعض الحكماء: بالسيرة العادلة يُفهر المعادي. وقال البحتري:

وَأُقْسِمُ لَا أَجْزِيكَ بِالشَّرِّ مِثْلَهُ كَفَى بِالذِّي جَازِيَتِي لَكَ جَازِيَا
والحال الثالثة: أن يكون لئيم الطبع، خبيث الأصل، قد أغراه لؤم الطبع، على
سوء الاعتقاد، وبعثه خبث الأصل على إثارة الفساد، فهو لا يستقبح الشر، ولا يكف
عن المكروه. فهذه الحال أعظم؛ لأن الأضرار بها أعم، ولا سلامة من مثله إلاّ بالبعد
والانقباض، ولا خلاص منه إلاّ بالصفح والإعراض؛ فإنه كالسبع الضاري في سوارح
الغنم، وكالنار المتأججة في يابس الحطب، لا يقربها إلاّ تالف، ولا يدنو منها إلاّ
هالك.

رَوَى مَكْحُولٌ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «النَّاسُ
كَشَجَرَةٍ ذَاتِ جَنَى، وَيُوشِكُ أَنْ يَعُودُوا كَشَجَرَةٍ ذَاتِ شَوْكٍ، إِنْ نَاقَدْتَهُمْ نَاقِدُوكَ،
وَإِنْ هَرَبْتَ مِنْهُمْ طَلَبُوكَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ لَمْ يَتْرُكُوكَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ
الْمَخْرَجُ؟ قَالَ: أَقْرِضْهُمْ مِنْ عِرْضِكَ لِيَوْمِ فَاقَتِكَ». وَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ: الْعَاقِلُ
الْكَرِيمُ صَدِيقٌ كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا مِنْ ضَرِّهِ، وَالْجَاهِلُ اللَّئِيمُ عَدُوٌّ كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا مِنْ نَفْعِهِ.
وَقَالَ: شَرٌّ مَا فِي الْكَرِيمِ أَنْ يَمْنَعَكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرٌ مَا فِي اللَّئِيمِ أَنْ يَكْفَ عَنْكَ شَرَّهُ؟ وَقَالَ
بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: أَعْدَاؤُكَ دَاوُكُ، وَفِي الْبَعْدِ عَنْهُمْ شِفَاؤُكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: شَرَفُ
الْكَرِيمِ، تَغَافُلُهُ عَنِ اللَّئِيمِ.

وَوَصَّى بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ابْنَهُ. فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، إِذَا سَلِمَ النَّاسُ مِنْكَ، فَلَا عَلَيْكَ إِلَّا تَسْلَمَ
مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ قَلِمَا اجْتَمَعَتْ هَاتَانِ النِّعْمَتَانِ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ عَمْرِو بْنِ بُقِيلَةَ:

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ فَالْخَيْرُ مُسْتَتَبِعُ وَالشَّرُّ مُحْذُورُ

والحال الرابعة: أن يكون صديقاً قد استجدت نبوة وتغيراً، أو أخاً قد استجدت
جفوة وتنكراً، فأبدى صفحة عقوقه، واطرح لازم حقوقه، وعدل عن بر الإخاء إلى
جفوة الأعداء. فهذا قد يعرض في المودات المستقيمة، كما تعرض الأمراض في
الأجسام السليمة، فإن عولجت أقلعت، وإن أهملت أسقمت ثم أتلفت. ولذلك قالت
الحكماء: دواء المودة: كثرة التعاهد. وقال كشاجم:

صِلْ مَنْ دَنَا وَتَنَاسَّ مِنْ بُعْدَا لَا تُكْرِهَنَّ عَلَى الْهَوَى أَحَدَا
قَدْ أَكْثَرَتْ خَوَاءً إِذْ وَلَدَتْ فَإِذَا جَفَا وَلَدٌ فَخُذْ وَلَدَا

وهذا مذهب من قل وفأوه، وضعف إخاؤه، وساءت طرائقه، وضاعت خلائقه، ولم يكن فيه فضل الاحتمال، ولا صبر على الإدلال، فقابل على الجفوة، وعاقب على الهفوة، وأطرح سالف الحقوق، وقابل العقوق بالعقوق، فلا بالفضل أخذ، ولا إلى العفو أجلد، وقد علم أن نفسه قد تطلّح عليه فترديه، وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه، ويؤذيه، وهما أخص به، وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته، وانفصل بأدواته، فيريد من غيره لنفسه، ما لا يجده من نفسه لنفسه. هذا عين المحال، ومخص الجهل، مع أن من لم يحتمل بقي فردا، وانقلب الصديق فصار عدوا، وعداوة من كان صديقاً أعظم من عداوة من لم يزل عدوّاً. ولذلك قال النبي ﷺ: «أوصاني ربي بسبع: الإخلاص في السرّ والعلانية، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرة» وقال لقمان لابنه: يا بُني، لا تترك صديقك الأول، فلا يطمئن إليك الثاني. يا بُني، اتخذ ألف صديق، والألف قليل، ولا تتخذ عدوّاً واحداً، والواحد كثير وقيل للمهلب بن أبي صفرة: ما تقول في العفو والعقوبة؟ قال هما بمنزلة الجود والبخل، فتمسك بأبيهما شئت. وأنشد ثعلب:

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد بكفيك في إدباره متعلّقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزّلة إذا زلّها أو شكّها أن تفرّقا
فإذا كان الأمر على ما وصفت، فمن حقوق الصفح، الكشف عن سبب الهفوة، ليعرف الداء فيعالجه، فإن من لم يعرف الداء، لم يقف على الدواء. كما قد قال المتنبي:

فإنّ الجرح ينغّر بعد حين إذا كان البناء على فساد

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يخلو حال السبب، من أن يكون لِمَلِكٍ أو زَلَلٍ، فإن كان لِمَلِكٍ، فمودّات الملول ظلّ الغمام، وحلم النّيام. وقد قيل في منشور الحكم: لا تأمننّ للمول وإن تحلى بالصّلة، وعلاجه أن يُترك على ملّله، فيملّ الجفاء، كما ملّ الإخاء.

وإن كان لزلّة لُوحظت أسبابه، فإن كان لها مدّخل في التأويل، وشبهة تؤول إلى جيل، حمله على أجل تأويل، وصرفه إلى أحسن جهة كالذي حكى عن خالد بن

صفوان، أنه مرَّ به صديقان له، فعرج عليه أحدهما، وطواه الآخر. ف قيل له في ذلك، فقال: نَعَمْ، عرج علينا هذا بفضلِه، وطوانا ذلك بثقته بنا.

وأنشد بعض أهل الأدب، لمحمد بن داود الأصفهاني:

وتزعم للواشين أنِّي فاسدٌ عليك، وأني لستُ فيما عهدتني
وما فسدتُ لي يعلم الله نيَّةً عليك ولكن خُنتني فاتهمني
غدرت بعهدي عامداً وأخفتني فحفت ولو آمنتني لأمتني

وإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل، نظر حاله بعد زلله؛ فإن ظهر بدمه، وبأن خجله، فالندم توبة، والرجل إنابة، ولا ذنب لتائب، ولا لوم على مُنيب، ولا يكلف عُذرا عما سلف، فيلجأ إلى ذل التحريف، أو خجل التعنيف. ولذلك قال النبي ﷺ: «إياكم والمعاذر، فإن أكثرها مفاجر». وقال علي رضي الله عنه: كَفَى بما يُعْتَذَرُ منه تُهمة. وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر إليه: لا يدعوك أمر قد تخلصت منه، إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه. وقال بعض الحكماء: شفيح المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغاء: من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته، ومن لم يحسن إلى التائب، قبحت إساءته، وقال بعض الحكماء: الكريم من أوسع المغفرة، إذا ضاقت بالذنب المعذرة.

وقال بعض الشعراء:

العذرُ يلحقه التحريفُ والكذبُ وليس في غير ما يرضيك لي أربُ
وقد أسأتُ فبالنعمى التي سلفتُ إلا مننتُ بعفو ماله سببُ

وإن عَجَلَ العُذر قبل توبته، وقدم التنصّل قبل إنابته فالعذر توبة، والتنصل إنابة، فلا يكشف عن باطن عُذره، ولا يُعَنِّف بظاهر غدره، فيكون لثيم الظفر، سيئة المكافأة. وقد قيل: من غلبته الحدة، فلا تغتر بمودته. وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه إلى عُذره. وقال بعض الشعراء:

اقبلْ معاذير من يأتيك معتذراً إن برَّ عندك فيما قال أو فجراً
فقد أطاعك من يرضيك ظاهراً وقد أجلك من يعصيك مُستيراً

وإن ترك نفسه في زلله ، ولم يتداركه بعُذْره وتنصُّله ، ولا محاه بتوبته وإنابته ، راعيت حاله في المشاركة ، فستجده لا ينفك فيها من أمور ثلاثة :

أحدها : أن يكون قد كفَّ عن سيِّئ عمله ، وأقلعَ عن سالف زلَّله ؛ فالكفَّ إحدى التوبتين ، والإقلاع أحد العُذْرين ، فكن أنت المعتذر عنه بصفحك ، والمتنصِّل له بفضلِكَ . فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المحسِن على المسيء أمير .

والثاني : أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله ، غير تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البرِّين ، وكفه عن الزيادة إحدى الحُسْنَيْن ، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه . فعول به على صلاح شطره الآخر ، وإياك وإرجاءه ، فإن الإرجاء يفسد شطر صلاحه ، والتلافي يُلصِّح شطر فساده ، فإن من سَقِم من جسمه ما لم يُعالجه ، سَرَى السَّقَم إلى صحته ، وإن عاجله سرت الصحة إلى سَقَمه .

والثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام . فهذا هو الداء العُضال ، فإن أمكن استدراكه ، وتأقَّى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه إن علا ، ويأرغابه إن دنا ، وبعتابه إن ساوى ، وإلا فآخرُ الداء العِياء الكيِّ . ومن بَلَغَتْ به الأعدار إلى غايتها ، فلا لائمة عليه ، والمقيم على شقاؤه باغ مصروع . وقد قيل : من سلَّ سيف البغي : أغمده في رأسه ، فهذا شرط .

وأما المسامحة في الحقوق ، فلأن الاستيفاء مُوحِش ، والاستقصاء منفر . ومن أراد كل حقَّه من النفوس المستصعبة ، بشحٍّ أو طمع ، لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقة ، ولم يقدر عليه إلا بالمخاشنة والمشاحة ، لما استقرَّ في الطباع من مَقَّت من شاقِّها ونافرها ، وبغض من شاقِّها ونازعها ، كما استقرَّ حُب من يأسرها وسامحها ، فكان أليق لأمر المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة ، وتألفها بالمقاربة والمساهلة قال بعض الحكماء : من عاشر إخوانه بالمسامحة ، دامت له مودَّاتهم . وقال بعض الأدباء : إذا أخذتَ عفوَ القلوب زكا رِيعُك ، وإن استقصيت أكديت .

والمسامحة نوعان : في عقود ، وحقوق

فأما العقود، فهو أن يكون فيها سهل المناجزة، قليل المحاجزة، مأمون الغيبة، بعيداً من المكر والخديعة. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كَلَّامَ مُيسَّرٍ لَمَّا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا». وقال ﷺ: «أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى شَيْءٍ يَجِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: التَّغَابُنُ لِلضَّعِيفِ».

وحكى ابنُ عون: أن عمر بن عبد الله اشترى للحسن البصريّ إزاراً بستة دراهم ونصف، فأعطى التاجر سبعة دراهم، فقال: ثمنه ستة دراهم ونصف. فقال: إني اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما. ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز، وأن الاستقصاء فيها حزم، حتى إنه لينافس في الحقير، وإن جاد بالجليل الكثير، كالذي حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم، وهو يجود بما يجود به. فقليل له في ذلك، فقال: ذلك مالي أجود به، وهذا عقلي يخلت به. وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الأدياء، ويغابنهم به الأششاء، وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر. فأما مكسة الاستنزال والاستسماح، فكلاً، لأنه مناف للكرم، ومناف للمروءة.

وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين: أحدهما: في الأحوال، والثاني: في الأموال.

فأما المسامحة في الأحوال، فهي اطراح المنازعة في الرتب، وترك المنافسة في التقدم، فإن مُشاحَّةَ النفوس فيها أعظم، والعناد عليها أكثر، فإن سامح فيها ولم ينافس، كان مع أخذه. بأفضل الأخلاق، واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفوس من إفضاله برغائب الأموال، ثم هو أزيد في رتبته، وأبلغ في تقدّمه، وإن شاح فيها ونازع، كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق، واستعماله لأهجن الآداب، أنكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان، ثم هو أخفض للمرتبة، وأمنع من التقدم.

حكى أن فتى من بني هاشم تخطّى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال: يا بُنيّ، إن الآداب ميراث الأشراف، ولست أرى عندك من سلفك إراثاً.

وأما المسامحة في الأموال، فتتنوع ثلاثة أنواع: مسامحة إسقاطٍ لعدَم، ومسامحة تخفيفٍ لعجز، ومسامحة إنكارٍ لعُسرة، وهي مع اختلاف أسبابها تفضّل مأثور، وتألّف

مشكور. وإذا كان الكريم. قد يجود بما تحويه يده، وينفذ فيه تصرفه، كان أولى أن يجود بما خرج عن يده، فطاب نفساً بفراقه. وقد تصل المسامحة في الحقوق إلى من لا يقبل البر، ويأبى الصلة، فيكون أحسن موقعاً، وأزكى مَحَلّاً، وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل، ومنع المجتدي، لأن السائل كما اجترأ على سؤالك، فسيجترئ على سؤال غيرك إن رددته، وليس كل من صار أسيرَ حقك، ورهينَ دينك، يجدُ بدءاً من مسامحتك ومياسرتك، ثم لك مع ذلك حسن الثناء، وجزيل الأجر. وقال محمود الورّاق رحمه الله:

المرءُ بعد الموتِ أحدوثَةٌ يفنى وتبقى منه آثارُهُ
فأحسنُ الحالاتِ حالُ امرئٍ تطيبُ بعد الموتِ أخبارُهُ
فهذه حال المياسرة.

وأما الإفضال فنوعان: إفضالُ اصطناع، وإفضال استكفاف ودفاع.

فأما إفضال الاصطناع فنوعان: أحدهما: ما أسداه جوداً في شكور.

والثاني: ما تألف به نَبْوة نَفُور، وكلاهما من شروط المروءة، لما فيها من ظهور الاصطناع، وتكاثر الأشياء والأتباع، ومن قلت صنائعه في الشاكرين، وأعرض عن تألف الخافين، كان فرداً مهجوراً، وتابِعاً محقوراً، ولا مروءة لمترك مُطْرَح، ولا قَدْرٌ لمحقور مهتَضَم. وقال عمر بن عبد العزيز: ما طاوَعني الناس على شيء أردته من الحقّ حتى بسطت لهم طَرَفاً من الدنيا. وقال بعض الحكماء: أقلّ ما يجب للمنعِم بحقّ نعمته، ألاّ يتوصل بها إلى معصيته:

وأنشدت لبعض الأعراب:

مَن جَمَعَ المَالَ ولم يَجِدْ بِهِ وَجَمَعَ المَالَ لِعَامٍ جَدِيهِ
هَانَ عَلَى النَّاسِ هَوَانُ كُلِّهِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

يَبْقَى الثَّنَاءُ وَتَذْهَبُ الْأَمْوَالُ وَلِكُلِّ دَهْرٍ دَوَّلَةٌ وَرِجَالُ
مَا نَالَ مُحَمَّدَةَ الرِّجَالِ وَشُكْرَهُمْ إِلَّا الْجَوَادُ مَمَالِيهِ الْمَفْضَالُ

لا ترض من رجل خلاوة قوله حتى يُصدّق ما يقولُ فِعَالُ
فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله ، فقد عَدِمَ من آلة المكارم عَمادها ، وفقد
من شروط المروءة سِنادها ، فليؤاس بنفسه مؤاساة المسعِف ، وليُسعِد بها إسعاد
المتألّف . قال المتنبي :

فليُسعِدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ^(١)

وإن كان لا يراها وإن أجهدا ، إلا تبعاً للمفضّلين ، قليلة بين الكثيرين ، فإن
الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ، ولا يُقنعهم القول دون الفعل ، ولا يغنيهم الكلام
عن المال ، ويروّنه كالصدّى : إن ردّ صوتاً ، لم يُجَدِ نفعاً ، كما قال الشاعر :

يُجودُ بالوعدِ ولكنّه يَدُهْن من قسارورة فارغة

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغاً ، وكل ما عدا الإفضال به كان هينا
وقد قدّمنا من القول في شروط الإفضال ما أقنع .

وأما إفضال الاستكفاف ، فلأنّ ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ، ومعاند فضيلة ،
يعتريه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه ، فإن غفل عن استكفاف
السفهاء ، وأعرض عن استدفاع أهل البذاء ، صار عِرْضه هدفاً للمثالب ، وحاله عُرْضة
للنوائب ، وإذا استكف السفهاء ، واستدفع البذيّ ، صان عِرْضه ، وحى نعمته . وقد
روى عن النبيّ ﷺ ، أنه قال : « ما وقّي به المرء عِرْضه ، فهو صدقة » . وقالت عائشة
رضي الله عنها : « ذُبحوا بأموالكم عن أحسابكم » . وامتدح رجل الزّهريّ ، فأعطاه
قميصه . فقال له رجل : أنعطي على كلام الشيطان ؟ فقال : من ابتغى الخير اتقى الشر ،
ولذلك قال النبيّ ﷺ : « مَنْ أَرَادَ بِرَّ الوالدين فليعط الشعراء » . وهذا صحيح ؛ لأن
الشعر سائر ، يُستَر به ما ضمن من مدح أو هجاء ، ومن أجل ذلك قيل : لا تؤاخ
شاعرا ، فإنه يمدحك بضمن ، ويهجوكم بمجاناً .

ولا استكفاف السفهاء بالإفضال شرطان : أحدهما : أن يخفيه ، حتى لا تنتشر فيه

(١) من قول المتنبي وهو بمصر في الأمير فاتك . وصدر البيت :

لا خيلَ عندك تُهدّيها ولا مالُ

مطامع السفهاء ، فيتوصلوا إلى اجتذابه بسبه ، وإلى ماله بثلبه : والثاني : أن يتطلب له في المجاملة وجهاً ، ويجعل في الإفضال عليه سبباً ، لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البذاءة .

واعلم أنك ما حييت ، ملحوظ المحاسن ، محفوظ المساوي ، ثم من بعد ذلك حديث منتشر ، لا يراقبك صديق ، ولا يحامي عنك شقيق ، فكن أحسن حديث ينشر ، يكن سعيك في الناس مشكوراً ، وأجرك عند الله مذكوراً . فقد روى زياد بن الجراح ، عن عمرو بن ميمون : أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اغتنم خساً قبل خمس شبائك قبل هَرَمِكَ ، وصحبتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلِكَ ، وحياتك قبل موتِكَ » .

فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة ، وإن كان كل كتابنا هذا من شروطها ، وما اتصل بحقوقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثامن : في آداب منشورة

اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال ، وتغير العادات ، لا يمكن استيعابها ، ولا يُقدَّر على حصرها . وإنما يذكر كل إنسان ما بلغه الوُسْع من آداب زمانه ، واستحسن بالعرف من عادات دهره ، ولو أمكن ذلك ، لكان الأوَّل قد أغنى الثاني عنها ، والمتقدِّم قد كفى المتأخر تكلفها ، وإنما حظ الأخير ، أن يتعانى حفظ الشارد ، وجمع المفترق ، ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه ، وعادات وقته ، فيثبت ما كان موافقاً ، وينفي ما كان مخالفاً ، ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة ، واستخراج فائدة ، فإن أسعف بشيء فاز بدرهكه ، وحظي بفضيلته ، ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفاً من كلام الوقت ، وعرف أهله ، فإن لأهل كل وقت في الكلام عادة تُؤلف ، وعبرة تُعرف ، ليكون أوقع في النفوس ، وأسبق إلى الأفهام ، ثم يُرتب ذلك على أوائله ومقدماته ، ويثبته على أصوله وقواعده حسب ما يقتضيه الجنس ؛ فإن لكل نوع من العلوم طريقة ، هي أوضح مسلکاً ، وأسهل مأخذاً ، فهي خمسة شروط ، هي حظ الأخير فيما يعانيه .

وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث، وأولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الأول عناء ضائعا، وتكلفا مستهجنا. ونرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط، وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق، حتى نسلم من ذم التكليف، ونبرأ من عيوب التقصير، وإن كان اليسير مغفورا، والخطيء معذورا. فقد قيل: من صنف كتابا فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف، وقد مضت أبواب تضمنت فصولا، رأيت اتباعها بما لا أحب الإحلال به.

فمن ذلك حال الإنسان في مأكله ومشربه، فإن الداعي إلى ذلك شيان: حاجة ماسة، وشهوة باعثة. فأما الحاجة فتدعو إلى ما سدَّ الجوع، وسكَّن الظم. وهذا مندوب إليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد. ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين، لأنه يُضعِف الجسد، ويميت النفس، ويُعجز عن العادة، وكل ذلك يمنع منه الشرع، ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة، حظ من برٍّ، ولا نصيب من زهد، لأن ما حرّمها من فعل الطاعات بالعجز الضعف، أكثر ثوابا، وأعظم أجرا، إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الإلزامات، وإتيان القرب. ومن أخسر نفسه رجحا موفورا، أو حرّمها أجرا مذخورا، كان زهده في الخير أقوى من رغبته، ولم يبق عليه من هذا التكليف إلا الشهوة بريائه وسرّه.

وأما الشهوة فتتنوع نوعين: شهوة في الإكثار والزيادة، وشهوة في تناول الألوان اللذيذة. فأما النوع الأول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة، والإكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع، لأن تناول ما زاد على الكفاية، نَهَمٌ مَعَرٍّ، وَشَرٌّ مَضَرٌّ. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «اياكم والبُطْنَةُ فإنها مَفْسِدَةٌ للدين مورنة للسُّقَم، مَكْسَلَةٌ عن العبادة» وقال علي رضي الله عنه: إن كنت بَطْنًا، فَعُدَّ نفسك زَمِنًا. وقال بعض البلغاء: أقلل طعاما، تحمد مَناما. وقال بعض الأدباء: الرَّغَبُ لَوَمٍ، والنَهَمُ شَوْمٌ، وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء: تقدير الغذاء. وقال بعض الشعراء:

فكم من لُقمة منعت أخاها بليلة ساعةٍ أَكَلَتِ دَهْرِي

وكم من طالب يسعَى لأمرٍ وفيه هلاكُه لو كان يدري

وقال آخر :

كم دخلت أكلة حشاشه فأخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلاكُ النفوس في الحد

وربّ أكلة هاضت الأكل، وحرّمته مآكل روى أبو يزيد المدني، عن عبد الرحمن ابن المرقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يخلق وعاء ملى شراً من بطن، فإن كان لا بد فاعلاً، فاجعلوا ثلثاً للطعام، وثلثاً للشراب، وثلثاً للريح».

وأما النوع الثاني، وهو شهوة الأشياء اللذيذة، ومنازعة النفوس إلى طلب الأنواع الشهية، فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة، فمنهم من يرى أن صرّف النفس عنها أولى، وقهرها عن اتباع شهواتها أخرى، ليدلّ له قيادها، ويهون عليه عنادها، لأن تمكينها ما تهوى، بطر يطغي، وأشرّ يُردي، لأن شهواتها غير متناهية. فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها، تعدّتها إلى شهوات قد استحدثتها، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي، وعيد هوى لا ينتهي. ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح، ولم يوجد فيه فضل.

وأنشدت لأبي الفتح البستي:

يا خادِمَ الجسم كم تشقى بخدمته لتطلبَ الرّبح مما فيه خُسران
أقبلُ على النفس واستكملُ فضائلها فأبنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وللحذر من هذه الحال. ما حكى أن أبا حزم رحمه الله كان يمرّ على الفاكهة فيشتهيها. فيقول: موعدك الجنة. وقال آخرون: تمكين النفس من لذاتها أولى، وإعطاؤها ما اشتتهت من المباحات أخرى، لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها، ونشاطها بإدراك لذاتها، فتتحسّر عنها ذلّة المقهور، وبلادة المجبور، ولا تقصّر عن درك، ولا تعصي في نهضة، ولا تكيل عن استعانة.

وقال آخرون: بل توسّط الأمرين أولى، لأن في إعطائها كلّ شهواتها بلادة، والنفس البليدة عاجزة، وفي منعها عن البعض كفّ لها عن السلاطة، وفي تمكينها من

البعض حَسَمَ لها عن البلادة. وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام، لأن التوسُّط في الأمور أحد، وإذ قد مضى الكلام في المأكول والمشروب، فينبغي أن يُتبع بذكر الملبوس.

اعلم أنَّ الحاجة وإن كانت في المأكول والمشروب أدعى، فهي إلى الملبوس ماسة، وبها إليه فاقة، لما في الملبوس من حفظ الجسد، ودفع الأذى، وستر العورة، وحصول الزينة. قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٣٦]. فمعنى قوله ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يؤاري سَوْآتِكُمْ، أي يستر عَوْرَاتِكُمْ، وَسُمِّيَتِ الْعَوْرَةُ سَوْءَةً، لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده. وقوله: ﴿وَرِيشًا﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: المال. وهو قول مجاهد.

والثاني: أنه اللباس والعيش والنعم. وهو قول ابن عباس رضي الله عنها.

والثالث: أنه المعاش، وهو قول معبد الجُهني.

والرابع: أنه الجمال. وهو قول عبد الرحمن بن زيد.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ فيه ستة تأويلات:

أحدها: أن لباس التقوى، هو الإيمان. وهو قول قتادة والسَّدي. **والثاني:** أنه العمل الصالح. وهو قول ابن عباس رضي الله عنها. **والثالث:** أنه السَّمْتُ الْحَسَنُ، وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه. **والرابع:** هو خشية الله تعالى، وهو قول عُرْوَة ابن الزُّبَيْر. **والخامس:** أنه الحياء. وهذا قول معبد الجُهني. **والسادس:** هو ستر العورة. وهذا قول عبد الرحمن بن زيد.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: أن ذلك راجع إلى جميع ما تقدم من قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ ثم قال: ذلك خير، أي ذلك الذي ذكرته خير كله.

والثاني: أن ذلك راجع إلى لباس التقوى، ومعنى الكلام: أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس. وهذا قول قتادة والسَّدي. فلما وصف الله تعالى حال اللباس،

وأخرجه مُخْرَجِ الامتنان، عِلِمُ أَنَّهُ معونة منه، لشدة الحاجة إليه. وإذا كان كذلك، ففي اللباس ثلاثة أشياء: أحدها: دفع الأذى. والثاني: ستر العورة والثالث: الجَمال والزينة.

فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل، لأن العقل يُوجب دفع المضار، واجتلاب المنافع. وقد قال الله تعالى: ﴿والله جعل لكم مما خَلَقَ ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكنانا، وجعل لكم سراييل تقيكم الحرّ، وسراييل تقيكم بأسكم﴾ [النحل: ٨١]. فأخبر بجمالها، ولم يأمر بها، اكتفاء بما يقتضيه العقل، واستغناء بما يبعثه عليه الطبع؛ ويعني بالظلال: الشجر، وبالأكنان: جمع كِنٍّ، وهو الموضع الذي يُستكن فيه. ويعني بقوله: ﴿سراييل تقيكم الحرّ﴾ [النحل: ٨١] ثياب القطن والكُتّان والصوف. وبقوله: ﴿وسراييل تقيكم بأسكم﴾ [النحل: ٨١] الدروع التي تقي البأس: وهو الحرب. فإن قيل: كيف قال: تقيكم الحرّ، ولم يذكر البرد. وقال: ﴿جعل لكم من الجبال أكنانا﴾ [النحل: ٨١] ولم يذكر السَّهل، فعن ذلك جوابان:

أحدها: أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام، فذكر لهم الجبال، وكانوا أصحاب حرّ دون برد، فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم. وهذا قول عطاء.

والجواب الثاني: أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر، إذ كان معلوماً أن السراييل التي تقي الحرّ أيضاً تقي البرد، ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السَّهل. وهذا قول الجمهور.

وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه: هل وجب بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجب سترها بالعقل، لما في ظهورها من القبح، وما كان قبيحاً فالعقل مانع منه. ألا ترى أن آدم وحواء لما أَكَلَا من الشجرة التي نهاها عنها، بدت لهما سَوَاتِمُهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، تنبها بعقولهما لستر ما رآياه مستقبجا من سَوَاتِمِهما، لأنهما لم يكونا قد كَلَّفَا ستر ما لم يبدُ لهما، ولا كَلَّفَاه بعد أن بدت لهما، وقبل سترها. وقالت طائفة أخرى: بل ستر العورة واجب بالشرع، لأن بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه؛ وإنما اختصت العورة بحكْم شرعيّ، فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعياً.

وقد كانت قریش وأکثر العرب مع ما كانوا علیه من وفور العقل، وصحة الأبواب، يطوفون بالبيت غرة، ويحرمون على نفوسهم اللحم والودک، ویزون ذلك أبلیغ فی القرية، وإنما القرب: ما استحسنیت فی العقل، حتی أنزل الله تعالى: ﴿یا بني آدم خذوا زینتکم عند کل مسجد، وکلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا یحب المسرفین﴾ [الأعراف: ٣١]. یعنی بقوله: ﴿خذوا زینتکم﴾ الثیاب التي تستر عوراتکم، وکلوا واشربوا ما حرّمتموه على أنفسکم من اللحم والودک. وفي قوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا﴾ تأویلان:

أحدهما: لا تسرفوا فی التحزیم. وهذا قول السديّ.

والثاني: لا تأکلوا حراماً، فإنه إسراف. وهذا قول ابن زيد. فأوجب بهذه الآية ستر العورة، بعد أن لم یکن العقل موجبا له، فدلّ ذلك على أن سترها وجب بالشرع، دون العقل.

وأما الجمال والزينة: فهو مستحسن بالعرف والعادة، من غیر أن یوجب عقل أو شرع. وفي هذا النوع قد یقع التجاوز والتقصیر. والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهین: أحدهما، فی صفة الملبوس وکیفیتة. والثاني: فی جنسه وقيمتة. فأما صفتة فمعتبرة بالعرف من وجهین: أحدهما: عرف البلاد؛ فإن لأهل المشرق زیا مألوفاً، ولأهل المغرب زیا مألوفاً، وكذلك لما بینهما من البلاد المختلفة عادات فی اللباس مختلفة. والثاني: عرف الأجناس؛ فإن للأجناد زیا مألوفاً، وللتجار زیا مألوفاً، وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات فی اللباس. وإنما اختلفت عادات الناس فی اللباس من هذين الوجهین، لیكون اختلافهم سمةً یتمیزون بها، وعلامة لا یخفون معها، فإن عدل أحد من عرف بلده وجنسه، كان ذلك منه خیراً وحمقاً؛ ولذلك قيل: العري الفادح: خیر من الزيّ الفاضح.

وأما جنس الملبوس وقيمتة؛ فمعتبر من وجهین: أحدهما بالمكنة من اليسار والإعسار، فإن للموسر فی الزيّ قدراً، وللمعسر دونه. والثاني: بالمنزلة والحال؛ فإن لذي المنزلة الرفیعة فی الزيّ قدراً، وللمنخفض عنه دونه، لیتمفاضل فیهِ على حسب تفاضل أحوالهم، فیصیروا به متمیزین، فإن عدل الموسر إلى زيّ المعسر، كان شحاً

وبغلا ، وإن عدل الرفيع إلى زيّ الديني ، كان مهانة ودُلاً ، وإن عدل المعسر إلى زيّ الموسر ، كان تذبذرا وسرفا ، وإن عدل الدني إلى زيّ الرفيع ، كان جهلا وحمقا ؛ ولزوم العُرف المعهود ، واعتبار الحد المقصود : أدل على العقل ، وأمنع من الذم . ولذلك قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم لبستين : لبسة مشهورة ، ولبسة محقورة . وقال الحكماء : اللبس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ، ولا يعيبه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء :

إن العيونَ رمتكَ إذ فاجأتها وعليكَ من شَهْرِ الثياب لباسٌ
أما الطعامُ فكلّ لنفسك ما تشا واجعل لباسك ما اشتهاه الناسُ

واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدلاً الحال في مراعاة لباسه ، من غير إكثارٍ ولا اطرّاح ، فإن اطرّاح مراعاتها ، وترك تفقدها ، مهانة ودُلاً ، وكثرة مراعاتها ، وصرف الهمة إلى العناية لها ، دناءة ونقص ؛ وربما توهم بعضُ من خلا من فُهل ، وعري عن تمييز ، أن ذلك هو المروءة الكاملة ، والسيرة الفاضلة ، لما يرى من تميزه بذلك عن الأكثرين ، وخروجه عن جملة العوامّ المسترذلين ؛ وخفي عليه أنه إذا تعدّى طوره ، وتجاوز قدره ، كان أقبح لذكره ، وأبعث على ذمه ، فكان كما قال المتنبي :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيها حُسْنَ بَزْتِهِ وهل يَروق دَفِيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ
وحكى المبرّد أن رجلاً من قریش ، كان إذا اتسع لبس أرث ثيابه ، وإذا ضاق لبس أحسنها . ف قيل له في ذلك ، فقال : إذا اتسعت تزينت بالجلود ، وإذا ضيّقت فبالهيئة . وقد أتى ابن الرومي بأبلغ من هذا المعنى من شعره ، فقال :

وما الحلّى إلّا زينةٌ لنقيصةٍ يَتَمُّ من حسن إذا الحسن قَصَصَا
فأما إذا كان الجاهلُ مُوقِراً كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

ولذلك قالت الحكماء : ليست العزة في حسن البزة . وقال بعض الشعراء :

وترى سفيه القوم يدنّس عِرْضه سفهاً ويمسح نعلَه وشِراكها
وإذا اشتد كلفُه بمراعاة لباسه ، قطعه ذلك عن مراعاة نفسه ، وصار الملبوس عنده أنفس ، وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل في منشور الحكم : اللبس من الثياب ما

يخدمُك ولا يستخدمُك. وقال خالد بن صفوان لإياس بن معاوية: أراك لا تبالي ما لبست؟ فقال: ألبسُ ثوبا أقي به نفسي: أحب إليّ من ثوب أقيه بنفسي. فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها، فكذلك لا يكون شديد الأطراح لها. فقد حُكي عن عائشة: «أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فنظر إليه رثّ الهيئة، فقال: ما مالك؟ قال: من كل المال قد آتاني الله. فقال: إن الله تعالى يُحبّ إذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه». وقد قيل: المروءة الظاهرة، في الثياب الظاهرة.

وهكذا القول في غلمانه وحشمه: إن اشتد كلفه بهم، صار عليهم قيّماً، ولهم خادماً؛ وإن اطرحهم قلّ رشادهم، وظهر فسادهم، فصاروا سبباً لمقتته، وطريقاً إلى ذمه، لكي يكفهم عن سيّء الأخلاق، ويأخذهم بأحسن الآداب، ليكونوا كما قال فيهم الشاعر:

سهل الفناء إذا مررت ببابه طلق اليدين مؤدّب الخدام

وليكن في تفقد أحوالهم، على ما يحفظ تجملته، ويصون مُبتذله. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ادّهنوا، يذهب البؤس عنكم، والبسوا تظهر نعمة الله عليكم، وأحسنوا إلى ممالئكم، فإنه أكبت لعدوّكم» وليتوسط فيهم ما بين حالتي اللين والخشونة، فإنه إن لان هان عليهم، وإن خشن مقتوه، وكان على خطر منهم. حكي أن المؤبد سمع ضحك الخدام في مجلس أنوشروان، فقال: أما تمنع هؤلاء الغلمان؟ فقال أنوشروان: إنما بهم يهابنا أعداؤنا. وقال أبو تمام الطائي:

حشم الصديق عيونهم بحّاثّة لصديقه عن صدقه ونفاقه
فليظنّ المرء من غلمائه فهم خلائفه على أخلاقه

واعلم أن للنفس حالتين: حالة استراحة إن حرمتها إياها كلت، وحالة تصرف إن أرحتها فيها تخلّت. فالأولى بالإنسان تقدير حاله: حال نومه ودعته، وحال تصرفه ويقظته؛ فإن لها قدرا محدودا، وزمانا مخصوصا، يضر بالنفس مجاوزة أحدهما، وتعبير زمانها. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «نومة الصبّحة معجزة منفعّة مكسلة موزمة، مفشلة ممّساء للحاجة». وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنها: النوم ثلاثة: نوم خرق، وهي الصبّحة، ونوم خلّق، وهي القائلة، ونوم حمق وهو العشي. وقد

رَوَى محمد بن يزداد، عن ميمون بن مهران عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نوم الضحى خرق، والقيلوله خلّق، ونوم العشيّ حُمق». وقيل في منتور الحكم، من لزِم الرّقاد، عَدِمَ المراد. فإذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة، واستوفى حقه بالتصرّف واليقظة، خلص بالاستراحة عن عجزها وكلالها، وسلم بالريضة من بلادتها وفسادها. وحكي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه، فوجده نائماً، فقال: يا أبت، أتنام والناس بالباب؟ فقال يا بُني، نفسي مطّيتي، وأكره أن أتعبها، فلا تقوم بي.

وينبغي أن يقسم حالة تصرّفه ويقظته، على المهم من حاجاته، فإن حاجة الإنسان لازمة، والزمان يقصّر عن استيعاب المهم، فكيف به إن تجاوز إلى ما ليس بهمهم، هل يكون إلا:

كتاركة بيضها بالعراء ومُليسة بيض آخرى جناحاً

ثم عليه أن يتصفح في ليله، ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر، وأجمع للفكر، فإن كان محموداً أمضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل؛ فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال:

إما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها. أو يكون قد أخطأ فيها. فوضعها في غير موضعها، أو يكون قصّر فيها، فنقصت عن حدودها. أو يكون قد زاد فيها، حتى تجاوزت حدودها. وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل، ليعلم به مواقع الإصابة، وينتهز به استدراك الخطأ. وقد قيل: من كثر اعتباره، قلّ عثاره. وكما يتصفح أحوال نفسه، فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره؛ فربما كان استدراكه الضواب منها، أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى، وخلو الخاطر من حسن الظن، فإن ظفر بصواب وجده من غيره، أو أعجبه جميل من فعله، تزيّن نفسه بالعمل به، فإن السعيد من تصفح أفعال غيره، فاقتدى بأحسنها، وانتهى عن سيئها. وقد روى زيد بن خالد الجهني، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «السعيد من وعظ بغيره». وقال الشاعر:

إن السعيدَ له من غيره عِظَةٌ وفي التجارب تحكيّم ومعتبرُ
وأنشدني بعضُ أهل العلم ، لطاهر بن الحسين :

إذا أعجبتك خِصالُ امرئٍ فكُنْه يَكُنْ منك ما يُعجبك
فليسَ على المجدِ والمكرَماتِ إذا جئتها حاجِبٌ يحجبك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه ، فيجب أن يقدّم الفكر فيه قبل دخوله ، فإن كان الرجاء فيه أغلب من الإياس منه ، وحُمدت العاقبة فيه ، سلّكه من أسهل مطالبه ، وألطف جهاته ، وبقدر شرفه يكون الإقدام ، وإن كان الإياس أغلب عليه من الرجاء ، مع شدة التغير ، ودناءة الأمر المطلوب ، فليحذر أن يكون له متعرّضاً . فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا هممت بأمر ففكر في عاقبته فإن كان رشداً فأمضه ، وإن كان غياً فانته عنه » وقالت الحكماء : طالب ما لا يدرك عجز . وقال بعض الشعراء :

فإياك والأمرَ الذي إن توسعتْ موارده ضاقت عليك المصادِرُ
فما حسن أن يعذِرَ المرءُ نفسه وليس له من سائر الناس عاذِرُ
وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خُلُقاً ، وفي كل وقت من أوقات دهره عملاً ، فإن تخلّق في كبره بأخلاق الصّغر ، وتعاطى أفعال الفكاهة والبَطَر ، استصغره من هو أصغر ، وحقّره من هو أقلّ وأحقّر ، وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر :

وكل بازٍ يمسّه هَرَمٌ تخُراً على رأسِهِ العِصافيرُ
فكن أيها العاقل مُقبلاً على شانك ، راضياً عن زمانك ، سلماً لأهل دهرك ، جارياً على عادة عصرك ، منقاداً لمن قدّمه الناس عليك ، متحنّناً على من قدمك الناس عليه ، ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ، ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك ، فإنه لا عيش لمقوت ولا راحة لمعادّي . وأنشد بعض أهل الأدب لبعضهم :

إذا اجتمعَ الناس في واحدٍ وخالفهم في الرضا واحدُ
فقد دلّ إجماعهم دونه على عقله أنه فاسدُ

واجعل نُصْحَ نفسك غنيمة عقلك ولا تُداهنها بإخفاء عيبك ، وإظهار عُذرك ،

فِيصِيرُ عَدُوَّكَ أَحْظَى مِنْكَ فِي زَجَرِ نَفْسِهِ ، بِإِنْكَارِكَ وَمَجَاهِرَتِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، الَّتِي هِيَ أَخْصَى بَكَ ، لِإِغْرَائِكَ لَهَا بِأَعْذَارِكَ وَمَسَاءَتِكَ ، فَحَسْبُكَ سُوءُ رَجُلٍ يَنْفَعُ عَدُوَّهُ ، وَيُضِرُّ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : أَصْلِحْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ ، يَكُنِ النَّاسُ تَبَعاً لَكَ . وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ : مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ ، أَرْغَمَ أَنْفَ أَعَادِيهِ ، وَمَنْ أَعْمَلَ جِدَّهُ بَلَغَ كُنَّةَ أَمَانِيهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ : مَنْ عَرَفَ مَعَابِهِ فَلَا يَلَمُّ مِنْ عَابِهِ . وَأَنْشَدَنِي أَبُو ثَابِتٍ النَّحْوِيُّ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

وَمَصْرُوفَةٍ عَيْنَاهُ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ وَلَوْ بَانَ عَيْبٌ مِنْ أَخِيهِ لِأَبْصَرَا
وَلَوْ كَانَ ذَا الْإِنْسَانُ يُنْصِفُ نَفْسَهُ لِأَمْسَكَ عَنْ عَيْبِ الصَّدِيقِ وَقَصَّرَا
فَهَذَّبَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَكَ ، بِإِفْتِكَارِ عَيْبِكَ ، وَانْفَعَهَا كَنْفَعَكَ لِعَدُوِّكَ ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْظُ ، لَمْ تَنْفَعِهِ الْمَوَاعِظُ .

أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ ، وَعَلَى النَّصِيحِ بِالْقَبُولِ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَكَفَى .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	٣
في فضل العقل وذم الهوى	٥
باب أدب العلم	٢٤
باب أدب الدين	٧٠
باب أدب الدنيا	١٠٧
باب أدب النفس	١٩٧
الفصل الأول في مجانية الكبر والإعجاب	٢٠٢
الفصل الثاني في حسن الخلق	٢٠٧
الفصل الثالث في الحياء	٢١١
الفصل الرابع في الحلم والغضب	٢١٥
الفصل الخامس في الصدق والكذب	٢٢٤
الفصل السادس في الحسد والمنافسة	٢٣١
باب آداب المواضعة	٢٣٦
الفصل الأول في الكلام والصمت	٢٣٦
الفصل الثاني في الصبر والجزع	٢٤٨
الفصل الثالث في المشورة	٢٦٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع في كتمان السر	٢٦٦
الفصل الخامس في المزاح والضحك	٢٧٠
الفصل السادس في الطيرة والفال	٢٧٤
الفصل السابع في المروءة	٢٧٧
الفصل الثامن في آداب منشورة	٣٠٥